

الأشياء تنادينا

قصص

تـــألـــيـــف: خوان خوسيه ميّاس

تــرجــــــمــــة: أحمد عبداللطيف

مــــراجـــعـــة: د. محمد النصار



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-589-9

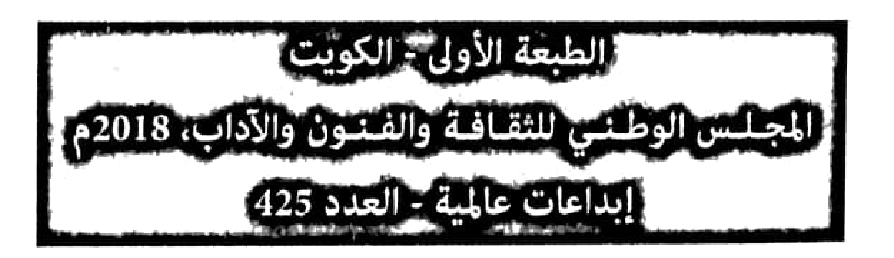
الأشياء تنادينا

قصص


العنوان الأصلي

LOS OBJETOS NOS LLAMAN

By: Juan Jośe Millás


الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018م
إبداعات عالمية - العدد 425


صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي


أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)



مقدمة المترجم

الواقع ذاته كحدث غرائبي في قصة خوان خوسيه ميّاس

في عام 1946، ستشهد مدينة بالينثيا الإسبانية مولد كاتبها الكبير خوان خوسيه ميّاس، وبعد ست سنوات من هذا التاريخ سينتقل الطفل، مع عائلته الكبيرة، إلى مدريد، وهناك سيبقى للأبد. عن هذه السنوات القاسية، حيث إسبانيا حديثة الخروج من حرب أهلية دمرت بناها التحتية، وأورثت الفقر والرعب لكل العائلات، وخلّفت وراءها مرارة لا يمكن محوها من جوف أطفال هذه الفترة، تلاها حكم ديكتاتوري عسكري بعد انتصار القوميين بقيادة الجنرال فرانكو، وحيث الحرب العالمية الثانية تدك أوروبا فتنشر الدم والرعب في جميع أركانها، عن هذه السنوات القاسية يقول ميّاس إن «البرد الذي دخل في جسدي لا يمكن أن يخرج أبدا». هذا البرد الذي شكّل أحد مفردات الطفل، سيشكّل بعد ذلك أحد مفردات الكاتب، حيث الخوف والوساوس والانكفاء على الذات والعزلة مولّد لأسئلة وجودية وفلسفية كبيرة تنبع في الأساس من الأحداث اليومية البسيطة التي تبدو، لبساطتها، غير لافتة، لكنها في واقع الأمر هي الحياة نفسها، كما يقول جوزيه ساراماجو «لا يمكن فهم الأحداث الكبرى إلا بفهم التفاصيل الصغيرة». ربما لم يلتفت الطفل ميّاس إلى أن عالما سرديا يتشكّل حوله بفضل هذه القسوة والعنف والرعب، لكن الشاب ميّاس التفت لذاته ونظر إليها بعمق، فوجد عالما يستحق أن يروى، إذ عالم الطفولة لم ينته عند الطفولة، بل صار، لسوء الطالع أو لحسنه، عالم الشاب ذاته، وعالم الرجل والشيخ.

ميّاس في سياقة السوسيوثقافي

ربما لم تتأثر إسبانيا بشكل كبير بالحرب العالمية الثانية، وإن كان الرعب عابرا للحدود، إذ كانت كارثتها الداخلية أكبر من أن تسمح لها بأن تلتفت كثيرا إلى خارجها. نشبت الحرب الأهلية عام 1936 حين انقلب الجنرال فرانكو على الحكومة اليسارية الديمقراطية، واستمرت الحرب بعنفها إلى عام 1939، عام انتصر الجنرال والفيلق القومي، بعد كثير من الدماء المهدرة، على الجمهوريين الديمقراطيين، ليؤسس لنظام سلطوي يكتمل به مثلث النازية الهتلرية والفاشية الموسولينية، لتدخل معه إسبانيا في نفق مظلم، وتنعزل عن أوروبا والعالم، وتعاني ما تعانيه من فقر ورعب وقمع لن ينجلي إلا بموت الجنرال عام 1975 والاتجاه نحو انتقال ديمقراطي طموح والتصويت على دستور 1978 الديمقراطي. في وسط كل هذا الارتباك السياسي، في وسط الخوف من مجرد الكلام، في وسط الرقابة الحديدية وغياب الأفق، ولد خوان خوسيه ميّاس في مجتمع أقصى ما كان يتوق إليه مثقفوه هو الهجرة غير المشروطة بعد أن باتوا هدفا للمطاردات، وبعد أن غدا القتل وسيلة للسيطرة، حتى لو كان قتلا رمزيا كما حدث للشاعر فيديريكو جارثيا لوركا أثناء الحرب الأهلية نفسها. عاش ميّاس، إذن، ما يقرب من ثلاثين عاما تحت هذا النظام، وعانى، كما عانى مواطنوه، من هذه الحالة السياسية وهذه العزلة. لكنه، على عكس مجايليه من الكُتّاب، بل والسابقين عليه من كُتاب الخمسينيات والستينيات الذين شعروا بواجب أخلاقي في توثيق هذه الأحداث روائيا وقصصيا، والاتجاه نحو أدب واقعي ملتزم لا يخلو أحيانا من المباشرة ويعلو فيه الحس الوطني على الحس

الفني والجمالي، اختار ميّاس أن يسير في طريق منحرف، وأن يصيد من غابة الواقع ما يلزمه فنيا، ليس تخليا عن مجتمعه، بل بحثا عن الجمال وإعادة رؤية الواقع من منظور آخر، منظور ينطلق من تفاصيل الحياة اليومية، ورؤية تسلِّط ضوءها على الفرد لا على الجماعة، إذ المجتمع في نهاية المطاف مجرد أفراد.

ينتمي خوان خوسيه ميّاس جيليا إلى جيل 68، وهو الجيل الذي يضم أهم كُتّاب الأدب الإسباني حاليا: ميّاس، خابيير مارياس، خوان مارسيه، إنريكي بيلا ماتاس، من بين آخرين. ويرتبط اسم الجيل بالتمرد الطلابي الذي انطلق في فرنسا في مايو 68 واستمر لمدة شهرين، واعتبره المحللون والنقاد أكبر موجة تمرد وإضراب عام في تاريخ فرنسا وربما في أوروبا الغربية. رفع التمرد شعارا يساريا في مواجهة "الاستهلاك"، وانضمت إليه مجموعات عمالية ونقابات، وكان له تأثيره الكبير في ميلاد حركة الهيب هوب. هذا التحرك على المستوى السياسي والاجتماعي، كان له بالغ الأثر على كُتّاب هذا الجيل، لكن بدرجات مختلفة ومن زوايا مختلفة. فعام 68 في إسبانيا كان مرحلة بداية انحدار السلطات الفرانكوية، وبداية انخماد لهيب ديكتاتوريته، بعد أن تمت السيطرة التامة وبعد أن تحقق له ما يريد، حدث ذلك مع بداية بزوغ تمرد في الشارع الإسباني لم ير كثيرا من النور، يمكن أن نسميه احتقانا في أعلى درجاته. وجاء عام 75 ليحل الأزمة بموت الجنرال نفسه. حركة 68 (التي يعترض ميّاس نفسه على ارتباطه بها، ويفضّل أن يسموه جيل 70، ويرى أن النقاد يحاولون استغلال الحدث السياسي الفرنسي لتمهيد الأرض للجيل الأدبي الإسباني) تواكبت مع ظهور ما بعد الحداثية، التي ساءلت الحقيقة وانحازت لنسبيتها،

وتواكبت مع كُتّاب فردانيين، لا يؤمنون بالسؤال الجماعي ولا بالسرديات الكبرى (مزايا ما بعد حداثية أخرى) بقدر ما يؤمنون بالفرد كذات، ويسلطون الضوء على التحليل النفسي والاستبطان، أهم ما يميز ميّاس.

لقد استغرقت السردية الإسبانية كثيرا في تفاصيل الحرب الأهلية، وأضاعت على نفسها فرصا كبيرة من التطور في اتجاه تكوين جمالية خاصة، وابتعدت عن التجريبية حتى باتت كوثيقة تاريخية مغلقة، بعد أن قطعت مسافة طويلة من الخبرة والتوهج بداية من ميجيل دي ثيربانتس وحتى ميجيل دي أونامونو، ولا نظن أن السبب في ذلك كان الكُتّاب وحدهم، إنما المؤكد أنه السياق العام من ناشرين ومتلقين كانوا يرغبون في أن يروا حياتهم اليومية بمآسيها وأزماتها مسجّلة في قصة أو رواية، وربما استجاب الكُتّاب لمفهوم السوق أو لوخزات الضمير والالتزام الاجتماعي. على أي حال، أي كانت الأسباب، فمع الحرب الأهلية دخلت السردية الإسبانية نفقا مظلما على المستوى الجمالي، ولإنقاذها، كانت في حاجة إلى البُعد عن التورط في الواقع أو رؤيته من منظور فوق واقعي. من هنا استعادت السردية الإسبانية توهجها مع خيال خوان خوسيه ميّاس الذي، للمفارقة، يمكن قراءة أعماله في مجملها تحت ضوء الوثيقة السوسيوثقافية. لقد استطاع ميّاس أن يطرح سؤال الهوية، الهوية الإنسانية أو الإسبانية، وأن يسجّل أزمات الإنسان المعاصر عبر سردية شديدة الشفافية والرقة، كأنها الماء، كأنها الزجاج، من دون أن يتورط في الواقع المعروف أو ينطلق من نفس منظور الكُتّاب السابقين عليه. إنه كافكا السردية الإسبانية، لكنه يمتاز عن كافكا بحسه الفكاهي وبسخريته الناصعة من الواقع والذات.

حياته وأعماله

لن يكمل ميّاس دراسته بكلية الفلسفة والآداب، إذ كان مضطرا طوال حياته لأن يعمل بجانب الدراسة، واعتاد على الدراسة الليلية، ثم يتخذ قرارا بترك الجامعة في عامه الثالث، ليعتمد على القراءة ويبني ثقافته بنفسه، وسريعا ما ينشر رواية أولى بدا فيها تأثره بالكاتب الأرجنتيني خوليو كورتاثر، وإن بدت فيها أيضا أصالته ككاتب يحاول شق طريق مخالف للرواية الإسبانية، سيتضح بعد ذلك أنه طريق خاص جدا، يمكن أن نطلق عليه «ميّاسي»، إذ استطاع بداية من روايته الثانية، التي غدت روايته الأولى بعد أن محا من تاريخه روايته الأولى، «العقل هو الظلال» (1975) أن ينحت أسلوبه الخاص وصوته المميز، وهو ما التفت إليه النقاد سريعا ففاز بجائزة «سيسامو» في الرواية. أثناء ذلك كان يعمل إداريا بشركة الطيران الإسبانية «إيبيريا»، فبدأ رويدا رويدا يكتب للصحافة حتى قرر أن يستقيل من عمله نهائيا وأن يكرس حياته للكتابة والاكتفاء بكتابة مقالات للصحف فصار أحد أبرز كُتّاب المقال بجريدة «الباييس» الإسبانية واسعة الانتشار، وذلك بفضل أسلوبه المميز والساخر الذي لا يفصل فيه بين ما هو ذاتي وما هو جمعي، وتميزت مقالاته بأنها تجمع ما بين القصة والمقال، حتى أُطلق عليها "المقال الأقصوصة" التي ينتقد فيها الواقع والمجتمع لكن في إطار قصة مؤلفة.

ستتوالى أعمال ميّاس أثناء ذلك، وتتنوع ما بين القصة والرواية والمقال والريبورتاج الصحافي، ففي الرواية ينشر «رؤية الغريق» (1977)، «الحديقة الخالية» (1981)، «الورقة المبلولة» (1983) والتي ستحقق نجاحا جماهيريا لافتا ومعها ستتحقق شهرته

الجماهيرية الكبيرة، «حرف ميت» (1984)، «فوضى اسمك» (1987) «هكذا كانت العزلة» (1990) والتي ستفوز بجائزة نادال للرواية، «العودة إلى البيت»، وهذه الروايات الثلاث ستجمع بعد ذلك في كتاب واحد بعنوان «ثلاثية العزلة»، «أحمق وميت وابن حرام وغير مرئي» (1995)، «الترتيب الألفبائي» (1998)، «لا تنظر تحت السرير» (1999)، «امرأتان في براغ» (2002)، «المدينة» (2005)، «لاورا وخوليو» (2006)، «العالم» (2007) وستفوز بجائزتين: جائزة بلانيتا المرموقة والجائزة الوطنية في الرواية، «ما أعرفه عن العفاريت» (2010)، «المرأة المهووسة» (2014)، «من الظل» (2016)، «حكايتي الحقيقية» (2017).

أما أعماله القصصية، فثلاثة كتب: «ربيع الحداد وقصص أخرى» (1989)، «قصص زناة تائهين» (2003) و«الأشياء تنادينا» (2008)، بالإضافة إلى متتالية قصصية مونولوجية بعنوان «هي تتخيل وهلاوس أخرى».

سيكون لكتابة المقال نصيبها كذلك في كتب لافتة مثل «جسد وبروستاتا» «مقالات قصصية» «أعداد فردية وزوجية ومعتوهة» «الأحلام تتحقق» «ثمة شيء ليس كما يقولونه لي» «كلها أسئلة» و«ظلال على ظلال». بالإضافة لكتب تضم ريبورتاجات صحافية مثل «عين الكالون» و«حيوات على الحافة» و«ماريا ومرثيدس».

هواجس وأسئلة

يبدو الراوي في كل أعمال ميّاس القصصية والروائية واحدا، هو ذاته، حتى لو اختلف نوعه، راوٍ واحد ينتمي إلى الطبقة الوسطى وغالبا رجل ناضج في منتصف العمر. يتنقل الراوي بين الضمير الأول:

الذاتي، إلى الضمير الثالث: الراوي العليم، في هذه المجموعة، وإن كان الضمير الأول هو السائد في معظم أعمال ميّاس. اختيار هذا الراوي الذاتي ليس بعيدا عن مضمون القصص نفسها التي تنطلق من لحظة ذاتية جدا ثم تتسع لتشمل معنى أكبر، لكنه إيهام أيضا بالصدق والحقيقية، ما يجعل القارئ يتماهى مع النص وإن بدا غريبا عن الواقع. حميمية الضمير أحد مقومات السردية ما بعد الحداثية أيضا، إذ الفرد المهمّش يتحدث بصوته، لكنه ليس الفرد المنتصر أو الأسطوري أو البطل، بل الفرد المهزوم واللا بطل، وهي خصائص شخصية وسردية تبدو في موقعها الطبيعي مع الضمير الأول. هذا البطل الميّاسي، أحد مخلفات حربين عالميتين كبيرتين وحرب أهلية، هو الصورة المناقضة للبطل الحداثي الذي ولد في أوروبا المنتصرة علميا وفلسفيا، حيث تحول فيها الإنسان، بناء على هذه الفلسفة، لمركز الكون، غير أن أحداث النصف الأول من القرن العشرين كانت كافية لتراجع الفلسفة الأوروبية نفسها لتضع الإنسان في موقعه الطبيعي ككائن ضعيف، لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه. من هنا كان ميلاد تيار ما بعد الحداثة في النصف الثاني من القرن العشرين، مع الناقد المصري إيهاب حسن وليوتار وميشيل فوكو وجاك دريدا، من بين أسماء أخرى كثيرة، وكان تدشينه في السبعينيات رغم أن تجلياته الأدبية ظهرت من قبل مع خورخي لويس بورخس وتيار الواقعية السحرية، وهو التيار الذي انتصر للميتافيزيقي والغيبي والمجهول، وطرح من جديد أسئلة خاصة بما وراء العالم والمرئي، وهي أسئلة تجاهلتها الحداثة واستسهلت الإجابة عنها بالنفي. بالطبع كان للحداثة الأوروبية مزاياها الكبرى، وفتحت مجالا كبيرا للعلم والتفكير، لكنها لم تقدم ما كان ينتظره الإنسان من

أجوبة على أسئلته الوجودية، ولم تستطع أن تنقذ أوروبا من الحرب العالمية الأولى ولا الثانية، ولا استطاعت حقن الدماء التي أهدرت لملايين البشر. ميّاس، إذن، ينتمي أدبيا لتيار التشكك في الحداثة، تيار الإيمان بضعف الإنسان وهزيمته في الواقع، تيار الوساوس والهواجس والأسئلة حول اللاوعي والوجودي، واختار أن يعبّر عن نفسه بالابتعاد عن الواقع قليلا ليقرأه من نافذة الغرائبية، فكان الاستبطان والتحليل النفسي معولين له، وكان الخيال الجامح عمودا رئيسيا في أدبه. غير أن ميّاس، على عكس كُتّاب آخرين كتبوا في نفس التيار، اختار أن ينطلق من الواقع اليومي، من هذه التفاصيل المكررة لحدّ أننا لا ننتبه إليها، فبات كل حدث قابلا للتحول لقصة، وليست قصة اعتيادية، إنما قصة خلّاقة، تحمل الكثير من المعاني خلفها، والمعنى هو ما يطمح إليه الأدب، إذ المعنى هو الجوهر، هو الوصول لمعرفة إنسانية، هو تصور كينونتنا كبشر، هو بلورة لخبرة ما، حتى لو لم يكن المعنى جوابا لسؤال، حتى لو كان محض باب يفتح أسئلة أخرى، هذا أيضا من خصائص ما بعد الحداثة، إذ الإنسان الفرد المهزوم لا يعرف أجوبة. من جانب آخر، يبدو الانشغال بالوصول إلى معنى واضح في الثيمات التي يختارها ميّاس، وهي ثيمات يضعها في إطار شكل يحمل الكثير من التجديد، فالكاتب الإسباني «مايسترو» في التكنيك، كما يبدو في رواياته «من الظل» و«أحمق وميت وابن حرام وغير مرئي» و«المرأة المهووسة»، ففي الأول يتناول قصة رجل أربعيني دخل في خزانة ملابس قديمة معروضة للبيع، ليجد نفسه في بيت عائلة، فيظل يراقبها من داخل الخزانة عبر السمع، ومن مكانه يمر بتجربة صوفية ثرية، وفي الثانية يوجه نقدا للمجتمع الإسباني من خلال بطله الذي كان مديرا للموارد البشرية بإحدى

الشركات الكبرى الحكومية، فيمر أيضا، عقب طرده من العمل، بتجربة إنسانية مذهلة يقلّب فيها حياته من الطفولة ليكتشف أن ما وصل إليه ما كان ليصل إليه لولا أنه اجتمعت فيه الصفات الموجودة في عنوان العمل ذاته. وفي الثالثة، «المرأة المهووسة» ينطلق من فتاة تظهر لها كلمات لا وجود لها في المعجم، ليتطور العمل في إطار سؤال جوهري طرحته الفتاة على الكلمة الغريبة: لو أردتِ أن تدخلي المعجم يجب أن نقُصَّ منك بعض الحروف. إنها لعبة تشبه لعبة الحياة نفسها، حيث التخلي والتنازل أو الحياة.

وهنا، في هذه المجموعة، «الأشياء تنادينا»، تتجلى مهارات ميّاس العبقرية في القدرة على حكاية قصة في عدد قليل من الصفحات، وبسلاسة لا نظير لها، وبلغة سيّالة، فتفتح القصة أفقا يمكن من خلاله مشاهدة أنفسنا، وطرح أسئلة عليها. وكعادة ميّاس في أعمال أخرى، تسيطر أسئلة الموت والوحدة والهوية على كل سردية، وكأن الشخصيات على تنوعها تعاني من نفس الأزمة.

«الأشياء تنادينا» في نهاية المطاف، هي نحن، هي كل واحد فينا، إنها مجموعة قصصية تسائل إنسان اليوم، وتعكس حيرته ووساوسه، وتضعه أمام مرآة، وهي إذ تفعل ذلك تتعمق في ذواتنا بينما تفتح نافذة على معرفة العالم. في كثير من القصص، سيجد القارئ العربي نفسه هناك، فرغم أن الكاتب إسباني ومن ثقافة أخرى، إلا أن أسئلته هي الأسئلة الإنسانية الرحبة، أسئلة قادرة على رؤية بؤس الإنسان وتسعى لفهمه.

أحمد عبداللطيف
مدريد 2018

الأصول

LOS ORÍGINES

الميتة
LA MUERTA

ذات يوم، أشار زميل مدرسة إلى امرأة وقال لي:

- انظر إليها، إنها ميتة.

كان يبدو لي مستحيلا أن تتحرك امرأة ميتة بهذه الطبيعية بين الناس. وبالفعل، كنت أعرف أنها أكذوبة، غير أنه بدا لي مثيرا أن أصدّقها، وهكذا اتبعتُ صديقي في اللعبة، بينما يؤكد لي أن لديه قدرة تمييز امرأة ميتة بين آلاف النساء الحيات.

- لكن بماذا تميزها؟

- لا شيء محدد، وكل شيء في نفس الوقت. إن ركّزت، تسير الميتات محاطات بشيء كفقاعة من حوائط غير مرئية. حين تتمتع بقدرة الشعور بهذه الفقاعة، ستتعلم تمييزهن.

بعد هذا الحوار بأيام قليلة، كنت أركل بقدمي أحجار شارعي حين رأيت امرأة داخل فقاعة. لا بد أني أنا من صنعتُ الفقاعة، لكن المرأة كانت واقعية بالكامل. سرت وراءها في الخفاء حتى شارع «لا أبينيدا دي أميركا»[1]، ثم شارع «فرانثيسكو سيلبيلا»[2]، ثم وصلتْ إلى محل حدادة ودخلتْه لتخرج بعد قليل معلقة في

(1) أحد الشوارع المهمة في مدريد، ويعني جادة الأمريكيات.

(2) شخصية سياسية إسبانية.

ذراع رجـل طويـل جـدا ولـه شـارب مثـل شـارب كلارك جيبيـل[3]. كان الرجـل حيـا، بالطبـع، ولم يكـن يعامـل المـرأة كجثـة. عـلى العكـس، كان يقـارب مـن جسـدها كلـما سـنحت الفرصـة، وكان ينقـل حائـط الفقاعة ناحيـة الجانـب الآخـر، ثـم يقبّلهـا في رقبتهـا مـن خـلال غشـاء يبـدو أنـه لم يكشـفه. دخـلا معـا في حانـة مطلـة عـلى شـارع «ميخيكـو»[4] وتنـاول كل منهـما شـطيرة كالمـاري واحـدا. وعندمـا كانـت تمـد ذراعها لتأخـذ مـن البـار كـوب البـيرة، كانـت تسـحب يدهـا مـن الفقاعـة مـن دون أن تخدشـها، مثـل أشـياء أخـرى لديهـا القـدرة عـلى التسـلل إلى فقاعـة صابونيـة.

وبـدأت أركّـز انتباهـي في الرجـل. كان يبـدو نمطـا لشـخص دنيـوي، كنـت أتطلـع أنـا إلى أن أكونـه في ذاك الوقـت. وكنـت أفكّـر بسـذاجة أنـه رجـل مـن الطبقـة العليـا، ولابـد أنـه يتحـرك بنفـس الطبيعيـة بـين المـوتى والأحيـاء. هـذا الرجـل كان يتـصرّف برشـاقة مذهلـة وكان يعـرف في أي لحظـة يجـب أن يـزرر أو يفـك زر الجاكيـت ومتـى يمـرر إصبع السـبابة عـلى طـرف شـاربه، كـما يعـرف التقـاط فتـات الخبـز كأنـه يلتقـط فكـرة. وعنـد خروجهـما مـن الحانـة، عانـق خصرهـا وشـدها ناحيتـه بعنـف، حتـى إنـه لم ينتبـه إلى الفقاعـة. حينئـذ، انصرفـتُ عن مطاردتهـما ولـديّ فكـرة رومانسـية بـأن الحـب يكمـن في إنقـاذ الآخـر مـن المـوت، وقـررتُ أن أنتظـر فرصتـي.

بعـد شـهور قليلـة، جـاءت إلى الحـي فتـاة جديـدة، وكانـت محاطة بفقاعـة. كانـت صغـيرة جـدا عـلى المـوت، لكنـي اسـتشرتُ صديقـي فأخـبرني بـأن المـوتى مـن كل الأعـمار.

(3) ممثل أمريكي حائز على جائزة الأوسكار.
(4) تعني المكسيك، وهي طريقة النطق باللغة الإسبانية.

- لديَّ ابنة عم عمرها ثلاثة أسابيع وميتة أيضا.

- وماذا يقول أبواها؟

- لا يعرفان ذلك. أغلب الناس لا يرون الفقاعة.

عشقتُ الفتاة كمجنون، وحين استطعت ادّخار المال الكافي، دعوتها إلى تناول وجبة في حانة شارع فرانثيسكو سيلبيلا المطلة على شارع ميخيكو. ثم حاولتُ الاقتراب منها لأنقذها من الفقاعة، لكنها لم تستجب لي. وفي اليوم التالي، حين مررتُ بالقربِ من مجموعة تقف معها، لاحظتُ أنها تشير إليّ بلمحة سخرية. كانت تتباهى بأنها سلبتني الوجبة، وكان ذلك ثروة بالنسبة إلينا. حينئذ، ورغم خجلي، اقتربتُ من المجموعة وصوبتُ إصبعي إلى صدرها وقلت لها:

- أنتِ ميتة. لا تظني أني لا أعرف.

فابتعدتْ كل صديقاتها قليلا، كأنهن يخفن العدوى، ومنذ ذلك الحين غدت تجر حياتها وحيدة، وأنا لم أحاول أن أخفّف عنها، رغم أنها ظلت تتوسل إليّ بعينيها. ثم تزوجتْ من رجل ميت من الجوع وباتت ترافقه في قداسات الموتى كل أسبوع. بقيتْ في الحي، وكلما ذهبت إلى هناك لزيارة أبويّ، كانت تتصنع المصادفة لأحررها من الفقاعة التي لا تزال مقيدة بداخلها. لكني الآن، حتى لو تمنيتُ، فلن أستطيع تحريرها، لأني أنا نفسي غدوت مسجونا على مدار كل هذه السنوات داخل غشاء شفاف ومرن لا يمكن أن ينقذني منه إلا امرأة حية.

ولا أزال أعزب
CONTINÚO SOLTERO

ذات مـرة، اصطحبنـي أحـد زمـلائي بالمدرسـة إلى واجهـة محـل ملابـس كان يقـع بالشـارع الرئيـسي لحينـا، وطلـب منـي أن أحـدّق في واحـدة مـن المانيكانـات التـي قـد رآهـا مـن قبـل، إذ بالإضافـة لتمثيلهـا امـرأة شـقراء، كان عـلى وجههـا انطبـاع مختلـف عـن بقيـة عرائـس الواجهـة.

- ماذا يحدث؟ قلت وأنا أتصنع اللامبالاة.

- ركّز جيدا -ألح هو- ألا تلاحظ شيئا فيها؟

- كلا.

أشـار صديقـي حينئـذ إلى فسـتان هـذه المانيـكان لأرى تحـت إبطيهـا بقعتـين صغيرتـين، كأنهـا تتعـرق.

كان حقيقة، لكني أرجعت ذلك إلى غرابة في نسيج الفستان.

- إنهـا المانيـكان الوحيـدة المبقّعـة -برهـن- بالإضافـة لذلـك، فمنـذ زمـن وأنـا أتأملهـا ويحـدث لهـا ذلـك مـع كل الملابـس التـي يُلبسـونها إياهـا.

عـدتُ إلى البيـت مرتبـكا، وفي تلـك الليلـة حلمـتُ بكوابيـس حسية. وفي اليـوم التـالي، حـين رحـتُ إلى المدرسـة، مـررتُ مـن أمـام

المحل ورأيتهم قد غيّروا فستان المانيكان للتو. الآن كانت ترتدي بلوزة بيضاء نظيفة تماما. ومع ذلك، عند العودة من المدرسة، ظهرت دائرتا العرق الملفتتان.

قضيتُ أنا وصديقي كل ساعات الفراغ أمام المانيكان، كنا مريضين برغبة حسية، وربما بالحب أيضا: أين الحد الفاصل بينهما؟ وفي هذياني، كان يبدو لي أن المرأة المصنوعة من الكرتون والحجر كانت تنظر إليّ كأنها تترجاني لأنقذها من حالتها هذه وأن أحوّلها إلى امرأة واقعية. لكن كيف أفعل ذلك إن كنت أنا وهي نعيش في بعدين مختلفين.

كان أبي يعرف صاحب المحل، فطلبتُ منه توصية لأعمل معهم في أيام أعياد الميلاد حيث يزداد ضغط العمل. وبدا حسنا للمالك أن يكون لديه صبي لفعل كل شيء، وفي اليوم الأول من الإجازة بدأتُ العمل وكنستُ الأرضية وقمتُ بكل المهام، بينما كنتُ أراقب المانيكان الشقراء.

بعد يومين أو ثلاثة، وصلتْ إلى المحل فساتين وقفة العيد الفانتازية. وفي تلك الليلة، بقي كل العاملين في المحل بعد إغلاقه لتغيير الواجهات وتعليق الزينة. وسلّموني المانيكان التي كانت تعرق وأمروني بأن ألبسها فستانا أسود، عاري الكتفين جدا، وعقدا من اللؤلؤ غير الحقيقي وحذاء بكعب إبرة.

- لا تتجاوز معها. قال لي رئيسي ضاحكا، كأنه انتبه إلى شغفي بها.

حين صارت المانيكان بين ذراعيّ وحملتها إلى خلف الواجهة لأجرّدها من ملابسها، كان قلبي على وشك أن يقف. لم تكن لي أي تجربة جنسية، غير أن إمكانية أن أقلع وألبّس تلك المرأة التي

تعرق، حتى لو كانت امرأة مزيفة، بدت لي أفضل من أي لقاء مع فتاة واقعية. لم أكن أعرف كيف أتصرف لأداري ارتباكي. ولحسن الطالع، كان جو العمل مضغوطا ولم يكن أحد يلاحظ الآخر. ثمة شيء واحد كان يعكّر متعتي، فحين كنت أسحب المانيكان من الواجهة لألبسها فستان العيد، بدا لي أني رأيت صديقي على الجانب الآخر يراقب من الظلام وبحسرة حركاتي أنا والمانيكان.

عندما كنت أنا والمرأة الكرتونية وجها لوجه، في غرفة حقيرة في خلفية الواجه، جردتها، بحنجرة جافة، من سترتها التي كانت ترتديها وتحققتُ بالفعل من أن إبطيها كانا مبلولين. أنا أيضا كنت أتعرق في تلك اللحظة، من دون أن أتمكن من علاج ذلك. وكان ثمة عاملان آخران في ظهري، يجهّزان الزينة والزينة المعلقة، غير أن أيا منهما لم ينتبه إليّ. لكن المانيكان، نعم. المانيكان نظرت إليّ بابتسامة محمّلة بنية ما.

كانت أجمل أعياد الميلاد في حياتي وحتى اليوم، كلما فكّرت في ذلك، ليس بوسعي أن أتخيل إثارة أروع من تلك التي تلقيتها من عروسة تعرق.

ثم عدتُ إلى المدرسة بانتهاء الإجازة، ولم يسألني صديقي إلا عن المانيكان، غير أني كنت أتظاهر بالتجاهل، كأن حدث رؤيتي لها عن قرب أفقدني الشغف.

- لا تعرق. (كذبتُ)

- وبقعة الفساتين؟

- لا أعرف، لكني أؤكد لك أنها لا تعرق.

ولم نتحدث عنها مرة أخرى. وذات يوم اختفت المانيكان من المحل ومن حياتنا، وكلما كبرنا كانت الفانتازيا تتضاءل في حواراتنا.

وخـلال الجامعـة، لم ألتـق أنـا وصديقـي، رغـم أننـا كنـا نتصـادف أحيانا في الحـي ونتنـاول زجاجـة بـيرة. وكان يهيـأ لي أننـا كلـما تحدثنـا لم يكـن ذلـك إلا ذريعـة حتـى لا نتحـدث عـن المانيـكان. وحـين تـزوج صديقـي، دعـاني إلى زفافـه. وحـين اقتربـت لأقبّـل عروسـته، رأيـت فيهـا دائـرتي عـرق تحـت إبطيهـا. حينئـذ رفعـتُ عينـيّ وتبادلـتُ مـع صديقـي، خـلال عُـشر ثانيـة، نظـرة قلـق. ثـم ضغطـتُ عـلى يـده وتمنيـتُ لـه السـعادة.

ولا أزال أعزب.

سيدات ضَخْمات
MUJERES GRANDES

كانت أمي تحب قصص الأقزام الذين تسعهم راحة اليد. وفي كل عام، مع بداية الشتاء، كانت تخرج المعاطف من عمق الخزانة وتقول لنا: «انظروا جيدا في الجيوب، فربما يوجد أقزام وتؤذونهم بأيديكم».

وإذا رأتنا ندخل غرفة مظلمة، كانت تطلب منا أن نسير بحذر حتى لا ندوس عليهم، وفي الصباح، قبل أن ننتعل أحذيتنا، كان علينا أن نتحقق من أنها خالية منهم. وذات مرة أهدوني قطا، غير أن أمي أقنعتني بأن أعيده، ليس لأنها لا تحب القطط، إنما للخطر الذي تمثله القطط عليهم. لم أر أيا منهم في حياتي، لكني كنت أعيش مهووسا بهم، وخلال الإفطار تعودت أن أترك لهم، في فراغ تحت مائدة السفرة، بسكويتتين تختفيان في ساعة العشاء. ربما كانت أمي ترميهما سرا، وربما كانت تأكلهما لتغذي العفاريت التي تسكن في رأسها.

ثمة فرع في الأدب عن الأقزام. إنهم أناس ميزتهم الوحيدة أن الكشتبان يسعهم. لقد كان لي خيالات كثيرة معهم، كنت فيها متأثرا بالطبع بأمي وبقراءتي لـ جيلفير[5]. ولأني كنت طفلا منعزلا،

---

(5) عمل أدبي يهتم بعالم الأقزام.

كان الأقـزام المتخيلـون يملـؤون فـراغ العلاقـات الشـخصية. وأحيانـا، حـين كنـت أفتـح درجـا، كنـت أحـاول أن أفـزع واحـدا مـن هـؤلاء العفاريـت المختبئـين خلـف بكـرة خيـط. وفي الحـمّام، لم أكـن أرفـع غطـاء التواليـت أبـدا حتـى أتأكـد مـن أن عفريتـا لا يطفـو عـلى وجـه المـاء.

أعتقـد أنهـم لم يكـن لهـم ملمـح شـخصي محـدد. لم يكونـوا لا أشرارا ولا طيبـين، لا مجانـين ولا رصينـين، لا جهـلاء ولا حكـماء. نحـن نعـرف صفـات الحوريـات الأخلاقيـة، وصفـات السـاحرات، غـير أن عفاريـت أمـي كانـوا يفتقـرون للتقييـم الأخلاقـي. كانـوا، ببسـاطة، مجـرد عفاريـت. وكان ذلـك، رغـم أنـه في كِـبري يثـير فيّ حـيرة مـا، إلا أنـه كان طبيعيـا في طفولتـي. لـو أنـك كنـت قزمـا، مـا كنـت لتحتـاج إلى أن تكـون شـيئا آخـر. البـشر وحدهـم مـن يحتاجـون إلى أن يكونـوا مهندسـين أو صحافيـين أو محامـين.

في أحيـان كثـيرة أتسـاءل: لمـاذا هـذه الكائنـات تفتقـر إلى نسـختها النسـائية؟ إذ إن أمـي كانـت تتحـدث دائمـا عـن قـزم لا عـن قزمـة، أبدا. وأنـا كنـت أتخيلهـم بقبّعـة مـن الشـعر وربطـة عنـق. كانـوا مدخنين في عمومهـم، ويبـدو أنهـم يتمتعـون بوضـع اقتصـادي مريـح. وذات يـوم سـألت أمـي: لمـاذا لم يتزوجـوا مـن سـيدات بنفـس أحجامهـم؟ فرفعـتْ كتفيهـا كأنهـا لا تعـرف تفسـيرا لذلـك. ثـم لم تسـتطع مقاومـة وسواسـها وأضافـت بملمـح متبـاهٍ: «لأنهـم يغرمـون بالسـيدات الضخمـات».

مُتع التاكسي
LOS PLACERES DEL TAXI

كانت أمي مغرمة بالقصص المرسومة وبالأمراض. وفي السرير، مكانها الطبيعي جدا، كانت تقضي يومها وهي تقرأ هذه القصص. غير أنها، بمجرد أن تشعر بمجيء أبي، كانت تخبّئها تحت الملاءات وتضع الترمومتر في فمها. لم أفهم أبدا إصرارها على إثبات أنها امرأة تعيسة، ومنكوبة، ومريضة. على أي حال، أتاح لي هوسها بالسرير أن أمتلك كل القصص المرسومة لتلك الفترة. وبجانب البيت، كان ثمة كشك يمكن أن نتبادل معه القصص المقروءة بقصص أخرى أقدم قليلا. ومع تبادل القصص لأربع مرات أو خمس، كانت تعود إلى البيت بأوراق مفكوكة وملطخة ببقع القهوة. حينئذ كان يجب الاستثمار في القصص الجديدة التي كانت تتبع نفس مسار القديمة. وكان قانون التحول هو: الحكايات قديمة، كل الحكايات قديمة.

وعندما لم تكن في السرير، كان يروق لأمي أن تذهب إلى المجمعات التجارية بوسط المدينة. وكانت دائما تصطحبني معها. كنا نذهب في تاكسي، لأنها كانت مغرمة بسيارات الأجرة، لكنها كانت تغمز لي بعينها وتطلب مني أن أقول لأبي إننا ركبنا الباص.

والحقيقـة أنهـا حتـى هـذه الطريقـة لم تجعلهـا سـعيدة، إذ كانـت تراقـب طـوال الوقـت وبقلـق هائـل حركـة العـداد. وأتذكـر أنـه كان يتحـرك كل خمـس ثـوان. أنـا الآن أركـب تـكاسٍ كثـيرة، أعتقـد أني أفعـل ذلـك لأمنـح بهجـة مـا لَطيـف أمـي أكـثر مـماً أمنحهـا لنفـسي، فالحـق أني كلـما ركبـت المـترو أو البـاص تخطـر لي دائمـا فكـرة صالحـة لكتابـة مقـال.

وذات يـوم، وبداخـل المـول التجـاري، التقينـا بسـيدة أنيقـة جـدا تغطـي رأسـها بطاقيـة صغـيرة. تبادلتـا التحيـة ببهجـة حـارة وأدركـتُ أنهـما كانتـا زميلتـين في المدرسـة. كان واضحـا أن وضـع صديقـة أمـي الاقتصـادي أكـثر راحـة منـا. وكان واضحـا كذلـك أنهـما يتحاربـان لتثبت كل واحـدة منهـما أن الحيـاة أكرمتهـا أكـثر مـن الأخـرى.

حينئـذ انحـرف انتباهـي إلى مانيـكان امـرأة كان أحـد الباعـة يجرّده مـن ملابسـه تحـت مـرأى مـن العامـة. انفصلـتُ عـن أمـي وصديقتهـا وانجذبـتُ لهـذا العـرض البورنوغـرافي، وعندمـا ابتعـدت قليـلا، وحـين ظنّـتْ ربمـا أني لـن أسـمعها، قالـت أمـي إني ابـن الخادمـة.

كنت سأقسم لك إنه ابنك. قالت صديقتها.

الحقيقة لا. ردت بشيء من الضيق.

عُدنـا إلى البيـت في تاكـسي، وكنـا نراقـب بقلـق حـركات العـداد. كانـت أمـي تنظـر إليّ بنظـرات المذنبـة. وفي البيـت، أعطتنـي مـالا ثـم عانقتنـي وكـررتْ مـا تقولـه دائمـا:

قل لأبيك إننا ذهبا إلى وسط المدينة بالباص.

لغز
UN MISTERIO

مـرت أمـي بعـدة مراحـل، مثـل بيكاسـو، إلا أنهـا بـدلا مـن الرسـم كانـت تهـوى الانتقـال مـن هنـا لهنـاك. في منتصـف الصباح كانـت تتوجـه إلى السـوق. وأحيانـا كانـت تسـمح لي بمرافقتهـا (ليـس دائمـا، إذ إنهـا كانــت تحــب أيضـا أن تكـون بمفردهـا، أو هــذا مـا كانـت تقولـه). وأنـا كنـت أقـف، مثـل أغلـب الأطفـال، أمـام محلات الجـزارة، مأخـوذا بأجسـام الحيوانـات المفتوحـة في منتصفهـا قنـاة. ولأني لم أكـن أؤمـن بالمـوت، كنـت أفكـر أن تلـك الأبقـار المذبوحـة لا تـزال تحيـا، رغـم أنهـا فقـدت وسـيلة التعبـير عـن نفسـها لأنهـم قـد انتزعـوا منهـا أعصابهـا. اليـوم يمكـن أن أقـول ذلـك بـكل هـدوء وثقـة لهـؤلاء الأشـخاص الذيـن يشـكون مثلـما كنـت أشـك: أبقـار محـلات الجـزارة ميتـة، ميتـة تمامـا، ولـن تشـعر بـأي ألم لـو قطعوهـا إلى رِيَـش أو حوّلوهـا إلى لحـم مفـروم. الخـراف أيضـا ميتـة، وكذلـك الأرانـب. حتـى الجـزار نفسـه، أحيانـا، يكـون ميتـا. أقـول ذلـك لأن الجـزار بجـزارة السـوق بحيـي كانـت لـه عينـان جاحظتـان، مثـل عيـون الأبقـار المسـلوخة، وكان شـاحبا شـحوبا يخيـف. وعندمـا رأيـت أول فيلـم عـن الزومبـي، أدركـت المسـألة.

وذات يوم، اشترت أمي من محل الدجاج دجاجة كاملة، بكل أشيائها، وكان كل شيء في مكانه الطبيعي، رغم أنها كانت ميتة تماما. ثم عُدنا إلى البيت وشرع كل منا في الانشغال بما عليه الانشغال به. وفي ساعة الغداء، كنت أنتظر مشاهدة الدجاجة على المائدة، غير أننا بدلا من ذلك أكلنا بيضا مقليا. استغربت لذلك، لكني لم أقل شيئا. فكرتُ أن الدجاجة من أجل العشاء، أو من أجل اليوم التالي. لكن الدجاجة لم تظهر لا على العشاء ولا في اليوم التالي. في تلك الفترة لم يكونوا يجمّدون الأطعمة لأن الثلاجة لم تكن تتمتع بنظام الترموستات، وبالتالي كان من الصعب بمكان تفسير ذلك.

- ماذا حدث للدجاجة يا ماما؟ سألتُ بعد أسبوع أو أسبوعين.

- انس الدجاجة.

- لماذا؟ ألححتُ.

- انسها نعم، لأني أقول ذلك.

ولأني لم أكن طفلا صعبا بأي شكل، أطعتُ ونسيتُ الدجاجة حتى ماتت أمي. في الشرفة، كان ثمة أصائص كبيرة تضم نبات إبرة الراعي، وكانت أمي توليها رعاية كبيرة، وعند تقسيم البيت قلتُ لإخوتي أريد أن أحتفظ بالأصائص، ففرّغتُها ونقلتُها إلى بيتي، وحتى وهي بلا طين كانت ثقيلة بزيادة.

عند تفريغها، عثرت على بقايا عظمية لدجاجة، كانت بكل جلاء قد دُفنت هنا مثل سنوات طوال. لماذا فعلتْ أمي ذلك مع هذا الطائر؟ لن أعرف السبب أبدا. فالآباء، حين يرحلون، يورّثوننا ألغازا أكثر من الثروات.

زيت خروع وتصوُّف
ACEITE DE RICINO Y MISTICA

كانت أمي تهتم بشكل كبير بحالة اللسان. وفي الصباح، كانت ترصنا في صف لنعرض لها لساننا واحدا وراء الآخر. ثم كانت تقرر من منا يحتاج إلى تناول زيت خروع ومن لا يحتاج. كان لزيت الخروع طعم مقزز، رغم أن أخي أنطونيو -وكان غريبا جدا- يروق له على ما يبدو. وأحيانا كان يتناول سرا زيتي وزيت أختي إلبيرا.

- كيف يمكن أن يروق لك؟ كنت أسأله.

- لا يروق لي، إنما أعوّد نفسي قليلا قليلا على الأشياء التي لا تروق لي.

بعد سنوات، لاحظت متفاجئا أن طريقة أخي لمواجهة الواقع تظهر في الكتب الورقية باسم التصوف. فالمتصوف يبحث عن الخير عبورا بالشر، أو يتألم ليبلغ السكينة، كما تفضلون حضراتكم. لقد كان أخي متصوفا من دون أن يسمع قط هذه الكلمة الملفتة. وفي بعض الأيام كان يلوّث لسانه بإرادته بقليل من الحبر حتى تعطيه نسبة مضاعفة من الجرعة. وكان يؤكد أنه يشعر بالطمأنينة حين يبدأ اليوم بعقاب غير مستحق. وكان يتنبأ بأن المستقبل سيكون مترعا بأشياء غير مستحقة، وسنضطر في كل الأحوال إلى أن نبلعها،

ولم يكـن مخطئـا. وأنـا مـن عانيـت أقـل منـه، أو ربمـا كنـت أكثر اتباعا للتصـوف الـذي يكمـن في أن الخـير سـيأتيك مجانـا، بمعنـى أنـه قـادم قـادم، كنـت أغسـل لسـاني بطـرف منشـفة بعـد أن أبللهـا بقليـل مـن الصابـون.

أحتفـظ منـذ ذلـك الحـين بعـادة النظـر إلى لسـاني في المـرآة حـين أسـتيقظ. ليسـت عـادة غريبـة جـدا؛ تفعلهـا شـخصيات كثـيرة في الأفـلام. مـا لا أعرفـه هـو مـا إن كنـا جميعـا نبحـث عـن نفـس الـشيء. ربمـا في اللسـان، كـما في خطـوط اليـد، يمكـن قـراءة المسـتقبل، أو عـلى الأقـل المـاضي القريـب. الليـالي التـي أحلـم فيهـا بكوابيـس، بالفعـل، أصحـو بلسـان قـذر. حينهـا أذهـب للمطبـخ ولا أتنـاول ملعقـة واحدة، بـل اثنتـين، مـن زيـت الخـروع، واحـدة لي وواحـدة لأخـي أنطونيـو الـذي مـات في الربيـع المـاضي. لم يعـد يثـير فيّ تقـززا كثـيرا. بـل إنـه يـروق لي قليـلا. ورغـم أني لم أسـتطع التعـود كليـة عـلى الأشـياء التي لا تـروق لي، إلا أني توصلـت لنـوع مـن التسـامح الملفـت معهـا. ومـع مـرور السـنين، ومـع إدراكي أن التصـوف منتـج خيـالي، بـتُّ صوفيـا. وكل يـوم، أعـثر عـلى ألم صغـير أعاقـب بـه لسـاني. ولا أفعـل ذلـك مـن أجـل التديـن ولا مـن أجـل جـوع العـالم، بـل أفعلـه مـن أجـل المـاضي الـذي مـا زلـت أحتفـظ بـه بإخـلاص مريـض.

نفس العبارة
LA MISMA FRASE

كان لـدى أمـي دميـة روسـية أحضرهـا لهـا أبي مـن باريـس. وكان إخـوتي يصيبهـم الجنـون كلـما فتحوهـا ورأوا بداخلهـا دميـة أخـرى شـبيهة بهـا. كانـوا يعتقـدون أنهـا سـقف الغرابـة. وأنـا، الأكـثر سـذاجة، كنـت أعتقـد أن الإنسـان مركّـب بنفـس الطريقـة. هكـذا، كان داخـل مـدرس الرياضيـات ثمـة مـدرس رياضيـات آخـر أصغـر منـه قليـلا، وآخر وثالـث ورابـع. حينهـا، كان لي زميـل أعـرج، اسـمه أنطونيـو، وكان يقـع عـدة مـرات مـن درجـات السـلم. وأنـا كنـت أنتظـر أن يتحطـم ليخـرج مـن داخلـه جيـش صغـير كلـه أنطونيـو ويعـرج في حـرم المدرسـة. ورغـم أنهـم بعـد ذلـك، في مـادة العلـوم الطبيعيـة، قالـوا لي إننـا مـن الداخـل مصنوعـون بطريقـة أخـرى، إلا أني دائمـا تخيلـت نفـسي مليئـا بـ خوانـات خوسـيه بأحجـام صغـيرة تتضـاءل كلـما اقتربـتُ مـن أقـصى أعـماق نفـسي.

وعندمـا كـبرت، حاولـت أن أفهـم عنـد دراسـة «التـذوق الأدبي» الاختلافـات بـين الشـكل والمضمـون، تذكـرت كثـيرا الدميـة الروسـية، وأدركـت أنـه مـا مـن مضمـون أكـثر فاعليـة مـن الشـكل نفسـه، لكنـي عجـزت عـن صياغـة هـذه الفكـرة في شـكل أدبي. حتـى لـو عرفـت،

بلاغيا على الأقل، أن في العمق ثمة شكلا، فأنا أرتبط بالعالم كأنه شيئان مختلفان. لذلك، كلما رأيت على رفوفِ محل دمية روسية، أفتحها وأواصل فتحها حتى النهاية، على أمل أن أعثر في داخلها على شيء مختلف عن الدمية ذاتها. لكنه لم يظهر أبدا. وربما في ذلك يكمن سرها، إذ لا نعرف أحدا يعبر أمام هذه العرائس إلا ولفتت انتباهه، رغم أن فتحها لا يعدنا بأي احتمالية لمنح مفاجأة ما.

كانت دمية أمي الروسية فوق تسريحة غرفتها. وأحيانا، عندما كنت أختبئ تحت السرير، كنت أرى كيف تفتح وتغلق هذه اللعبة السوفييتية القادمة من باريس. كانت أمي تمنحني شعورا بأنها تبحث داخل الدمية عن شيء لم تعثر عليه داخل نفسها. ودائما ما كانت تتركها بإيماءة خيبة أمل لتدعك رموشها. لكني أعتقد أنها خيبة أمل إيجابية. الفكاهة، بحسب برجسون[6]، نوع من الانتظار خائب الأمل. والدمى الروسية تخبئ في داخلها نظاما فلسفيا يثير شعورا مشابها. والمرء يشك في أن الحياة، كينونة الشيء، ليست إلا تتابع نفس الشيء داخل نفس الشيء. لقد فهمت ذلك وأنا صغير، وأنا أمام حيرة إخوتي وأمي، ثم نسيت هذا الفهم وأنا كبير. وكل ذلك حدث لأني لم أستطع أن أكتب عبارة تحتوي بداخلها نفس العبارة التي تحتوي بداخلها نفس العبارة ونفس العبارة..

(6) فيلسوف فرنسي: هنري برجسون حائز على نوبل.

تجهيز المنتجات
ELABORACION DE PRODUCTOS

لم تكن أمي قادرة على حل أي مشكلة ما لم تحوّلها أولا إلى دراما. وبنفس طريقة الرياضي الذي لا يفهم الواقع حتى يحوّله إلى معادلة، لم تكن هي تفهم أي معضلة منزلية إن لم تحوّلها إلى كارثة. نحن، ككائنات بشرية، غرباء هكذا؛ نحتاج إلى تجهيز المواد الخام -سواء كانت بطاطس أو زئبقا- لنجعلها صالحة للاستخدام النهائي. لا نفهم الذهب، على سبيل المثال، حتى نحوّله إلى قلادة. قد نستطيع التمتع به بحالته في الطبيعة، لكن لا؛ نحتاج إلى أن نستخرجه من الأرض الصلبة، وأن نصهره، وأن نقولبه ونعرضه للبيع. وحينئذ نقول: «مبهر، يا لجمال الذهب».

تحويل السردين إلى سردين معلب تغير إيجابي في هذا الاتجاه. وكانت المادة الخام التي تشيد بها أمي حدثها الدرامي هو المشكلات المنزلية اليومية الصغيرة. مثلا، نفدت أنبوبة الغاز يوم الإثنين ولن تمر عربة التوزيع حتى الثلاثاء. في البداية، ليست هناك أي تراجيديا، لأن الأطفال يحبون أكل السندوتشات. بل إن في ذلك جانب إيجابي بأننا كنا نكسر الروتين. لكنها كانت تشد شعرها وتروح من هنا لهناك وتنفث عواء يقف له شعرنا.

وإن حاول أبي أن يهدّئها، كانت توبّخه بألا ينشغل بهذه الأشياء، وتؤكد أنها عبدة لنا جميعا، فكنا نراقبها ونحن نرتجف.

وبعد نصف ساعة من دون أنبوبة غاز، كان أبي، يائسا من توبيخات أمي وصرخاتها، يصفق الباب بقوة أو يهدد بإلقاء نفسه من الشرفة. فيما تشرع أختي الصغرى في البكاء، مرتعدة من المشهد، ويهدد الجيران بالاتصال بشرطة المجلس المحلي إن لم يتوقف الصراخ. في تلك اللحظة بالذات، حين يوشك العالم على الانفجار ونحن بداخله، كانت أمي تعبر الشارع وفي برهة تعود مبتسمة ابتسامة انتصار ومعها أنبوبة استعارتها من أختها التي تعيش في البيت المواجه لبيتنا. ولم يكن غريبا أن تلوم أبي أن فكّر في الانتحار لسبب تافه مثل هذا. «أنت مجنون»، كانت تقول له بينما تعانق أختي الصغيرة حتى تتوقف عن البكاء. وأنا كنت أنزل إلى الشارع مطرقا، محاولا تحويل ما حدث إلى منتج معلّب، فربما بذلك أستطيع فهمه. غير أني لم أدركه حتى الآن، وكتابة ذلك ليس إلا معالجة مادة الواقع الخام وتحويلها إلى أدب لأجعل منها شيئا مهضوما.

أفضل أمسية في حياتي
LA MEJOR TARDE DE MI VIDA

حين تنفد مني الحبوب المهدئة، أزور أمي وأسرق منها في الخفاء قبضة كبسولات. لديها منها من كل الأنواع، وليست حبوبا منوّمة فحسب، بل منوّمات حقيقية، بالإضافة للمهدئات، ومرخيات العضلات ومضادات الالتهابات. لا أعرف كيف تصرف الوصفات الطبية، لكن المؤكد أنها لا ينقصها أي كبسولة لتلقي بها في فمها. وأنا، في المقابل، أضطر إلى تسولها منها لأن كل الأطباء الذين أتقاطع معهم ضد الكيمياء. بعضهم ينصحني بتدريبات تنفسية، وبعضهم ينصحني بالخضراوات، مع أن ما أفادني طوال حياتي لم يكن إلا الحبوب. هكذا اقتربت من بيت أمي بعد الغداء وشرعت في مشاهدة التلفزيون معها حتى نامت. حينها تسحّبت على أطراف أصابعي إلى الحمّام وفتحت الخزانة-المرآة ذات الأبواب الثلاثة حيث تحتفظ بالمخدرات[7]، لكنها كانت خالية.

بعد الصدمة الأولى، أدركتُ أنها قد انتبهتْ إلى أن بعد كل زيارة لها تختفي دستتان أو ثلاث من الكبسولات، لذلك لابد أنها غيّرتْ مكانها. توجهتُ إلى غرفة النوم وبحثتُ في كل أدراج الخزانة،

(7) جميع أنواع الأدوية المخدرة (للأمراض النفسية).

كذلك في كل ثقوب الأدراج، لكني لم أعثر على شيء. وعند عودتي إلى الصالة، فتحتْ أمي عينيها وسألتني:

- هل أنت هنا فعلا أم أنك مجرد كابوس؟

- أنا مجرد كابوس. أجبتها مرتبكا، فغمّضتْ عينيها مرة أخرى.

حينئذ رأيت علبة أقراص فوق منضدة القهوة. كانت تحتوي على ثلاث حبات صغيرة لا أعرف من أجل ماذا، لكني تناولت واحدة زرقاء وبعد قليل اجتاحتني طمأنينة مذهلة تتمخض من الضفيرة الشمسية وتنفتح في شكل مروحة لتشع كميات غير ملفتة من السعادة في اتجاه المخ. لابد أنه قرص منوّم من الجيل الأخير. فمنذ فترة قريبة قرأت في مجلة عن الأدوية أن أقراص المنوّم هذه ليس لها آثار جانبية ولا تسبب الإدمان إلا بقدر ما تسببه البطاطس المقلية.

وبعد أن تمتعتُ للحظات بحالة سلام بوذية، بدأت أنظر حولي محاولا تخمين أين يمكن أن تحتفظ أمي بأدويتها. وبينما كنت أبحث بداخل الماعون، فتحت هي عينيها مرة أخرى وحدّقت فيّ بتأمل، لكنها لم تسألني هذه المرة عن شيء. قالت لنفسها فحسب: «ها هو الكابوس يعود مرة أخرى»، وعادت إلى النوم. بحثتُ في كل فتحات الدرج وعثرتُ على متعة جمة وأنا أتحسس الشُوَك والسكاكين وأطباق طفولتي الفخّارية. عادة ما تبدو لي هذه الأدوات منفّرة، لكن القرص الأزرق الذي منحني كمية هائلة من السكينة، منحني أيضا نظرة جديدة، نظرة ساذجة. لقد بدت لي ملاعق القهوة وشُوَك المحار أعمالا فنية. في بيتنا لا نأكل المحار عادة (وكنا على وشك ألا نأكل السمك)، لكن أبي، عليه الرحمة، اشترى من «سوق الراسترو»[8] هذه الشُوَك، أظن ليعتقد نفسه أحدا.

(8) هو سوق يقام كل يوم أحد من الأسبوع (يعادل سوق الجمعة في الكويت).

وخشية أن تستيقظ أمي، كتمتُ صوت التلفزيون قليلا، لكن ذلك تحديدا ما دفعها لتفتح عينيها مرة أخرى، ونظرتْ إليّ بتأمل وسألتني:

- هل أنت أنت أم أخوك؟

لديّ أخ توءم هو المفضّل، بحق، لدى أمي. جاوبتها بأني أخي وانتظرتُ لأرى إن كنت أصبتُ، فأصبتُ تماما، حتى إنها قلبت رأسها للجانب الآخر وبدأت في الشخير. ومع مرور الوقت، كان تأثير القرص الأزرق يتضاعف. انسجام تام بدأ يسود بين أشياء البيت ودقات قلبي، انسجام جعلني أشعر بأن الواقع وأنا نفس الشيء، والفكرة اقتحمتني حتى إني بلغتُ الشك في ما إن كنت أنا أنا أم أنا أخي. وصوت داخلي قال لي إني أنا أنا، وبالتالي يجب أن أواصل بحثي عن الحبوب.

عثرت عليها في النهاية في علبة «كولا كاو»[9] كبيرة في المطبخ. كان ثمة مئات من الحبوب، مختلفة الأحجام والألوان، لكن ولا واحدة زرقاء، ما جعلني أظن أن أمي كانت توزّع الغنيمة في عدة أماكن. أخذتُ قبضة كما أفعل عادة، وبمجرد أن أغلقت العلبة هُيِّئَ لي أني أسمع احتكاك مفتاح في قلب باب البيت. لا أحد يملك مفتاحا إلا أنا وأخي، فضلا عن أمي، وبالتالي ظننت أنه أخي. اختبأت خلف باب المطبخ وسمعت خطوات متوجهة إلى الصالون. حين تأكدتُ تماما من أنه لا يمكن أن يسمعني، تسحّبتُ إلى الممر وخرجتُ من البيت من دون أن ينتبه إلى وجودي. ركبتُ سيارة أجرة وتوجهتُ إلى بيت أخي، حيث قدّمتْ لي زوجته فنجان قهوة، وظللنا نتحدث حتى بدأت أفيق من آثار القرص الأزرق.

(9) مسحوق شوكولاته مشهور في إسبانيا.

بتر غير مرئي
UNA AMPUTACION INVISIBLE

حين انتبهت، وأنا في ممر أحد الأسواق، إلى أني فقدتُ تليفوني المحمول، تصببتُ عرقا، لكنه ليس عرقا باردا كما في روايات الرعب، إنما عرق ساخن. تعرض جسدي لتغير مناخي يمكن ترجمته بأنه سخونة عامة في قشرته. واعتقدت للحظة أن جسدي سيُسلق في سوائله بداخل هذه القشرة. كان ينتابني في الوقت نفسه شعور بالاستغراب والحيرة، كأني تعرضتُ للتو لبتر عنيف وغير مؤلم لأحد أعضائي. والبتر خلّف وراءه جذرا غير مرئي للآخرين، جذرا نفسيا من المستحيل أن يُرى، حتى تفهموني، غير أنه مرعب جدا كأنه جذر من لحم ودم. وبعد تجاوز موجة السخونة الأولى، فتشتُ جيوب المعطف وبحثت في بطانته من دون أي نتيجة تذكر.

لاحظتُ حينها أناسا ينظرون إليّ وأدركتُ أن سلوكي لابد أنه سلوك مجنون. لم أستطع أن أشرح لهم ما أمر به من تغيرات ناتجة عن بتر تليفوني المحمول لأنهم لن يفهموا. لم يكن ثمة جرح، لم يكن ثمة دم، ولا علامات عنف خارجية. لا أحد إلا من فَقَدَ تليفونا ذكيا مثلي يعرف عمّا أتحدث. فالتليفون يضم أجندة تليفونية بها مئات الأرقام المتراكمة على طول سنوات ومن

المستحيل استعادتها كاملة. به أيضا ملحوظات وتواريخ ورسائل صادرة وواردة لن أقرأها مرة أخرى أبدا. لن أبالغ لو قلت إن تليفوني كان عضوا إضافيا لجسدي، ليس بأهمية الكبد والكليتين، لكنه أكثر قيمة من الحويصلة الصفراوية أو الزائدة الدودية. ففي سفرياتي كان يربطني ببيتي. وفي البيت، كان يربطني بالخارج.

أتذكر المرة الأولى التي رأيت تليفونا، لمن يكن تليفونا محمولا، بل تليفون بيت، تليفون حياتنا كلها. كنت قد وصلت للتو من المدرسة. أخذتني أمي من يدي وساقتني إلى غرفة الجلوس. وفي وسط المنضدة المتحركة، وفوق مفرش أخضر يؤطره ويبرزه، كان ثمة تليفون أسود. بدا لي أنه تتكوّن حول الجهاز هالة ضوء غريبة، كأنها هلوسة، وكانت كذلك بالنسبة إليّ بطريقة ما، إذ ظللت أسمع أبويّ دائما يتحدثان عن التليفون بتقدير يشبه الحديث عن الأشباح.

وفي الحال أردت أن أهاتف زميلا بالمدرسة، لكن أمي قالت لي لا، لأنه غالٍ. التليفون فقط للأمور الطارئة. وبالفعل، كان للأمور الطارئة. في ذاك العام لم أسمعه يرن إلا مرتين، مرة ليخبرونا بأن جدي مات، ومرة، بعد نصف ساعة من الأولى، ليخبرونا بأن جدي بُعِث (كان أبو أمي يدخل بسهولة ما في حالة تخشب، وكان الطبيب قد شخّص موته بالخطأ). ومن جانبنا، لم نستخدمه إلا مرتين كذلك، مرة لنخبر بأن أخي قد وُلِد، ومرة لنخبر بأنه قد وُلِد مرة أخرى (كانا توءمين، غير أن الثاني جاء متأخرا بنصف ساعة حين لم نكن ننتظره).

ليس عندي أمور مهمة تجبرني على الالتصاق بالتليفون. أعرف لو أن أحدا احتاج إلى تحديد مكاني فسيفعل ذلك بطريقة

أو بأخرى. أما أجندة الأرقام فسأستعيدها بمساعدة أصدقائي. كل ما قلته في الأسطر الأولى لأبرر نوبة الرعب الناتجة عن فقد التليفون لم تكن إلا سلسلة من الأعذار. فالتصاقي بالتليفون له أساس فانتازي لم أعترف به أبدا حتى الآن. انظروا، منذ شاهدت وأنا في الثامنة أو التاسعة أول تليفون على منضدة غرفة الجلوس ببيت أبويّ، راودتني فكرة فانتازية بأن التليفون سيرن ذات يوم وسيسألون عني، وأن أمي، مدهوشة، ستمرر لي التليفون ونوعا من التقدير، ومن الجانب الآخر للخط ستأتيني حقيقة أساسية. وأنا سأغلق الخط، وسأعود إلى عائلتي لأؤكد لهم أن كل شيء مباح أو كل شيء محرّم، بالتتابع.

أعتقد أني ما زلت أنتظر هذه المكالمة، ومن خلالها سأعرف إن كان للحياة معنى أم لا. ومن أجل هذه المكالمة، أحتمل كل المكالمات الأخرى كما أحتمل ما يتحتم عليّ تسديده. ومن هنا جاءت نوبة العرق المفاجئة التي تعرضت لها في أحد ممرات السوق حين تحققت من أني فقدتُ التليفون المحمول وأني انفصلت ليس عن العالم، الذي يمكن الاستغناء عنه، بل عن الحقيقة الجوهرية التي تمنح لوجودي معنى. وحين تأتي هذه المكالمة، ستكونون أنتم أول من يعرف محتواها، إذ ربما تساعدكم على مواصلة الحياة.

أول طبق مُشكّل
MI PRIMER PLATO COMPINADO

في روايــة Absolute friends لــ جــون لي كاريــه، يقــول أحــد الجواسـيس لجاسـوس مبتـدئ ومرتـاب: «نحـن لا نعيـش في الواقـع، إنمـا نـزوره». كان لي خـال ثـري يعيـش أيضـا خـارج الواقـع، رغـم أنه كان يـأتي ليقـضي برهـة مـع مـن يعيشـون فيـه. كان يـأتي في سـيارة 15 مـترا يركنهـا أمـام بيتنـا ويسـلّم مفاتيحهـا لنـا نحـن الأطفـال لنلعـب فيهـا بينـما يتحـدث مـع أبـويّ. وداخـل هـذه العربـة ذات المقـود الخشـبي المكسـو بالجلـد، كنـا نشـعر بأننـا بعيـدون عـن الواقـع. وكانـت أمـي تقـول لـه: «خطـأ أن تـترك المفاتيـح للأطفـال، سـيضيّعون لـك كل شيء».

مـا كنـت أسـمعه أننـا نـترك داخـل السـيارة مليئـا بالواقـع، لأننـا بالفعـل لم نكـن نظيفـين جـدا. لكـن خـالي لم يكـن يهتـم، إذ كان يمررهـا عـلى خدمـة تنظيـف متخصصـة في محـو بُقـع الواقـع، حتـى أكثرهـا تمـردا. أظـن أن الواقـع بالنسـبة إليـه كان نوعـا مـن عربـدة نهايـة الأسـبوع. كان يهبـط إلى الواقـع مثـل آخريـن يلتقطـون عاهـرات لأنـه كان رجـلا ذا اهتمامـات متنوعـة. ورغـم أني لم أعـرف أبـدا بمـا كان يتحـدث مـع أبـويّ، إلا أني أعـرف أن محادثاتهـم كانـت متوتـرة، إذ أكثر

من مرة كنت أسمع أصواتهم من خلف الباب. كان خالي رجلا غامضا ولم يكن أبواي كذلك.

وذات يوم، راح ليبحث عني في الصباح بعد أن قضيت معه عدة ساعات خارج الواقع. لقد اصطحبني إلى نوع من المنتجعات ذات حمّامات سباحة متنوعة الأحجام. وكل عدة أمتار كان ثمة كشك خشبي بسقف من الجريد كان يمكن أن تطلب فيه ما تريد من دون أن تدفع. وفي غرف تغيير الملابس كانت ثمة حمّامات بأرض خشبية وموزعات ماء الاغتسال بمياه ساخنة تنشر ضبابا من الأبخرة. رأيت كذلك للمرة الأولى في حياتي ساونا ونساء كثيرات جميلات جدا بملابس لا يبدو أنها صُنِعت في هذا العالم. أو على الأقل لم أرها من قبل. وكانت المرة الأولى كذلك التي أتناول فيها طبقا مُشكّلا. قد يبدو الطبق المشكل الآن مجرد طبق شعبي، لكنه في تلك الفترة كان حديث الاختراع، وكان أكثر ما يُتطلع إليه من وجهة نظر فن الطعام، بل ومن وجهة نظر الفلسفة، إذ لم يكن مجرد طريقة للتغذية فحسب، إنما نوعا من تناول الوجود.

وفي الظهيرة، اصطحبني خالي في سيارته إلى حارة من خلالها كنت ألمح شارعا رئيسيا به ثمة متجر للسيارات من نفس ماركة السيارة التي يقودها. حينئذ سحب مظروفا مغلقا من صندوق السيارة وأشار إلى متجر السيارات، وأمرني أن أدخل وأسلّم المظروف لسيد بشارب كنا نراه من خلال الواجهة الزجاجية.

- لو سألك من أعطاك المظروف، فقل له إنه رجل كان يعبر الشارع. وعُد إلى هنا بعد أن أتجول قليلا حتى لا يراني أنتظرك.

كان كل ذلك يبدو لي مثيرا لأنه لم يكن واقعيا. دخلت المتجر وسلّمت المظروف وبقيت منتظرا الإكرامية، إذ كنت مقتنعا،

لا أعرف لماذا، بأني بوجودي خارج الواقع سأحصل على عدة عملات، وربما ورقات، لأني قد أديت هذه المهمة غير الواقعية. فتح رجلُ الشارب المظروفَ وقرأ ورقة مكتوبة بخط اليد كانت بداخله وسألني بوجه عابس جدا: مَن كلفك هذه المهمة؟ قلت له رجل كان يعبر من الشارع. نظر الرجل إلى الخارج، وحين وجدني لا أزال واقفا منتظرا الإكرامية، قال لي اذهب للجحيم.

خرجتُ إلى الشارع بشعور من وقع بغتة في الواقع ودخلت سيارة خالي بدموع في عينيّ.

- ماذا قال لك؟

- قال اذهب للجحيم.

- هذا عظيم. أضاف وهو يشغّل الموتور ويهرب من الواقع هربا.

اشتد المرض على خالي الأسبوع الماضي. ورحت لأزوره في المستشفى، غير أني حين وصلت كان قد مات. تحدثت مع الممرضة التي أشرفت عليه وسألتني ماذا كان يعمل خالك؟ قلت لها الحقيقة: إني لا أعرف، لأنه كان قريبا من بعيد وعلاقتي به كانت طفيفة جدا. «كان يعتقد أنه جاسوس»، قالت لي الممرضة. وفي اليوم التالي صادفتني عبارة لو كاريه وبدت لي مصادفة مدهشة.

الآباء يكذبون
LOS PADRES MIENTEN

أيقظني أخي الأكبر في منتصف الليل ليكشف لي السر التالي:

- بعد قليل سيقولون لك إن ملوك المبشرين هم الآباء. يقولون ذلك لكل العالم حين يبلغون سنك. لا تصدقهم. الملوك موجودون، لكنهم مثل كل الكبار لا يعرفون كيف يشرحون وجودهم، فيقولون ذلك، إنهم الآباء.

كان أخي ينام على السرير المجاور لي. لم تكن علاقتنا لا جيدة ولا سيئة، هكذا تسير أحيانا على ما يرام وأحيانا أخرى لا. لكننا كنا متواطئين في أشياء كثيرة. دخنّا السيجارة الأولى معا، سرقنا للمرة الأولى معا عملات من جيب معطف أبي، كان يحل لي واجبات الرياضيات وكنت أحل له واجبات اللغة. كان كل منا يعتمد في النهاية على الآخر في أشياء كثيرة. كنا كما يقول المثل سرقنا معا الأحصنة، وأصبحنا مدانين بحماية كل منا للآخر. وكانت هذه الحماية تفرض أن نعترف لبعضنا بحقائق الحياة الأساسية. إن كان الملوك موجودين وهو قد تحقق من ذلك، فمن الأفضل أن أعرف ذلك، مهما كانت حقيقة قاسية بالنسبة لي.

الحقيقة أني قد سمعت في المدرسة شائعات حول أن ملتشور وجاسبار وبالتاسار[10] هم الآباء. غير أني لم أعرهم انتباها. ما لم أكن أستطيع تخيله أن يكون منبع الشائعات هو الكبار. فلو كنت أكنّ لهم بعض الاحترام، فقد فقدوه بعد اعتراف أخي الأكبر.

وبالفعل، في نفس ذاك العام، حين أعطونا إجازات عيد الميلاد، نادتني أمي ذات يوم وبدأت تسألني ماذا أفكر حول ملوك المجوس. قلت لها إني أكنّ لهم احتراما كبيرا (لم أقلها بهذه الطريقة بالطبع، فلم أكن طفلا متصنعا) رغم أنهم لا يهادونني دائما بما أطلبه منهم، لكني أقنع نفسي بأن العالم مليء بأطفال كثيرين، وأنه ليس بوسعهم إرضاء الجميع. نظرت إليّ أمي في حيرة، إذ إن الطبيعي حين انتزاع العصابة عن العينين في هذا الأمر أن يكون الصبي قد احتك بالشارع بالفعل. أعتقد أنها كانت على وشك أن تتراجع، لكنها في النهاية أخذت نفسا وقالت لي إن الملوك المجوس هم الآباء ذاتهم.

- إنها مجرد أكذوبة نقولها خلال الطفولة -أضافت- لأن الطفولة مرحلة الأوهام الفانتازية، لكنك كبرت على الاعتقاد بالملوك. لقد قلنا لأخيك ذلك أيضا حين بلغ نفس سنك.

وأخي كان قد نصحني بأن أتصنع التصديق حين يحكون لي أكذوبة أن الملوك هم الآباء أنفسهم، وإذا لم أفعل فقد أبدو لهم صبيا غريبا وسيصطحبونني لزيارة الطبيب النفسي.

- أنا أيضا تصنعتُ ذلك -أضاف- وكما ستدرك، إن كان ذلك سيهدّئهم، فلن يكلّفك شيئا أن تريحهم.

تظاهرت، إذن، بأني أصدقها، ودخلت غرفتي لأكتب رسالة إلى الملوك؛ رسالة سرية، للمرة الأولى. في ذاك العام، بما أني غدوت صبيا

(10) هم من بشروا بولادة نبي الله عيسى ابن مريم -عليه السلام- في الثقافة الإسبانية.

كبيرا ومتابعا للوضع العالمي، وكان كارثيا، طلبت منهم أشياء أكثر معقولية من مناسبات أخرى. وأخي وضع رسالتي في مظروف يضم رسالته أيضا وراح ليرسلها بالبريد. الملفت أنهم في ذاك العام، ولأول مرة، لبوا لي كل ما طلبته.

وعند عودتي إلى المدرسة بعد إجازات عيد الميلاد، تحققت من أن كل زملائي في الفصل قد قالوا لهم إن الملوك هم الآباء أنفسهم، وأنهم جميعا قد صدّقوا. وكنت على وشك أن أصحح لهم خطأهم، لكن أخي قال لي أيضا ألّا يخطر ذلك ببالي، لأنهم سيعاملونني كمجنون. كانت المؤامرة لمحو هذا الاعتقاد من رأس الصِّبية فكرة عالمية، وكان من السذاجة مواجهتها مع كم الأدلة العديدة الموجودة، الموزعة ما بين الكتاب المقدس والتاريخ المقدس والأفعال المثبتة، إذ الحقيقة أنه رغم التوقف عن الإيمان بالملوك إلا أن الناس لا تزال تتلقى الهدايا.

في النهاية، كنت سعيد الحظ أن احتفظت بهذا الوهم لسنوات أطول من زملائي. ولأكون صريحا، لا أتذكر بالضبط السن التي فيها تخليت عن إيماني بالملوك المجوس، ربما حين مات أخي وفي جنازته تذكرتُ هذه الحكاية الفانتازية التي لا أعرف كيف خطرت له. رغم أنها حقيقة كذلك أني بمجرد استقراري في عالم البالغين تأكدت من أن الكبار يكذبون كثيرا وبشكل مجاني، ما يعني أنه لم يكن غريبا أن يكون أخي محقا وأنهم أيضا كانوا يكذبون في ذلك. هذا العام، مثل كل الأعوام منذ تلك الفترة، كتبت لهم رسالة سرية (في بيتي لم يعد أحد يعتقد بالملوك ولا أبنائي) وهادوني من جديد كل ما طلبته منهم.

موت أمي الحقيقي
LA VERDADERA MUERTE DE MAMÁ

بعد ساعات من موت أمي، وبجسد لا يزال في محل الحانوتي، اضطررت للعودة إلى بيتها لأحضر بعض الأوراق. أدهشني العثور على تليفون محمول في درج خزانة السرير، إذ دائما ما أظهرتْ عداء لهذا الجهاز. تحققتُ من أن البطارية مشحونة وأخذته مع الشاحن. وخلال بقية اليوم، وبينما أتلقى العزاء ممن جاؤوا لمواساتي، كنت أدرك أني أحمل في جيبي جهازا قديما لأمي. ومن حين لآخر، كنت أنفصل عن الآخرين وأتحقق من أنه لا يزال يعمل. والحقيقة أني كنت متلهفا إلى أن يرن. مَنْ من الممكن أن يتصل؟ قلتُ لنفسي ربما أمي ذاتها، أو أحد على علاقة بها ولا أعرفه وكان السبب في إدخال هذا الجهاز حياتها بعد أن كانت تقول إنها تمقته.

وبعد المراسم، عُدتُ إلى البيت وأعددت لنفسي مشروبا ساخنا. أعيش وحدي مثل أمي، لكني لست أرملا، مثلها. لم يكن لي علاقة تستمر أكثر من شهرين. وحين مات أبي، ولم يكن بيننا أي تفاهم أبدا، اقترحتُ على أمي أن نعيش معا، لكنها بررت بأن عاداتنا مختلفة جدا وأن الأفضل أن يبقى كل واحد

منا في بيته. وهذا ما فعلناه. لكن بشكل عام، كنت أزورها مرة كل أسبوع ونتغدى معا، فيما كنت أهاتفها يوميا. ولم أعرف أبدا إن كانت مكالماتي تسرها أم تضايقها. غير أنها كانت تحاول ألا تجرحني، بينما ترسل لي انطباعا بأني أعتمد عليها أكثر مما تعتمد هي عليّ.

وبينما كنت أتناول مشروبي، أخرجت التليفون المحمول من جيبي. كان لا يزال حيا، مع أن الخط الذي يشير لحالة البطارية قد اختفى. وضعته في الشاحن لأنه إن انطفأ من دون أن أعرف كلمة سر، فلن أستطيع إعادة تشغيله. ثم دخلت في القائمة وبحثت في الأجندة، لكنها كانت فارغة. وخلال الأيام التالية، كنت أحدق فيه أحيانا، في انتظار أن تحدث معجزة ويرن فأكتشف شيئا لم أكن أعرفه عن أمي. احتفظت به في جيب الجاكت الداخلي، ومن حين لآخر كنت أطمئن على الجهاز، كمن يضع يده على قلبه ليطمئن، لأتأكد من وجوده في مكانه. وفي أكثر من مرة كنت أشعر بأنه يهتز، لكنه لم يكن هو، إنما قلبي.

منذ فترة، باتت الشقة المجاورة لي خالية. عرفت أن لا أحد يعيش فيها لأن حارس البناية أخبرني بذلك، مع ذلك كنت أسمع ضجيجا. وفي أكثر من مرة كنت أضع أذني على الحائط الذي يفصل بيننا لأتأكد أنها خالية. كنت أشرد أيضا مع فكرة صنع ثقب صغير في الجدار لأكتشف الشبح الذي يعيش في الشقة الخالية. إنها هواجس رجل أعزب، رجل وحيد لديه وقت فراغ طويل. ومثل علاقتي بالجدار، أنشأت علاقة مع تليفون أمي المحمول. كنت ألصقه أحيانا بأذني لأعرف إن كان ثمة أحد على الجانب الآخر. ولابد أن أحدا كان على الجانب الآخر، إذ بطريقة أخرى

لا يمكن أن تكون أمي قد اشترته. لابد أن أحدا أهداها إياه، وكان يستخدم التليفون المحمول كحبل سُرّي معها.

مر الوقت من دون أن يرن التليفون. أكذب: رن عدة مرات، لكنها كانت مكالمات خاطئة، أو هذا ما أعتقده. المكالمة الأولى كانت صباح يوم أحد. كنت أجهّز عصير برتقال ثم سقط على الأرض من الفزع. على الجانب الآخر، كان ثمة رجل يسأل عن روساريو. قلت له لا أحد هنا بهذا الاسم، فاعتذر وأغلق الخط. كانت المرة الثانية في السينما. شغّلت خاصية الاهتزاز حتى لا يرن. وشعرت فجأة بنوع من رجفات قلبية خارج الصدر. اعتقدتُ في البداية أنها مجرد هلوسة، لكني وضعت يدي على جيبي وشعرت بارتجافات. نهضتُ لأخرج من الصالة، لكن بوصولي إلى الممر واستعدادي للرد على المكالمة، توقف الاهتزاز. وعلى شاشة التليفون ظهرت العبارة الأسطورية «مكالمة مفقودة». بحثت عن معلومات، لكن رقم المتصل كان مخفيا.

غدا سنوية موت أمي الأولى. أعتقد أنه من العبث أن أواصل الاهتمام بتليفون صامت. ربما حانت لحظة التخلي عنه. لكني لا أعرف هل أتخلى عنه بانتزاع البطارية حتى يموت ميتة فورية، أم أتركه ينفد شيئا فشيئا، ويتجه بخطى ثابتة نحو الاحتضار كأني أتجه لاحتضاري، احتضار على عكس احتضار أمي الذي لم أحضره بالمناسبة، إذ ماتت فجأة من دون أن تمنحني وقتا لأودعها. سأفعل الاقتراح الأخير؛ سأترك البطارية تنفد على مهل. كم يوما ستستغرق؟ يومين؟ ثلاثة؟ قد تكون الأيام المتبقية لي لأغيّر حياتي. ربما تموت أمي كلية حين يتوقف التليفون عن التنفس. كم هو شيء عبثي بالنسبة لسيدة مثلها، كانت تكره التكنولوجيا.

رغبات في الغضب
GANAS DE BRONCA

لم تكن أمي تسمع الراديو إلا لتتفق أو تختلف مع ما تسمعه. كل ما كانت تسمعه كان صالحا لتُصالح الواقع أو لتنقم عليه. لم تكن تعرف الأمور الوسط. لذلك لم نكن في البيت نسمع الموسيقى الكلاسيكية، إذ كان من الصعب جدا أن تكون مع أو ضد ما تقوله الموسيقى الكلاسيكية. في المقابل، كانت مهووسة بموسيقى البوليرو، لأنها كانت تنتقد أبطالها بلا شفقة لأنهم يُغرمون بمن لا يناسبهم. وهذا ما حدث لها، إذ إنها أحبت أبي الذي كانت تعشقه في أيام وتكرهه في أيام أخرى. وأبي لم يعرف أبدا لماذا كانت تعشقه أو تكرهه بالتعاقب، لكن بما أن الخبرة علّمته أن كل ما يقوله كانت تستخدمه ضده، راح يقلل كل يوم من حديثه. حتى إنه في سنواته الأخيرة لم يكن يقول شيئا، لكن حتى الصمت كانت أمي تستغله لتتشاجر معه:

- نعم، نعم، أنت لا تقول شيئا، لكني أعرف جيدا ما تفكّر به، وأقول لك إنه حماقة.

مع ذلك، كانت تستخدم صمت أبي في أحيان أخرى لتعطي لنفسها الحق.

- أفهم، لأن السكوت علامة الرضى، أنك موافق على أن نصيّف هذا العام بالقرب من الجبل.

وعندما اشترينا تلفزيونا، حافظت معه على نفس علاقتها بالراديو، لم تضف إلا أدلة بصرية إلى الأدلة الشفوية.

- لكن انظر إليه، إنه أبله. يقول أشياء ذكية للتشويش على بلاهته، لكنه لن يخدعني لأن الوجه مرآة الروح.

وتعلّم أبي أن يشاهد التلفزيون بحيادية يقف لها شعر المرء. كان يبدو أنه يشاهد شيئا آخر، شيئا غير مرئي لبقية الفانين.

- لكن هل تشاهد ما نشاهده؟ كانت أمي تسأله.

ولم يكن يجاوبها. لم يجاوبها قط. كنت أتغدى معهما يوما في الأسبوع، وكانت تذهلني صلابة أبي، وكانت تبدو لي جديرة بالإعجاب. لقد بلغتْ عملية التجاهل أن يقلع عن التدخين، أن يهجر السيجارة التي كانت في سنواته الأخيرة الشيء الواقعي الوحيد الذي يرتبط به بيأس ما. وباتت أمي، التي قضت حياتها تلومه على التدخين، تنتقده لأنه أقلع عن التدخين. بل وباتت هي، من كانت تكره التدخين، مدمنة للمارلبورو، وكانت تنفخ الدخان في وجهه لتغريه. أعتقد أن أبي هجر التدخين كسلا، وأنه توقف عن الكلام كسلا، وأنه لم يكن يتحرك عن الكنبة كسلا. فكرتُ في أحيان كثيرة أنه لن يموت كسلا. على أي حال، بما أن البيولوجيا تقوم بمهمتها في الموت، فذات يوم بعد الغداء، بدأ في الاحتضار من دون أي مقدمات من أي نوع. سألته أمي إن كان بخير، فأجابها إجابة قاطعة، ومات.

- أنت لا تخدعني -قالت له أمي- أعرف عن يقين أنك مُتّ.

ورق حائط
PAPELES PINTADOS

ذات يـوم خرجـتْ أمـي عاريـة إلى الممـر، وأمسـكتني مـن كتفـيّ في حالـة جنـون، وأمرتنـي بـأن أركـض إلى محـل مسـتلزمات الدهـان وأن أصرخ فيهـم بـأن التغطيـة بـورق الحائـط أسـهل مـن الدهـان.

- لمـاذا؟ سـألتُ وأنـا أحـاول أن أغـض بـصري عـن صدرهـا، وأظـن أني لم أسـتطع.

- لأنهم يمنحون جائزة لأول من يصل ويقول ذلك. اركض.

كان يومـي الأول الـذي أنهـض فيـه مـن السريـر بعـد أسـبوع مـن المـرض باللُّـوَز، هكـذا أومـأت إيمـاءة تمـرد في مواجهـة فظاظتهـا: ليسـت طريقـة لمعاملـة أحـد في فـترة نقاهـة. غـير أنهـا دفعتنـي إلى السـلم، وفجـأة رأيتنـي أركـض مثـل مجنـون صـوب الشـارع، محـاولا إقصـاء ذكـرى صدرهـا المتحـرك أمـام عينـيّ حتـى لا يمنعنـي مـن رؤيـة السيارات. استـنتجتُ أنهـا كانـت انتهـت للتـو مـن تغيير قميـص النوم حـين سـمعت الإعـلان في الراديـو. إذ كان بالفعـل ثمـة ماركـة لأوراق الحائـط تُعـرض كل يـوم في محـل مسـتلزمات دهـان مختلـف بـكل حـي، وهنـاك كانـوا يذيعـون مسـابقة عبثيـة بـين السـكان مـن خـلال الراديـو. وكانـت الجائـزة رحلـة لجـزر الكنـاري، بالإضافـة لسـت لفـات

مـن ورق الحائـط. وكان ذلـك ثـروة في تلـك الفـترة. يضـاف إليهـا إمكانيـة الحديـث في الراديـو، وأن يسـمعك أجـداد زملائـك وجيرانهـم وأمهاتهـم.

كل هـذه الوعـود كانـت تثقّـل سـاقيّ اللتـين لم تبلغـا أبـدا هـذه الدرجـة مـن التناسـق السريـع. كان الجـو بـاردا جـدا، لكنـي كنـت أعـرق وأنـا أتخيـل الصـورة التـي نطلـع فيهـا أنـا وأمـي وأبي أمـام طائـرة تحملنـا إلى الجـزر. «مريـض باللّـوَز يفـوز برحلـة إلى جـزر الكنـاري»، يقـول مانشـيت جريـدة «يـا»، الجريـدة المفضلـة للصغـار والتـي كانـت تُقـرأ في البيـت. كانـت، في النهايـة، فرصـة لأتحـوّل إلى بطـل، وربمـا تكـون الفرصـة الوحيـدة التـي تقدمهـا لي الحيـاة إن كان حقيقـة أن الحـظ يطـرق البـاب مـرة واحـدة. وفيـما كان يـزداد الألم العضـلي، كنـت أسـمع تتابـع انفجـارات صغـيرة بداخـلي، كأن حشـوا مـن حويصـلات الرتـوج ينفجـر ضحيـة للجهـد الاسـتثنائي. كنـت أجهـل إن كان في ذلـك خطـورة، لكنـي لم أسـتطع التوقـف لأصغـي لنفـسي في هـذه اللحظـات.

ورغـم أن الحملـة ذاع صيتهـا، لم يفكـر أحـد أبـدا أن أرض ماركـة ورق الحائـط هـي حـي «بروسـبيريداد»، وهـو حـي مهمّـش ومهمـل، ونحـن كنـا نعيـش في «كانييـاس»، قريبا نسـبيا مـن مسـتلزمات الدهان. كان أطفـال مدرسـتي في المدرسـة، بالتـالي لم يكـن عنـدي منافسـون مـن هـذا الجانـب. أمـا الرجـال، فلابـد أنهـم في أشـغالهم أو في عطلتهـم. لم يتبـق إذن إلا النسـاء، ولابـد أن الإعـلان فاجأهـم وهـن عاريـات، مثـل أمـي. ثـم غطـى رؤيتـي جحيـم مـن النسـاء العاريـات مـرة أخرى. ورغـم أني تخلصـت منهـن، إلا أنهـن ظللـن يطفـن هنـا وهنـاك بصـدور وأكتـاف مكشـوفة. يـا إلهـي، لم أسـتطع نسـيان تراقـص هـذا العـدد

الهائل من الصدور، بينما أخبب نحو المجد أو نحو جزر الكناري التي كانت في نفس الاتجاه. لو أني قد واصلت الركض بهذا الإيقاع، دون توقف، لكنت وصلت إلى «تينيريفي»[11] فوق الماء، وبالإضافة لظهوري في الجريدة، كنت سأظهر في الكتاب المقدس.

بتجاوز الناصية، اصطدمت برجل أعرج وقع على الأرض، لكني حللتُ بسرعة مذهلة ترددا أخلاقيا؛ مساعدته على النهوض أم مواصلة الركض: مواصلة الركض. وفي النهاية، برئتين أكثر تجعيدا من جوربين متسخين، وصلت إلى مستلزمات الدهان، وعلى بابه وجدت حشودا فتحتْ لي الطريق مذعورة. بلغتُ بنك المحل، ورغم أني كنت أعرف أن ثلاثين أو أربعين فردا سبقوني، صرخت بأن تغطية الجدران بورق الحائط أسهل من الدهان. الملفت أن كلمة واحدة لم تخرج من فمي، كأني أتحدث تحت الماء. حينئذ وقعتُ على الأرض ضحية لأول حالة إغماء في حياتي.

دائما، ثمة أحد يعيش أقرب منك لمحل مستلزمات الدهان؛ الجحيم يقع عند العودة للناصية فحسب، وهذا ما تعلمته. لم تعد الحياة لتمنحني فرصة أخرى مثل تلك، وهو ما أمتنّ له. في المقابل، استطعت خلال الأيام التالية أن أربح شيئا من ذنب أمي، التي بات صدرها مقياسا لكل الأشياء؛ الجنس جائزة الخاسرين.

(11) إحدى جزر الكناري [المترجم] وهي أكثرها شهرة للسياح.

العم إميليو
EL TÍO EMILIO

كنتُ أحتاج إلى تجديد رخصة قيادة السيارة، فاقتربتُ من كابينة الفوتوماتون[12] بشارع بيلاثكيث[13]، حيث توجهتُ إلى هناك في مرات أخرى لظروف طارئة. كل شيء كان على ما يرام حتى جاءت لحظة اللقطة الفوتوغرافية ورأيتُ في مكان العدسة صورة عمي إميليو، وهو أخو أبي المكروه جدا في العائلة لأنه قتل جديّ بالضيق. لو لم أكن أعتقد بالحماقات الماورائية، لكنتُ عدتُ إلى البيت بالصور، ولقلتُ لزوجتي انظري كيف أشبه في هذه الصورة عمي إميليو الوقح، وما باليد حيلة. لكني ممتلئ بالإيحاءات، والحقيقة أني كنتُ أشبهه جدا، بجفنه الأيسر المتساقط الذي يشي به حين يثمل أو يخطط لفعل أذى.

في اليوم التالي، غيّرتُ كابينة الفوتوماتون، توجهتُ إلى واحدة في شارع سيرانو والتقطتُ لقطتين وخرجتُ بنفس النتيجة. قلت «يا إلهي، إنني عمي إميليو، كيف انحدرت إلى هذا المستوى». في تلك الظهيرة كان يجب أن أزور أبويّ، إذ كانا عند طبيب لإجراء بعض التحاليل. كنت أريد أن أعرف كيف حال اختبارات وظائف

---

(12) كابينة تصوير ذاتي موجودة بالشارع [المترجم].

(13) فنان إسباني مشهور.

الترانس أمينات والاختبارات الأخرى، لكنني كنت أخاف أن ينتبه أبي إلى أني أخوه الوقح فيغلي صدره من الألم أو يطردني من بيته بالركلات. قد يمكن خداع أبي، لكن أمي شديدة الفطنة. تبدو ساحرة. لقد عرفتْ كل الأشياء المهمة التي حدثتْ في حياتي من قبل أن أعرفها أنا. أتذكر أني قبل أن أستأصل المرارة بشهرين كنا جالسين ذات يوم على المائدة نتناول «البائية»[14] التي أعدتها في قدر بريستو[15]، ثم قالت فجأة:

- لا جدوى من مداراة ذلك، نعرف أنك ستجري عملية لاستئصال المرارة.

وبعد شهرين، حدث بالفعل. بشكل عام، أحاول ألا أفكر في شيء أمامها لأن لديها القدرة على الاستماع لأفكار الآخرين بأذن غير مرئية، أذن لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، كما هو طبيعي. على أي حال، وجدتُ نفسي في أسوأ موقف، وقررتُ أن أنكر أني العم إميليو حتى النهاية في حالة أن اتهموني بأني لست أنا. في أحيان كثيرة حصلتُ بالعناد على ما لم أحصل عليه بالأسباب المنطقية.

تأخرا كثيرا في فتح الباب، رغم أني سمعتهما يذهبان ويجيئان بالممر ويتناقشان فيما بينهما. وهُيئ لي أنهما أطلا من العين السحرية، إذ لاحظتُ تغيرا في إضاءة العدسة. ألححتُ قليلا وفي النهاية ظهرتْ أمي التي أفسحتْ لي الطريق من دون أن تنبس بكلمة، سرتُ وراءها بطول الممر وحين وصلنا للصالة جلستُ على الكنبة المعتادة. كان أبي يقرأ جريدة رياضية، وأصدر بالكاد همسا بالتحية. منذ أصبحا عجوزين امتلكا صدرا ضيقا. السن لا تحسّن شيئا. سألته

(14) أكلة إسبانية شعبية وشهيرة [المترجم] وهي من أصول عربية (البقية).

(15) ماركة مسجلة لأشهر قدور الضغط في إسبانيا.

عن التحاليل وأشار لي بذقنه إلى أنها هناك على المنضدة. سحبتها وبدا لي أنها ليست سيئة، على الأقل في حدود علمي. ربما السكر مرتفع قليلا والترانس أمينات مضبوطة بالكاد، لكن الكوليسترول كان في حالة جيدة، وكذلك الكريات والصفائح الدموية.

- التحاليل على ما يرام. قلتُ، وانتبهتُ إلى أنها إحدى عبارات عمي إميليو المفضلة. كان يقضي حياته مرددا عبارة: «كل شيء على ما يرام» من دون أن يشير إلى شيء بعينه.

- لا جدوى من التخفي -رد أبي- لقد انتبهنا إلى أنك إميليو من طريقة رن الجرس: رنتان قصيرتان ورنة طويلة.

من سوء طالعي أن اسمي إميليو أيضا، إذ عندما ولدتُ لم يكن عمي قد استحال شريرا فمنحوني اسمه.

- أنا إميليو بالطبع. مَن أكون إذا لم أكن إميليو؟

- أنت تعرف أي إميليو أقصد.

وافقتْ أمي، وبدأت الحياكة بكراهية مفرطة على الأريكة. وأنا امتلأتُ بالصبر وقررتُ انتظار عبور العاصفة. وفي جيبي كانت صور التصوير الذاتي تغلي، وندمتُ أني لم أمزقها قبل دخولي، وبالتالي نهضتُ ورحتُ إلى الحمّام. مزقتها هناك إلى ألف جزء وألقيتُ بها في القمامة. وحين هممتُ بالخروج، تذكرتُ أن أبويّ اعتادا على دس المال في فتحة بالحائط، وراء صيدلية صغيرة، فقررتُ أن أسرقه وأسرق معه علبة مهدئات عثرتُ عليها بجانب المال. ثم قلتُ إني مضطر للانصراف لأمر طارئ وخرجتُ ركضا.

- مع السلامة يا إميليو. قال أبي متهكما، وفي تلك اللحظة أدركتُ أن الواحد منا في الحياة ليس ما يريده، بل ما يطلبه منه الآخرون. وما تقرره كابينة الفوتوماتون.

مكالمة من وراء القبر
LLAMADA DE ULTRATUMBA

كان خطأ بالطبع أن نداري على ابننا موت جدته، لكننا قررنا ذلك أنا وزوجتي عندما جاءنا خبر الكارثة. كل شيء كان سريعا جدا، وكان مفاجئا جدا كذلك، ولم يتح لنا الوقت لنتصرف برصانة. حتى بدأت المدرسة، كنا نتركه في بيت أمي في وقت عملنا، وبالتالي كان يحبها جدا، مثلنا وربما أكثر منّا. فلم يكن سهلا بالتالي أن نشرح له اختفاءها.

- هل نقول له الخبر أم لا؟. سألتْ زوجتي وهي تهندم نفسها لتصحبني إلى محل مغسل الموتى.

- سننتظر لعدة أيام -قلتُ أنا- كل شيء لم يكن متوقعا.

الجارة التي كانت تتكفل به في الظروف الطارئة كانت خارج البيت، وبالتالي قررنا أن نتركه وحيدا. بيتنا على بعد عشر دقائق من مغسل الموتى، بل ويمكن رؤيته من الشرفة. سنتصل به من آن لآخر وفي حالة حدوث شيء سيكون أحدنا أمامه في الحال.

كان الطفل حزينا، حتى إني فكرت في لحظة ما أنه قد اطلع على كل شيء وأنه لم يستوعب إصرارنا على مداراة الخبر عنه. كنتُ أتفادى نظرته، إذ كان من الصعب بمكان أن أداري حزني. غيّرت

زوجتي ملابسها مرتين بينما كانت تسألني رأيي أيهما الملائم أكثر للذهاب لمحل الحانوتي. ترددتْ كذلك في ارتداء عقد أم لا. وأنا قلت لها بنبرة عصبية أن ترتدي أي شيء على ألا تتأخر في اللبس، فلن نذهب إلى حفلة.

ثم شرحت للطفل أننا مضطرون للخروج وسنعود سريعا.

- يمكن أن تبقى وحدك لبرهة -أضفتُ- فأنت أصبحت كبيرا. وإن احتجتَ إلى شيء، اتصل بنا على الهاتف المحمول. وأسمح لك بأن تشاهد التلفزيون حتى نعود.

أجاب على كل كلامي بكلمات أحادية المقطع، ولم يبد أي اهتمام بأن أترك له التلفزيون مفتوحا. بدا لي أنه يكرهني أنا وأمه. أتذكر صباحات شتوية كنت أتركه فيها مع جدته قبل أن يطلع النهار حتى لا أصل متأخرا إلى العمل، وبدا لي من الظلم ألا أشركه في الخبر. ورغم أني كنت مرتبكا، إلا أني لم أكن قادرا على التراجع. فكرت أني سأتحدث معه في اليوم التالي وأنه سيتفهم ذلك. أحيانا نلف وندور حول أشياء أكثر من اللازم.

في النهاية ظهرت زوجتي. تهندمتْ أكثر عن اللازم بحسب ذوقي، لكني فكرتُ أنها ربما بذلك تشتت انتباه الطفل، وكان لذلك جانبه الإيجابي. على أي حال، لم أخرج من البيت مطمئنا. وبينما كنا نتجه إلى محل الحانوتي راودتني أفكار عن كمية الحوادث المنزلية التي يتعرض لها طفل بمفرده. كان يسيئني، أيضا، ألا أكون قادرا على التركيز في الألم الناتج عن فقدان أمي. دفعتْ زوجتي الثمن، إذ قلت لها كلاما غير مريح.

في مغسل الموتى وجدتُ أخواتي وأخوالي، عائلتي بالكامل. وكان هناك أناس أكثر مما تخيلت، وبالتالي لم يلتفتوا كثيرا لي أنا

وزوجتي. ومن حين لآخر كان ثمة فرد يقترب مني ويواسيني وأنا أرد عليه بشكل ميكانيكي. لم أكن قادرا على أن أطل على الزجاج لأرى وجه المتوفاة. وكنت أفكر في ابني بشعور كبير بالذنب فاتصلت به عدة مرات متلهفا.

عند عودتنا إلى البيت، قال الطفل إن جدته اتصلت به. فنظرتُ إليه أنا وزوجتي مرتبكَين لثوانٍ ثم شرعنا في عمل أشياء لنداري حيرتنا. وفي السرير تناقشنا، إذ كان يبدو لها ممكنا، هي من قضت حياتها تقرأ مجلات عن الأشياء الخارقة، أنها أجرت مكالمة من وراء القبر.

وفي الأسبوع التالي، قلتُ للطفل إن جدته قد ماتت، رغم أني زيّفت التاريخ حتى لا يتعارض مع تلك المكالمة التليفونية. ومع مرور الوقت تزداد قناعتي بأنه كذب علينا لينتقم منا. وبالفعل ثمة جرح مفتوح بينه وبيني منذ ذلك الحين. تقول زوجتي إنها مجرد هواجس تخصني. والحكاية أنها مستعدة للاعتقاد بالغيب أكثر من اعتقادها بمشكلة نفسية. لكنها لا تعيش ذلك كتناقض. نحن مختلفون جدا.

زوجان من الجوارب
DOS PARES DE CALCETINES

تعرضتُ لحادثة في الشارع. صدمتني سيارة وعند سقوطي ارتطم رأسي بالأرض. وحين أفقتُ، كنت في سرير المستشفى. عرفتُ ذلك من قبل أن أفتح عينيّ، ربما من رائحة غرفة العمليات، ربما من همسات الأطباء، وربما من صوت احتكاك البالطو بسيقان الممرضات. «أنا في مستشفى»، قلت لنفسي، وفي الحال تذكرتُ أني خرجتُ من البيت مرتديا زوجين من الجوارب. دائما ما كنت أخرج بزوجين، فردتين من الصوف وفردتين من النايلون. الجوربان النايلون أرتديهما فوق الصوف. يبدو لي أني بهذه الطريقة استحوذ بأفضل شكل على قدميّ. ليس في ذلك سبب منطقي، بالتالي لن أحاول تفسيره. لقد اكتسبتُ هذه العادة منذ مراهقتي حين كنت في مدرسة داخلية شديدة البرودة، ثم غدت العادة عادة خرافاتية. وإن لم أرتد أزواجا من الجوارب، أخرج بوسواس أن شيئا ما سيحدث. ومن المحتمل لو أني ارتديتُ يوم الحادث فردتين فحسب لكانت السيارة أردتني قتيلا.

الحال أني كنت فوق سرير المستشفى عاريا، ما يعني أن شخصا ما، حين جرّدني من ملابسي، قد انتبه إلى غرابتي. وبقيتُ بعينين

مغمضتين، متصنعا أني لا أزال مغشيا عليّ، بينما كنت أرتجل تفسيرا لذلك. إذ يفترض لو أن شخصا ضبطوه مرتديا زوجين من الجوارب فلابد أن يجد تبريرا بطريقة ما. فتحتُ عينيّ ورأيتُ الممرضة تبتسم لي. لم توبخني على شيء.

- ماذا حدث؟ قلت لأكسب وقتا.

- ألا تتذكر حضرتك؟

أدركتُ أنها كانت تحاول معرفة إن كانت الضربة قد أثرت عليّ بشكل خطير أم لا، فقلتُ الحقيقة مخافة أن يجروا لي أي عملية.

- صدمتني سيارة.

- هل تتذكر ما اسمك؟

قلتُ اسمي، صحيحا على ما يبدو، ثم وضعتْ أمام عينيّ ثلاث أصابع من يد واحدة لتتحقق أني لا أرى أربعا أو خمسا. احمر وجهي من الخجل أو الرعب. وخفتُ أن تضع أمام وجهي في لحظة أو أخرى زوجين من الجوارب لأعدها بصوت مرتفع. ارتعبت الممرضة حين احمّر وجهي فربما كان لارتفاع ضغط الدم. عواقب الضربة في الرأس قد تظهر بعد الحادثة بفترة.

- هل أنا في مستشفى «لا باث»[16] أم في «رامون إي كاخال»[17] أم «جريجوريو مارانيون»[18]؟

سألتُ لأظهر معرفتي بالمستشفيات. وفكرتُ أني بهذه الطريقة سأداري على موضوع الجوارب.

(16) لاباث: معناها السلام باللغة الإسبانية.

(17) طبيب إسباني مشهور حاصل على نوبل في الطب.

(18) طبيب ومؤرخ وعالم ومفكر ينتمي لمجموعة (1914).

- في أي مدينة تقع هذه المستشفيات؟ سألتْ هي بدورها.

- في مدريد. جاوبتُ بخنوع، ودائما بخوف أن يكون السؤال التالي عن موضوع الجوارب.

وأنا صغير، عندما كنت أخرج إلى الشارع، كانت أمي تسألني عادة إن كنت أرتدي ملابس داخلية نظيفة. كانت تقول: «لو حدثتْ لك حادثة، فأول ما يفعلونه في المستشفى أنهم يجردونك من ملابسك. وأتصور أنك لا تحب أن ترى الممرضات ملابسك الداخلية متسخة».

هذا الهاجس رافقني طوال حياتي. حتى عندما كنت أروح لشراء الجريدة كنت أرتدي ملابس داخلية نظيفة. مع ذلك، لم أحسب أبدا خطورة أن يضبطوني وأنا أرتدي زوجين من الجوارب، زوجا فوق الآخر، وفكرت أنها مجرد غرابة مألوفة يفرضها نوع من الانحراف الذكوري، ربما لا أعرف ما هو.

- هل تريد أن نبلغ أحدا؟ سألتْ في النهاية.

- هل ستضطرون لإجراء عملية أو شيء كهذا؟

- لا، لا -قالت وهي تضحك- كل شيء على ما يرام، لكن من الأفضل أن تقضي الليلة هنا، تحت العناية.

بعد قليل جاءت أمي، وبعد أن تحققتْ أني سليم سألتني إن كنت أرتدي ملابس داخلية نظيفة عندما صدمتني السيارة.

- كنت غيّرتها قبلها. قلتُ، وامتلأتْ هي بالفخر، فليس كل العالم يحصد بهذه الطريقة الملموسة ثمرته التربوية.

- لكني كنت أرتدي زوجين من الجوارب. أضفتُ خجولا.

- كيف كنت ترتدي زوجين من الجوارب؟ ولماذا ذلك؟

- لأسباب خرافاتية. أخاف أن يحدث لي شيء إن خرجتُ بزوج واحد.

نظرتْ إليّ أمـي بحقـد وأدركـت أني وجهـت لهـا في الحـال واحـدة مـن أقـوى الضربـات في حياتهـا.

- يـا للعـار! قالـت، وعندمـا دخلـت الممرضـة حكـت لهـا أني في الواقـع ابـن تبنّتـه.

ساقي اليمنى
MI PIERNA DERECHA

كان أبي واقفا على حافة الرصيف بجانب سيارته في انتظار أن يعبر أحد، وفي يده علبة بلاستيكية. عبرتُ أنا بالدراجة البخارية بخوذةٍ فوق رأسي تخبئ وجهي تماما، ثم وقفتُ أمامه من دون أنا أعرّفه بنفسي.

- هل نفد البنزين؟ سألته.

- نعم. أجابني.

- اركب.

ركب أبي من دون أن يتعرّف عليّ. لم نتقابل أو نتحدث منذ خمسة أعوام مضت، وكانت آخر مرة عانقته فيها يوم دفن أمي. بعدها، من دون أن يحدث أي خلاف بيننا، بدأت مكالماتنا التليفونية تنقطع حتى اختفت تماما.

لاحظتُ أنه كان يحني رأسه ليتفادى الهواء، ولابد أنه لاحظ ارتفاع كعب فردة حذائي اليمنى، فساق هذه الفردة أقصر من الساق اليسرى. لقد حدثني كثيرا عن الغضب الذي تملكه عندما أخبره الطبيب بعد مولدي بهذا الأمر. ورغم أني لم أشعر أبدا بالأسى، إلا أنهما كانا يشعران بالذنب أمام هذه السنتيمترات

الناقصة في ساق، أو الزائدة في أخرى، فالأمر يتوقف على رؤية كل منا. وأنا لم أعرف أبدا أيهما المعيبة، القصيرة أم الطويلة.

أقود الدراجة البخارية بمهارة فائقة، وأدخل بين السيارات بحركات تبدو بعيدة عن الحيطة في رأي البعض. خلال ذلك، لاحظت أن أبي، رغم تحفظه في لمس الرجال، كان يمسك بكتفي بيده اليسرى بينما يحاول أن يلصق بفخذه العلبة البلاستيكية التي يسندها بيده اليمنى. أدركتُ أنه لم يتوقف عن النظر إلى فردة حذائي المرتفعة، ولابد أنه قد سأل نفسه عن احتمالية أن أكون ابنه، وربما تذكر الأطباء الذين زارهم وسلسلة الأشعات التي قمتُ بها ومجموعة الحلول المقدمة، ليصل في النهاية إلى هذا الحل البسيط والعملي بإضافة قطعة صغيرة لحذاء الساق القصيرة. حينها، ضغط على كتفي ضغطة يمكن تفسيرها بأنها نتيجة لتحريك عاطفته، لكنني لم أتجاوب معه.

وصلنا بعد قليل إلى محطة البنزين، فنزل من الدراجة البخارية وبيده العلبة البلاستيكية. أخبرته بأني ليس بوسعي أن أصطحبه في العودة لسيارته، فأجابني بألا أشغل بالي، فلابد أنه سيجد من يصطحبه. لاحظتُ أنه يحاول أن يكشف وجهي بعينيه عبر مقدمة الخوذة المغبشة. في تلك الليلة، دق الهاتف عدة مرات في بيتي، لكن الاتصال كان ينقطع قبل أن أرفع السماعة.

ذراع أبي اليمنى
EL BRAZO DERECHO DE MI PADRE

لم ينتبه أبي إلى أنه لم يعانقني بالكاد حتى فقد ذراعه اليمنى في حادثة عمل احتجزوه بسببها في المستشفى لمدة أربعين يوما. وكلما ذهبت إلى زيارته، كنت أنظر إلى ذراعه المفقودة كأنها مرئية أكثر من الذراع اليسرى. لكن الغياب، بالطبع، كان يفتقد للحجم. كانت ذراعا من هواء. ولم يكن هذا الإصرار على مراقبة الجزء غير الموجود يمنح لي أي خلاصة، لكنه كان يمنح كما من الغرابات كنت أحاول كل ليلة وأنا في السرير أن أتفهم دون جدوى. كنت أريد أن أسأل أمي ماذا فعلوا بذراع أبي المبتورة، غير أن شيئا فطريا كان يقول لي إنه سؤال متهور.

وعندما عاد أبي إلى البيت، غدا فراغ ذراعه مكسوا بأكمام قميصه أو معاطفه، وكانت تتحرك بمفردها كأن لها حياة مستقلة. لم يكن بوسعي أن أكف عن النظر إليها لأنها كانت تجذبني بشكل حتمي، مثل ستائر تتهفهف مع حركة الهواء موحية بوجود أحد رابض ورائها. ثم قالت لي أمي على انفراد إني يجب أن أسيطر على نظراتي لأنها تجرح أبي. وكان أبي أيمن، وبالتالي كان عليه أن يتعلم من جديد فعل كل شيء بذراعه اليسرى. وأنا

عشـت، مشوشـا، عمليـة التعليـم. فـكان حمـل ملعقـة حسـاء إلى فمـه يفـرض عليـه مجهـودا مهينـا ووحشـيا. قـررت خـلال تلـك الفـترة أن أكـون ماهـرا في اسـتخدام اليديـن، وكنـت أقـضي أيامـي أتـدرب عـلى اسـتخدام الـذراع اليـسرى حتـى لا أعـاني معانـاة أبي في حـال تعرضـت لكارثـة مثـل كارثتـه.

أسـوأ مـا عاشـه أبي كانـت ذكـرى أنـه نـادرا مـا كان يعانقنـي حـين كان يسـتطيع فعـل ذلـك. ولا أعـرف في أي لحظـة ولا لأي سـبب بـدأ يحسـب أنـه مديـن لي، لكـن هـذه الفكـرة اسـتحالت هاجسـا. وحـين كنـا بمفردنـا، كان يطلـب منـي أن أقـترب منـه، وكان يحيـط جسـدي بذراعـه اليـسرى ويعلّـق كُـم المعطـف الأيمـن فوقـي حتـى يبـدو كأن ذراعـا بداخلـه.

- أشعر بندم جم لأني لم أكن أعانقك..

كان يهمـس لي في أذني بينـما أحـاول أن أحـرر نفـسي منـه، لكنـي لم أكـن أسـتطيع لأنـه كان يحتوينـي بقـوة، بقـوة، وليـس بالـذراع اليـسرى كـما كنـت أظـن، إنمـا بالـذراع الناقصـة، بذراعـه اليمنـى. بهـذه الـذراع الغائبـة كنـت أشـعر بـأني مقيـد.. ومـا زلـت مقيـدا بهـا.

حكاية أشباح
UNA HISTORIA DE FANTASMAS

حين مات أبي، عثرتُ في واحد من أدراج مكتب عمله على علبة كبريت لم تُستخدم، رغم مرور أربعين عاما أو أكثر عليها. أذهلتني. أعتقد أن مصير الفوسفور هو الاشتعال مثلما مصير النجوم هو الانطفاء. تلك الأعواد، التي قد هربت من مصيرها الحتمي، تقع الآن في يدي لتخلق لي معضلة. افترضتُ في البداية أن رؤوسها قد فسدتْ ولابد أنها، بالتالي، قد ضاعت فرصتها في الاشتعال. لكني فكرتُ بعدها أنه ربما لا، وفي هذه الحالة سأكون أنا أداة القدر لأنفّذ مهمته. وخلال أيام، لعبتُ بفكرة إشعالها، لكني كنت أتراجع دوما ربما مخافة أن تشتعل بالفعل، أو ربما مخافة ألّا تشتعل. فما من احتمالية من الاثنتين بدت مريحة.

بالأمس قُطِع النور، وكنت وحيدا من دون أي شيء أضيئه. وبعد برهة من الانتظار، تذكرتُ علبة كبريت أبي وبحثتُ عنها باللمس بين الأشياء التي تملأ مكتب عملي. وبخوف، سحبتُ عودا وفركته فوق صنفرة العلبة، فقفز لهب في الحال ما إن استقر بدأ يضيء المكان. الغريب أنه حين أضاء لم أر مكتبي، إنما مكتب أبي. وبينما كان ينفد عود الكبريت، كنت أرى مدهوشا كل ركن

مـن أركان غرفـة كان محرمـا علـيّ دخولها وأنـا صغـير. حدقـتُ، تحت هالـة جنائزيـة تميـز بريـق الفوسـفور، في مكتـب كان أبي يعمـل عليـه، وكان مليئـا، بالمناسـبة، بصـور أيضـا، مثـل مكتبـي، وبجـزء مـن سجادة باهتـة مترعـة بحـروق السـجائر. بـدا لي أن في عمـق الغرفـة ثمـة صـورة (أمـي؟)، لم أسـتطع تمييزهـا جيـدا لأن عـود الكبريـت حـرق إصبعـي واضطـررت لإلقائـه عـلى الأرض، رغـم أني لا أعـرف فـوق أي سـجادة وقـع، سـجادة أبي أم سـجادتي.

وبينـما كنـت مـترددا في إشـعال عـود آخـر أم لا، عـاد التيـار الكهربـائي وقـررت أن: لا. بعـد قليـل، عـادت زوجتـي وسـألتني مـاذا حـدث لي.

- تبدو كأنك شاهدت شبحا.

لم أقـل لهـا إني شـاهدته بالفعـل، أو كنـتُ أنـا شـبحا واقعـا أضاءه كبريـت أبي. ومنـذ الأمـس وأنـا أحـاول اسـتحضار الصـورة الغائمـة التـي كانـت في عمـق الغرفـة. كانـت امـرأة، بالطبـع، لكنهـا ربمـا لا تكـون أمـي. الأكـبر مـن ذلـك أنهـا لم تكـن هـي، إذ لـو كانـت هـي لتعرفـت عليهـا في الحـال. صـورة مـن إذن؟ أعتقـد أني لـن أسـتطيع التحقـق مـن ذلـك حتـى يُقطـع النـور مـرة أخـرى، وبهـذا العـذر الأخلاقـي أسـتطيع إشـعال عـود كبريـت آخـر.

الكتابة ضد الرغبة
ESCRIBIR A LA CONTRA

كلما تساءلتُ هل كان لنا معلمون أفاضل، أتخيلهم واحدا واحدا، ويطاردني سؤال آخر: هل كان لهؤلاء المعلمين تلامذة نجباء. بشكل عام، كنا تلامذة أشقياء، لا ينعم في وجودنا لا المعلم الطيب ولا الشرير. من بين هؤلاء كان معلم الأدب الذي كان يأمرنا بكتابة موضوعات مختلفة. فيطلب منا، مثلا، إذا شاهدنا فيلما قد أعجبنا، أن نكتب عكس إرادتنا، شريطة أن نكتب بطريقة يعجز أمامها القارئ عن كشف الكذب من الحقيقة. بعد كتابة العديد من هذه الموضوعات، لفت انتباهي أن كثيرا من الأفلام التي اعتقدتُ أنها أعجبتني سابقا، ليست إلا أفلاما بلا قيمة. تعلّمتُ أيضا أنه بقليل من الموهبة والممارسة يمكنني الدفاع عن أوضاع لا يمكن الدفاع عنها. إلى الآن ما زلتُ أستخدم منهج هذا المُعلم، حيث إن كثيرا من موضوعاتي أكتبها مباشرة ضد رغبتي، لأني لا أثق كثيرا في أن أفكاري الناتجة عن انطباع ما أفكار صائبة.

وذات يوم، أمرنا المعلم أن نكتب موضوعا عن آبائنا. طلب منا أن نتخيل أحدهما على وشك الموت، وعلينا أن نقرر أيهما في هذا الوضع. لم نتكلم في الفُسحة عن شيء آخر.

- أنا أختار أبي -قال أحدنا- لكنه من ينفق على البيت!

- لا تشغل بالك -رد آخر- فأمك ستعيش من المعاش.

- وما المعاش؟ سأل ثالث من بعيد.

لم أكـن أدري أيهـما أختـار، فتخيلـتُ كلتـا الفرضيتـين، واخترت هكذا مـن سيسـبب لي وفاتـه ألما أشـد، فلقـد صرتُ خبـيرا، أو هكـذا كنـتُ أعتقـد، في الكتابـة ضـد رغبتـي. قتلـتُ أبي إذن، وحصلـتُ عـلى تسـع مـن عـشر، وهـي أعـلى درجـة[19] حصلـتُ عليهـا في حيـاتي بأكملهـا، وبفضلهـا لم أرسـب، لأول مـرة، في مـادة الأدب في امتحـان الشـهر. هنأني أبي وأعطـاني قبلـة، فشـعرتُ بـأن التهنئـة والقبلـة مـن رجـل حُكـم عليـه بالمـوت.

احتملـتُ هـذا الشـعور بالذنـب مـدة عـام، حتـى سـاقتني المصادفـة وبعـض الأعـراض إلى غرفـة المحلـل النفـسي، وهنـاك تحققتُ مـن أن كل الأطفـال يرغبـون في قتـل آبائهـم ليسـتحوذوا كليـة عـلى أمهاتهـم. إذن، فقـد فعلـتَ الصـواب، أخـبرني محلـلي النفـسي، ناصحـا ألا أؤنـب ذاتي بهـذه الطريقـة. مـا يؤلمنـي حقـا، الآن، أني فعلـتُ مـا كان متوقعـا. وفي هـذه اللحظـة أتسـاءل: هـل لـو كنـتُ قـد اخـترتُ أمـي للمـوت فسـأحصل عـلى عـشر مـن عـشر، وسـيعطونني مرتبـة الـشرف؟

(19) النظام الدراسي في كل إسبانيا من 1 إلى 10 غالبا وعلى جميع المراحل الدراسية وفي الدراسات العليا.

آباء أصدقائي
LOS PADRES DE LOS AMIGOS

قضيت فترة أدوّن في كراسة كيف يموت آباء أصدقائي، إذ ثمة عمر يموت فيه الآباء ويتغير منظورنا لكل الأشياء. هذا التغير لا يحدث أحيانا في لحظة الموت، إنما بعد مرور أسابيع أو شهور. أبو ميجيل، على سبيل المثال، مات بسكتة قلبية حين انحنى ليأخذ عملة من الأرض، مع ذلك لم يمت في الواقع إلا بعد عام من حرق جثته. لقد ظل ميجيل يشير إليه كأنه حاضر حتى جاء يوم الإثنين، وأشار إليه كماضٍ من دون أن نعرف السبب. وبعد فترة صغيرة انفصل هو وزوجته، كأن أشياء أخرى تبخرت برحيل الأب، أو كأن موته كان شهادة وفاة بميتات أخرى لم نكن قد انتبهنا إليها من قبل.

دفن أنطونيو أباه من دون أن يخبر أحدا من أصدقائه. ولم نعرف إلا بعد مرور أسبوع، وحين سألناه لماذا لم يعطنا الفرصة لمرافقته في هذه اللحظات، رفع كتفيه وحاجبيه في إيماءة تساؤل، كأنه يريد أن يقول إنه أيضا لا يعرف لماذا فعل ذلك. مات أبوه في المستشفى بعد عملية في المعدة لم تكن في البداية خطيرة. وبعد شهر من دفنه، بدأ أنطونيو يرتدي ربطة عنق كان يكرهها طوال

حياتـه. ثـم بـدأت تـراوده فكـرة أن ينجـب ابنـا، وأنجبـه في العـام التالي مــن دون أن يطلــع أحــدا عــلى شيء. وذات يــوم التقينــا في حديقـة بالمصادفـة وأشـار لي إلى الطفـل الـذي كان يرقـد في عربـة صغـيرة. كان طفـلا بشـعر أحمـر، مثلـه، وبوجـه مدهـوش.

ربمــا كان لويــس أقــدم أصدقــائي. تعارفنــا في المدرســة وقضيــت مئـات الأمسـيات وأنـا أذاكـر في بيتـه. كنـت أعـرف أبـاه إذن، وكان صاحـب مكتبـة للكتـب والكراسـات. وكان أبـو لويـس يجمـع أقـلام الحـبر وينظـف أغطيتهـا ظهـيرة كل أحـد بقطنـة مبللـة بمادة لهـا رائحة عفنـة. وذات يـوم هاتفنـي لويـس وقـال لي إن دار المسـنين هاتفـوه وأخـبروه بـأن أبـاه مريـض. وكان يريـد أن أرافقـه لأنـه يخـاف الذهـاب بمفـرده. أخذتـه في سـيارتي وتوجهنـا إلى هنـاك، لكـن عنـد وصولنـا إلى الـدار كانـوا قـد حملـوا العجـوز في سـيارة إسـعاف وتوجهـوا بـه إلى مستشــفى. وسريعــا مــا أودعــوه في المشرحــة إذ وصــل ميتــا. تقــول الروايـة الرسـمية إنـه مـات أثنـاء انتقالـه، رغـم أن أحـدا قـد ألمـح إلى أنـه ربمـا خـرج مـن دار المسـنين مـن دون حيـاة، إذ ربمـا فضّلـوا أن يتجنبـوا كل التعقيـدات التـي يسـببها وجـود جثـة في الـدار. المسـألة أنـه بمجـرد وصولـه إلى المستشـفى أمـر القـاضي بإدخالـه المشرحـة ولم يكـن ممكنـا رؤيـة الجثـة.

- هــل تســمحون لي بــأن أشــاهده ثانيــة واحــدة؟ طلــب لويــس مســتاء.

لكنهـم رفضـوا، ولا حتـى يمكننـا رؤيتـه، غـير أني أعطيـت إكرامية لشـخص فقادنـا إلى المشرحـة. كان أبـوه في داخـل صنـدوق بخزانـة معدنيـة كبـيرة، فتحهـا الحـارس وأغلقهـا مـرة أخـرى عـلى أنفينـا. لم أسـتطع قط أن أنسى هذا المشـهد الذي يشـبه مشـاهد الاغتيالات

الجماعية في الأفلام الأميركية، لكنه في العمق يشبه أكثر أفلام الليبرالية الجديدة الإيطالية. وحين خرجنا من المستشفى، قال لي لويس إن أكثر ما يتذكره عن أبيه هو المرات التي لم يكن يلمسه فيها.

- لم يكن يلمسني قط!

- حتى ولا أنت صغير؟ سألته.

- حتى، ولا أنا صغير.

كان مهووسا بفكرة أن أباه لم يكن يلمسه إلا قليلا، وقضينا ساعات نتجول بالشوارع ونقلّب هذا الهاجس. وحين وصلت إلى البيت سجّلت هذه الملحوظة: «أبو لويس لم يكن يلمسه إلا قليلا».

ماتت أمهات بعض أصدقائي أيضا، لكن لديّ شعور بأن موت الأم أقل دراماتيكية، وبخاصة في الحالات المرضية. ومن تجربتي، علاقات الأبناء بأمهاتهم أقل غموضا، وأكثر وضوحا. هناك أحزان، آلام، دموع، بل وشعور بالذنب، لكنهم يكبرون بالعقدة التي يمنحها إياهم موت الأب. ربما نكون البطل الضد لآبائنا، ربما نظل آباءنا حتى بعد موتهم. يبدو شديد الوضوح ما تنتظره الأم من الابن، لكن كيف نعرف ما ينتظره الأب.

بالأمس مات أبو خيراردو، زميلي في الكلية، وهاتفني لأنشر النعي في الجريدة. قلت له ألا يشغل باله، رغم أني لا أعرف كيف يُنشر النعي.

- كيف مات؟ سألته.

- لا أعرف، أعتقد أنه لم يكن يرغب في الحياة منذ ماتت أمي.

ماتت أم خيراردو منذ عام. ثمة رجال كثيرون لا يستطيعون الحياة بعد رحيل نسائهم. الطبيعي أن يموت الرجل أولا،

وبالفعـل هنـاك أرامـل نسـاء أكـثر مـن الرجـال. وبنفـس الطريقـة عـدد الصفحـات المخصصـة للرجـال في كراسـتي أكـثر مـن المخصصة للنسـاء. وأسـأل نفـسي: مـاذا سـأكتب حـين يغيـب أبي؟ هـذا في حالـة إن لم أمـت أنـا قبلـه.

الباب
LA PUERTA

ذات يـوم، وفي أرض فضـاء يشـغل مكانهـا اليـوم حديقـة «لاس أبينيداس»، عثرتُ على بـاب خشبيٍّ مرميٍّ وفي حالـة جيدة، ما يثير الحسرة إلقاؤه هكـذا حتى لـو لم يكـن لـدى المرء شيء يغلقـه. هكـذا سحبته بـأسى حتـى البيـت، وهنـاك فحصـه أبي بدقـة.

- هل أنت متأكد أنك لم تسرقه يا بني؟

- لا، كان مرميا، هذه حقيقة.

مـن وجهـة نظرنـا، كان التخـلي عـن بـاب يشـبه محـو غرفـة، ولم تكـن موضـة الفضـاء المفتـوح التـي ظهـرت بعـد ذلـك بسـنوات طويلـة قـد ظهـرت بعـد. عـلى أي حـال، ولعـدم وجـود مـكان نركّبـه عليـه، بقـي البـاب مسـنودا عـلى حائـط غرفـة الجلـوس، وظـل هنـاك لأيـام كثـيرة كنـوع مـن «الطوطـم» نقيـم لـه طقسـا غريبـا، إذ عنـد المـرور بجـواره كنـا نلعـب في مقبضـه عـلى أمـل أن يفتـح عـلى مـكان مجهـول.

وبالليـل، كنـت أنـام متخيـلا مصـيره السـابق، وبهـذه الطريقـة كنـت أدخـل في أماكـن فانتازيـة تقـع في بيـوت أخـرى بوسـط المدينـة. وخـلال تلـك الفـترة، تجولـت في كل البنايـات المهمـة بمدريـد مـن خـلال ذاك البـاب. لم يكـن يتحتـم عـليّ إلا فتحـه بخيـالي لأتسـلل إلى صالونـات

كُتّاب العدل والجنرالات ومهندسي الطرق. كانوا يتمتعون جميعا بحياة مرفهة ولديهم بنات جميلات، صديقهنّ غير المرئي كان أنا.

وفي التمرينات الروحية بالمدرسة حدثونا كثيرا عن باب المستقبل، وأحيانا كنت أفكر أنه نفس الباب الذي عثرت عليه وكنت أسافر أيضا من خلاله إلى المستقبل، حيث كنت أصير، كثيرا وليس دائما، رجلا أميركيا محكوما عليه بالإعدام. والمسألة ليست أن الحكم بالإعدام ليس مطبقا في إسبانيا، بالعكس، لكنه يطبّق بحبل مشنقة حقير، يدوي، وكان يفتقد لأناقة الكرسي الكهربائي أو غرفة الغاز. أما السجناء الأميركيون، على الجانب الآخر، فكانوا يكتبون دائما مذكراتهم قبل أن يعبروا لحياة أفضل، وكان يبدو لي، وكنت أطمح إلى أن أكون كاتبا، أنها أسرع طريقة لبلوغ الشهرة. ومن الذاكرة، بدت لي دوما عجيبة تلك القدرة على السفر بين جنسيتين مختلفتين، من دون حتى أن أعرف الإنجليزية، لكن هذا ما حدث. وبلا شك، كانت أهم سيَري المتخيلة هي تلك التي كنت فيها أميركيا محكوما عليّ بالإعدام. لا أعرف إن كانوا نفذوا فيّ الحكم أم لا، لكن في لحظة محددة بدأت أغازل جنسيات أخرى ومنذ سنوات طويلة لم أعد أزور نسختي الأخروية. أشعر بالخوف: فربما بدلا من زيارة نفسي في السجن، سيتحتم عليّ وضع ورد على مقبرتي.

في النهاية، بدأت أمي تستاء من الباب الموجود دائما في الوسط، وقرر أبي وضعه في عمق الممر حيث صنع له إطارا خشبيا يركّب فيه بدقة توحي باتساع البيت من هذه الناحية. وبالفعل، كنا نفتحه طوال الوقت على أمل أن نجد بالجانب الآخر غرفة نوم أو ممرا آخر، وكنا نندهش على الدوام باصطدامنا بحائط، رغم

أنه في العمق (حتى في عمق الممر) كان منطقيا أن نصطدم بحائط. وأنا كنت ألعب أحيانا بفتحه بعينين مغمضتين، بتصور أني حين لا أرى سيكون من السهل العبور من بُعد لبُعد. ورغم أني كنت دوما أصطدم بالحائط، كما هو طبيعي، كنت أكرر نفس العملية معرضا نفسي لمخاطر جسدية واضحة.

وضَجِرا من تصادمات ابنه شديدة العنف بالواقع، قرر أبي أن يصنع للباب كالونا وإغلاقه درجتين بالمفتاح. لكن الحال غدا أسوأ، إذ بداية من تلك اللحظة كنت أقضي اليوم في النظر من عين الكالون وكنت أرى كل شيء، وبخاصة النسوة في حالات التجرد من الملابس أو ارتدائها للدخول في السرير أو الخروج منه. وكنّ سيدات أميركيات، بالطبع، مثلي أنا تماما. الإسبانيات في تلك الفترة كن ينمن بملابسهن. وكان أبواي مشغولين جدا بهوايتي هذه. وكانا يفكران أني أرى أشياء غير موجودة وكانا يخافان من أن أفقد عقلي. منذ فترة قصيرة رحت لأتغدى معهما، ولاحظت أنهما غطيا عين الكالون بورقة. سألت عن السبب فقال لي إن ثمة جارات أميركيات لا يفعلن شيئا إلا التجسس علينا. لو أن كارثة يمكن أن تحدث، فستحدث.

تحوّل تام
UNA METAMORFOSIS COMPLETA

هاتفني عمي الوحيد الحي متوترا جدا ليخبرني بأن زوجته تتحول لرجل. لقد صارت مكالماته، منذ أحالوه إلى التقاعد مبكرا من شركة تعدين، مصدرا للإزعاج. مع قضاء وقته الطويل في البيت، راح يكتشف أبعادا للواقع المنزلي لم يرتَب أبدا في أنها قد تكون موجودة حين كان ناشطا في حياته العملية. كان يراقب الأشياء الأكثر تفاهة كأنه يعثر فيها على معلومة سرية. فذات يوم رأيته ينظر إلى ثمرة طماطم مقسومة باهتمام يوحي بأنه اخترق كودها الجيني. ربما فعل ذلك، إذ إنه لم يذق السَلَطة بعدها.

كانت زوجة عمي تتحول لرجل، هذا ما قاله لي.

- هل حكيت ذلك لابنتك؟

- كيف سأقول لمرثيدس إن أمها رجل؟ أجاب بعقل سليم على ما يبدو.

كانت ابنة عمي متزوجة منذ فترة وتعيش في الضواحي، لكنها في أيام الأحد تنتقل مع زوجها إلى وسط البلد لتتغدى مع أبويها اللذين يعيشان في بيت إيجار قديم بشارع «رينا بيكتوريا»، قريب جدا من «كواترو كامينوس». لقد كنت معجبا دائما بمرثيدس،

ورغـم أني لم أكـن قـد تجـرأت أبـدا لألمّح لهـا بـشيء، إلا أنـه كان غريبا أن أكـون موجـودا مـن دون أن أهاديهـا بتـذكار.

في اليـوم التـالي رحـت لأتغـدى في بيـت عمـي، كـما اتفقـت معـه في التليفـون. كانـت زوجـة عمـي في المطبـخ فاقتربـتُ منهـا لأحييهـا بقبلـة بحـذر، متأثـرا بعمليـة التحـول التـي حدثنـي عنهـا عمـي. ولم ألاحـظ أي شيء غريـب. باسـتثناء خـط شـارب خفيـف جـدا لاحظتـه في مـرات أخـرى، وليـس دائمـا. بالتأكيـد كانـت تنتـف شـعرها. ثـم اصطحبنـي عمـي إلى غرفـة الجلـوس.

- هل لاحظتَ شيئا؟ سألني مثارا.

- الحقيقة لا.

بـدا أن إجابتـي أحبطتـه قليـلا وأحزنتـه. تحـسّر أن ابـن أخيـه المفضّـل لم يكـن قـادرا عـلى رؤيـة مـا هـو جـليّ. حينئـذ حـكى لي أنـه أيضـا في البدايـة لم ينتبـه بسـهولة.

- كنـت مرتابـا، لكنـي لم أعـرف في مـاذا -أضـاف- حتـى فـترة قريبـة كنـا نشـاهد التلفزيـون فغطّـتْ في النـوم. حينهـا أدرت رأسي لأعلّـق عـلى شيء فرأيـتُ رجـلا مرعوبـا بجـواري.

- بأي معنى؟

- كيـف بـأي معنـى؟ بـكل المعـاني، بالطبـع. ظللـت محتـارا أتأمـل تحولهـا، وحـين انتهـتْ اسـتيقظتْ، وقضـتْ برهـة تراقـب فزعـي عـبر فتحـة ضيقـة بـين جفونهـا. قلـت لنفـسي «لقـد انتبهـتْ»، «انتبهـتْ إلى أني انتبهـتُ». وبالفعـل، بدايـة مـن هـذا اليـوم بـدأتْ تتخفـى. بـدأت تتزيـن أكـثر مـن ذي قبـل، لا أعـرف إن كنـتَ انتبهـتَ لذلـك.

الحـق أن زوجـة عمـي كانـت تضـع قليـلا مـن المكيـاج، مـا كان يعتـبر شـيئا غريبـا. ثـم راقبتهـا خـلال الطعـام بدقـة ولا أعـرف إن

كان بدافع من إيحائه أم ماذا، لكنها بدت لي رجلا. تحول تام، عَرَض. وطلبتُ من عمي أن يكون صبورا معها، «فلا أحد يعرف إلى ما يمكن أن تتحول أنت»، قلت له. وودعتهما مأخوذا من هذه المناسبة الجديدة التي تمنحني فيها الحياة رعبا مجانيا.

وبعد أيام قليلة، قابلتُ بالمصادفة مرثيدس ابنة عمي في كافتيريا قريبة من مكتبها، وتناولنا معا فنجان قهوة.

- هل رأيت أبويّ مؤخرا؟ سألتْ.

- تغديت معهما قريبا. قلت.

- وهل لاحظت أن أبي غريب قليلا؟

- أبوك؟ بأي معنى؟

أومأتْ بإيماءة: لا تشغل بالك، كأنها تريد أن تقول إن لم تلتفت إلى ذلك بنفسك فليس مجديا محاولة شرح ذلك لك. حينئذ لاحظتُ أنها تشبه كثيرا زوجة عمي حين كانت شابة وشعرتُ بحزن جم عندما حدستُ بأنها قد تتحول مع مرور السنين إلى رجل. فكرتُ أني مع ذلك سأظل أحبها، إلا إذا تحولتُ، بالطبع، إلى كائن مفهوم، كما أنا الآن بطريقة ما. من الممكن، في النهاية، أن أكف عن حبي لها، ما بدا لي مريحا إلى حد ما، مثل هذه الأيام التي تستيقظ فيها وتستحم وتحلق لحيتك وتخرج إلى الشارع وتصل إلى العمل وتمتنّ للسماء أن ضمنت لك أنه عاجلا أم آجلا سيتحتم عليك الموت.

الرجل الذي يبصق
EL HOMBRE QUE ESCUPE

ذات يوم، عند عودتي من المدرسة وكنتُ قريبا جدا من البيت، رأيت أمامي رجلا أربكني حضوره لأني لم أتعرف عليه على الفور، رغم أنه كان أبي. وخلال عُشْر الثانية التي عرفت فيها ولم أعرف في نفس الوقت أن هذا الظهر ظهره، شعرتُ بخوف من هذا الإنسان، وربما بشيء أكبر من الخوف، لأني بعد أن تعرفت عليه، التفتَ قليلا وبصق على الأرض.

لم يكن أبي من الأشخاص الذين يبصقون، فغيّر هذا الاكتشاف حياتي. وبالتالي اختبأتُ خلف سيارة وانتظرتُ لبرهة قبل أن أدخل البيت حتى لا يظن أني قد رأيته. ثم صعدتُ السلم وضغطتُ على الجرس، وفتحتْ أمي الباب. وكان أبي في المطبخ يشرب القهوة. كان قد حصل له شيء في العمل لم أفهمه ولذلك عاد إلى البيت في غير الساعة المعتادة. وبعد أن قبّلته بحيطة بقيتُ أراقبه سرا وانتبهتُ إلى أنه لم يعُد أبي، إنما مجرد رجل. كان التحول رهيبا، مثل تحول الحيوان حين يموت إلى مجرد ورم. وذات مرة، في شارع كانيياس، رأيتُ حصانا ميتا، حصان بائع الفحم، فأدركتُ حينها أن الموت هو أن نكتسب هيئة ورم. وأبي كان قد تحول إلى مجرد رجل، وكان

ذلك هيئة تشبه هيئة الورم. كان ميتا، إذن، بأكثر من معنى. وبالفعل، كان قد بصق في الشارع، ما كان يعني في تربيتنا أنه لم يكن بعيدا جدا عن الموت.

وأما أمي، التي لم تعد فجأة زوجة أبي بل زوجة رجل ما فحسب، فقد تحولتْ بدورها إلى مجرد امرأة. امرأة طويلة، هكذا كنت سأقول لو أن الشرطة قد استجوبتني، وبشعر أسود وتنتعل كعبَي إبرة. ومَن أكون أنا إذن بعد أن تحول أبي إلى مجرد رجل وأمي إلى مجرد امرأة؟ ربما مجرد مشروع ورم؟ باتت ذكرى الحصان الراقد في وسط الشارع وسواسا كأن فيه يكمن مصيري مكتوبا. وبائع الفحم، قبل أن يُريه شخص ما أن الحصان قد مات، ظل يضربه بوحشية حتى ينهض. لكنه لم يكن يضرب إلا ورما.

بعد مرور عدة أيام، سألتُ أبي إن كان يصح أن نبصق في وسط الشارع، فأجاب بـ لا، بالطبع.

- إنها سوء تربية يا بني.
- الحكاية أن مدرِّس اللغة يبصق. كذبتُ.
- لا بد أن لديه التهابا في الحلق. أجاب أبي.

تجاهلتُ معنى التهاب في الحلق، ولم يبد لي مناسبا أن أسأله لأني كنت أعرف أن المصائب لا تأتي فرادى أبدا. على أي حال، كان أبي، بالإضافة لكونه مجرد رجل، مجرد ورم، كان مصابا بالتهاب في الحلق. في تلك الأيام أمروني في المدرسة بأن أكتب موضوعا عن عائلتي. وأنا كتبت أن أبي كان مصابا بالتهاب في الحلق، وبالتالي أمره الطبيب بأن يبصق في الشارع. وكتبتُ «حلق» بالخاء فخط المدرس تحتها خطا بالأحمر، ليشير إلى الخطأ الإملائي. ما زالت الكلمة محفورة في رأسي بالخطأ الإملائي الواضح بتلك الطريقة.

أحاول الآن كتابتها بشكل صحيح، أفضّل كلمة خلق على حلق. نقطة الخاء الزائدة تضيف اللزاجة إلى المرض والبصاق.

ثم كبرتُ خلال الأشهر التالية. وحين كنت أتقاطع في الممر مع أبي أو أمي، كنت أعرف أنهما في الواقع مجرد رجل وامرأة. أعتقد أنهما لم ينتبها إلى أني قد تحولت إلى يتيم. وكانت الحياة قاسية جدا بالنسبة لليتيم. تصل إلى البيت فلا تجد من تحكي له مشكلاتك ومخاوفك وأحزانك. تنظر حولك فترى امرأة تصغي إلى الراديو أو تشاهد التلفزيون، لكنها امرأة بصفات ورم. ثم يأتي صخب المصعد وبعد قليل يظهر رجل ويقبّل المرأة ويقبّلك، ويشرع في الاستماع للراديو أو يشاهد التلفزيون بهيئة من لديه قصور ذاتي مثل الأحصنة الميتة في وسط الشارع.

منذ قليل، كنت عائدا إلى البيت في غير الساعة المعتادة، لأني شعرت بتعب في المكتب، وقبل أن أدخل بصقتُ على الرصيف. حينئذ، التفتُّ ورائي ورأيتُ ابني الذي كان عائدا من المدرسة، وتصنّع أنه لم يرني. ثم تبادلنا النظر خفية ولاحظت أني كأب قد تحولت فجأة إلى مجرد رجل بالنسبة إليه، وربما مجرد ورم. في اليوم التالي، جاء الطبيب وقال إني مصاب بالتهاب في الحلق يصيب الحصان (حصان ميت، فكرتُ أنا)، وفي تلك الليلة بكيتُ بمرارة من أجل ابني، اليتيم.

لديّ قدرات خارقة
TENGO PODERES

ذات يوم من شهر يونيو، وأثناء الغداء، قال أبي بجدية شديدة:

- دوّنوا ما أقوله لكم: اليوم لن تمطر السماء ثلجا.

كان من المستحيل أن تمطر ثلجا. كان الحر يغطي مدريد كبطانية، وكانت حمّامات السباحة مفتوحة. كانت احتماليات الخطأ قليلة جدا مثل أن نفوز في يانصيب عيد الميلاد. لكن أبي قد اكتسب مكانة في العائلة بفضل هذا النوع من التكهنات السلبية. إذ لم يقل أبدا ما سيحدث، إنما ما لن يحدث.

- كيف تعرف ذلك؟ كان أخي الصغير يسأل.

- لديّ قدرات خارقة. كان يجيب هو.

ذات يوم وضعنا في ممر البيت سلة كرة السلة. وكنت أنا وأخي نلعب بتصويب الكرة. وراهنته أني أستطيع إدخال سبع كرات من عشر، لكنني استطعت إدخال خمس فحسب. حينئذ ظهر أبي وسأل بجدية شديدة:

- على ما تراهناني إن استطعت ألا أدخل ولا كرة واحدة من عشر في السلة؟

دخل أخي في اللعبة وراهن على حلوى. رمى أبي عشر كرات،

وبالفعـل لم يصـب في أي واحـدة. واندهـش أخـي.

- وهذا رغم أني لم أتدرب منذ سنوات. قال بتعالٍ.

- لكن الصعب هو إدخالها. قلتُ مستفزًا.

- بالنسـبة لي، الأصعـب هـو ألا تدخلهـا يـا ابنـي. أجـاب بإيمـاءة أبويـة، وانـصرف لداخـل البيـت. وكان أخـي مثـل الأهبـل. وكان الإعجـاب الـذي يشـعر بـه تجاهـه ملتهبـا.

- لكن ألا تفهم أنه يخدعك؟ كنت أقول له.

- لا. كان يجيب هو.

وذات مرة رآني أبي وأنا ألعب الضغط.

- هل تستطيع ألا تعد مئة ضغطة؟ تحداني.

- نعـم أسـتطيع. قلـت أنـا وبـدأت: واحـد، اثنـان، ثلاثـة، أربعـة... وفي الخامسـة والتسـعين تهاويـت أمـام نظـرة أخـي الحمقـاء الـذي كان يعتقـد بقدمـين مضمومتـين بــ «قـدرات» أبي.

حينئـذ، لينهـي المعركـة، أكـد أبي أنـه لا يسـتطيع عمـل ثـلاث ضغطـات.

- كيف لا تستطيع على ثلاث ضغطات؟ قال أخي.

- ولا حتى ضغطتين -أضاف هو- على ما تراهن؟

- على ما تريد.

نزل أبي إلى الأرض وبدأ في لعبة الضغط وتهاوى.

- هل رأيت؟ -قال- لديّ قدرات.

كنـت أمقـت إيمـاءة التعـالي التـي بهـا كان يحقـق تلـك التكهنـات العبثيـة. كنـت أفكـر أحيانـا في اللعـب في أرضـه وأقـول لـه إن قـدراتي تؤكـد لي أني سأرسـب في الرياضيـات. لكـن لم يكـن ضروريـا أن يكـون لـديّ قـدرات لأتكهـن بذلـك. إذ لم أنجـح فيهـا أبـدا. وأيضـا، كنـت

أتمنى أن تكون لي قدرات حقيقية، حتى أذله أمام كل العائلة. على أي حال، بما أني كنت عاجزا عن الصمت أمام هذه الاستفزازات، أجبته يوم الثلج ذاك:

- دوّنوا ما أقوله: بين اليوم والغد تمطر السماء ثلجا في مدريد.

انفجرت أمي في الضحك، وأبي أيضا، وأخي، لأنه كان تكنهها طائشا.

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن. صليت لكل القوى. وعدت الرب أنه لو أثلجت فسأواظب على القداس كل يوم طوال حياتي. وكل خمس عشرة دقيقة كنت أصحو وأطل من النافذة. وفي الخامسة تقريبا وقعتُ منهكا على الملاءات وغططت في النوم. ثم صحوت مرتجفا، إذ لم أتغطّ بشيء. فتحت عينيّ ونظرت صوب النافذة، ورأيت أن الجو بلون الشتاء. رأيت أيضا أن ثمة قطع ثلج تتساقط كما لم يحدث أبدا في مدريد. اعتقدت أني أحلم، لكني قرصت نفسي في ذراعي كما تفعل الشخصيات الكارتونية، وتألمت. ثم أيقظت أخي الذي كان ينام في السرير المجاور، وأريته البانوراما.

في يونيو عام 65 أو 66، سقطت على مدريد عاصفة ثلجية بطريقة استثنائية؛ لكني كنت محظوظا لأني راهنت عليها وكسبت الرهان. ثم استحلتُ أبا لأخي الذي كان يسألني بإعجاب كيف تكهنت بالثلج.

- لديّ قدرات. قلت.

وأبي تهرّب مني طوال اليوم ثم بدأ ينحدر، وغدا عجوزا. أما أنا، فعلى عكس ما اعتاد أن يفعله هو، لم أحتفل لمدة أسبوعين بنجاحي، غير أني لاحظت أن رصانتي كانت أكثر تأثيرا من خفته.

رائحة البنزين
EL OLOR DE LA GASOLINA

عندما كنت صغيرا، سمعتهم يتحدثون مرات كثيرة عن جبال «سيّرا دي مدريد»[20]. بعض زملائي كانوا يعرفونها، والأثرياء كانوا يتباهون بامتلاك بيت هناك في «ثِرثِديّا». وأنا كنت أحتفظ أمام هذه التعليقات بحيرة الأطفال الصامتة حين لا يفهمون شيئا. «سيّرا» ليست إلا منشارا يستخدمونه في العمل[21]. وفي بيتنا كان ثمة منشاران، أحدهما للخشب والآخر للحديد. وسريعا ما تعلمت النشر، ففي تلك الفترة كنا نحن من نقوم بعمل النجارة، رغم أنها لم تكن تُسمى هكذا حينذاك. لم يكن لها أي اسم. وحين كنت تضطر إلى إصلاح باب، كنت تمسك بالمنشار وتقطع ما تحتاج إلى قطعه بالضبط.

ذات يوم اشترى أبي «فيسبا»[22]، ولم أتأخر في تعرية غطاء خزان البنزين الذي كان تحت المقعد. كان يشبه أغطية زجاجات المشروبات الغازية، الفارق أنه عند فتحه كانت تفوح من تحته رائحة تصيبني بالجنون. حينئذ لم أكن أعرف أن له خصائص

(20) سلسلة جبال شهيرة بالعاصمة الإسبانية عادة ما يسكنها الأثرياء [المترجم].
(21) سيّرا بالإسبانية تعني المنشار كما تعني سلسلة جبلية، وهنا يلعب المؤلف لغويا بهذا المرادف [المترجم].
(22) دراجة نارية صناعة إيطالية معناها الدبور.

المخـدر. وإلى الآن لسـت عـلى يقـين. عـلى أي حـال، كان هـذا مفعولـه عـليّ. وفي الصيـف، وبعـد الغـداء، حـين ينـام أبـواي القيلولـة، كنـت أخـرج إلى الممـر حيـث يركـن الفيسـبا وأقـترب مـن الخـزان بأنفـي. كان مـن الممكـن أن أقـضي سـاعات وأنـا أمتـص هـذا الفوحـان الـذي كان يثـير خيـالي إلى قمتـه. ولم يكـن غريبـا أني تحـت تأثيراتـه كنـت أتخيـل أن لدينـا بيتـا في «سـيّرا» بـدلا مـن أن يكـون لدينـا «منشـاران» في البيـت.

لسـبب مـا لا أذكـره الآن، بقيـتُ أنـا وأبي في البيـت. لابـد أننـا كنا في يوليـو أو أغسـطس. وأنـا قـد تعاطيـت للتـو جرعـة مـن البنزيـن وكنـت جالسـا عـلى الأريكـة. حينئـذ ظهـر أبي وقـال:

- هيا لنذهب إلى «سيّرا».

- ماذا؟

- هيا لنذهب إلى سيّرا أنا وأنت، لنقضي الظهيرة.

قـولا وفعـلا. ركبنـا الفيسـبا وبعـد سـاعة تقريبـا تعـرض المنظـر لتغيـير جـذري وتحـول إلى ديكـور. نزّهنـي أبي بهـذا المنظـر العمـلاق، حيـث كانـت هنـاك صخـرة مرعبـة وبعيـدة تُسـمى «المـرأة الميتـة»، ودعـاني إلى الكـوكا كـولا التـي بـدأت تُبـاع في إسـبانيا. ثـم هممنـا بالعـودة حـين اقـترب الغـروب. أثنـاء ذلـك، أوقـف أبي الفيسـبا في أحد جوانـب الطريـق وطلـب منـي أن أركّـز في الضـوء.

- ركّـزْ في هـذا الضـوء. الآن لسـنا في النهـار ولا في الليـل. هـذه هـي اللحظـة الأكـثر ارتيابـا في اليـوم. وفيهـا مـن الممكـن أن يحـدث أي شيء.

انتابتنـا السـكينة، وبقينـا في صمـت كاتمـين أنفاسـنا، لكـن لم يحـدث شيء. سـقطت الشـمس عـدة أمتـار للـوراء وتحـول الغـروب إلى ليـل صـافٍ وقـاسٍ.

- لقد مر الخطر -قال أبي- هيا بنا.

ضغط على دواسة البنزين فأصدر موتور الفيسبا هديرا، وحين أصبحنا على وشك أن نركبه، أضاف:

- بعد سنوات طويلة، عندما تغدو كبيرا ولن أكون موجودا بينكم، سيكون لديك سيارتك وستمر بهذا المنظر أكثر من مرة. ربما تمر ذات مرة في نفس هذه الساعة وتتذكر هذا اليوم الذي جئنا فيه إلى «سيّرا» معا. إن حدث ذلك، توقف بالدراجة النارية للحظة وانتبه لما يحدث في الهواء؛ إن رأيت مرور عصفور أسود، فاعلم أن العصفور الأسود هو أنا.

الحدث أصابني بالذهول، وظل في ذهني مرتبطا بخيالات تثيرها رائحة البنزين. كان أبي قد قال: «هذه هي اللحظة الأكثر ارتيابا في اليوم». لا أعرف إن كانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة: ارتياب، لكنها المرة الأولى التي ترجفني. طعمها يشبه طعم تلك الساعة التي فيها لم تكن الظهيرة لا سمكا ولا لحما، ومن الممكن أن يحدث أي شيء.

نسيت الحكاية. غير أني منذ فترة قريبة كنت عائدا بالسيارة من شمال إسبانيا ومررت بـ «سيّرا» في لحظة كان فيها النهار يبدو مترددا بين المقاومة والاستسلام لقوى الليل. وكان ممكنا، بالفعل، حدوث أي شيء. توقفتُ بالسيارة في طريق جانبي، ثم، بشعر واقف، خرجتُ إلى الطريق السريع. كان ثمة صمت. حينئذ، شيء ما تحرك على يساري وفجأة عبر الطريق عصفور أسود وتاه في الظلام الذي كان يبدو أنه يأتي من الأفق. دخلتُ السيارة وبكيتُ كما لم أبكِ حين مات أبي.

الحياة

LA VIDA

ميول الطبقة الوسطى
UNA VOCACION DE CLASE MEDIA

كان بيثنتي أولجادو يكتب روايات تجارية لا يهتم أحد بنشرها، وبالتالي كان يعيش من مساعدة أخي زوجته المشلول وسيئ الطباع الذي رحب به الزوجان في بيتهما ليستفيدا من إعانة الإعاقة. كان بيثنتي يطارد النجاح ليتمكن من التخلي عن صهره ويقيم ككاتب حقيقي في الغرفة التي يشغلها الآخر، وهي أفضل غرفة في البيت. غير أن الناشرين كانوا يعيدون إليه مخطوطاته، رغم أنها كانت تحتوي على عدد هائل من التوابل التجارية، ولسبب غريب لم تكن تؤتي ثمارها المرغوبة. وليس لأنه ينقصه طموحات أدبية، إنما قد قرر تأجيل كتابة عمله العظيم حتى يبلغ وضعا اقتصاديا أقل ضيقا.

أثناء ذلك، كان يعمل في ركن ما بالمطبخ، محاصرا بروائح خضار وبصرير كهربائي لكرسي متحرك ينقل المعاق العصبي من طرف الشقة إلى طرفها الآخر. ولم يكن لزوجته كذلك أي نشاط إنتاجي، إذ بعد قليل من سقوط مَنِّ الإعانة الأخوية عليهما، غدت مدمنة للأفلام الوثائقية حول الطبيعة، وكرّست حياتها لإنقاذ السلحفاة الجلدية بالمحيط الهادي، وعن هذه السلحفاة جمعت في وقت

قصير وثائق غير عادية.

وذات يوم، استعرض لهما صهر بيثنتي كرسيا متحركا بعجلات معدنية، وأثناء العشاء جرّب أمام نظراتهما الحقودة فاعليته. بنصف تكلفة هذا الجهاز كان يمكن لبيثنتي أن يكتب لمدة عام من دون أزمة مالية، وكان يمكنها تأسيس جمعية خيرية للدفاع عن حق السلحفاة الجلدية بالمحيط الهادي. وبعد الحلوى، راح الأخوان معا ليشاهدا التلفزيون فيما واصل بيثنتي في المطبخ وحيدا، يتبادل كلمات مع صديق غير مرئي، وهي العلاقة الشخصية الوحيدة التي استطاع الحفاظ عليها منذ كان في المدرسة.

- هل انتبهت؟ البعض معه الكثير والبعض معه القليل.

- هل قلتَ ليس معه القليل أم معه القليل؟ رد الصديق غير المرئي.

- قلتُ معه القليل، معه القليل.

- معذرة، ظننت أنك تلعب بالكلمات. صهرك في النهاية رجل حُكِم عليه بالحياة على كرسي متحرك. هل تحب أن تكون مشلولا؟

- إذن، انظر. بما أنك فتحت الموضوع، نعم. انظر إلى ثيربانتس.

- ثيربانتس كان أكتع، ولم يكن يتحصل على إعانة إعاقة. أفكر أحيانا أنك لا تريد أن تكتب عملا عظيما، بل تطمح إلى أن تؤمّن حياتك. الكاتب الحقيقي ينبغي ألا يقدّم الراحة المالية على تحقيق غايته.

- استمر، استمر. أنا اليوم جاهز لتعارضوني.

كان صديق بيثنتي غير المرئي ناقدا أدبيا، ولم يكن يقبل طريقته في اشتراط الراحة المالية أولا قبل أن يشرع في عمله العظيم. الأسوأ من ذلك: منذ فترة وهو يلمّح له إلى أن الضيق الاقتصادي ليس في

الواقع إلا عذرا ممتازا حتى لا يعترف بنقص موهبته.

- طريقة جيدة في النهاية: إلقاء الذنب على الظروف الخارجية ونقص الإمكانات. أضاف.

عض بيثنتي لسانه حتى لا يرد عليه بما يستحق. ثم، بإيماءة مرهقة، أخرج من الثلاجة حزمة أوراق، ومن درج الشُوَك والسكاكين قلما جافا، وحاول التركيز في كتابة عمل بست سيلر. لكنه لم يستطع؛ موقف الناقد أثار فيه موجة من الحقد، ومن الحسد؛ وبعد كل شيء، وبحسب معرفته، كان صديقه قد انتصر كناقد غير مرئي، بينما فشل هو ككاتب مرئي في كل أيام حياته.

- حظ سيئ كذلك أنك أصبحت ناقدا، رغم وجود مهن كثيرة في الحياة! صرخ في النهاية ورمى القلم على المنضدة بعصبية.

- هل قلتَ مع ذلك أم كذلك؟

- قلتُ كذلك، كذلك.

- إذن قد يضايقني مصادفة أنك أصبحت كاتبا كذلك.

- لكنك أصبحت ناقدا بعد أن أصبحت أنا كاتبا بقليل، لتطاردني. اعترف بأنك قضيتَ حياتك تحاربني.

- لا تشكُ. رغم أنك لم تنشر شيئا، فأنا دائما كتبت نقدا بارعا عن كتبك. أنت نفسك قرأته.

- وبماذا يفيدني نقدك غير المرئي في الجرائد غير المرئية التي لا تصل إلا إلى قراء غير مرئيين؟ كذلك، فأنت لم تعاملني بتقدير في المناسبة: غفرت لي نعم، لكنه ليس نفس الشيء. لم نتحدث عن ذلك قط، لكن، ولأنك فتحت الموضوع، سأقول لك إني كنت أفضّل السب أو الإهانة على هذه النبرة المتسامحة التي تشير بها الى أعمالي.

- أفعل ما أستطيع.

- أحيانـا أفكـر أني محـاط بمجانـين؛ صهـري وشـغفه بالكـراسي المتحركـة، أنـت ووساوسـك الأخلاقيـة المسـتمرة، إذ تبـدو كراهيـة أكـثر منـك ناقـدا؛ وزوجتـي المهووسـة بإنقـاذ السـلاحف الجلديـة مـن المحيـط الهـادي.

- زوجتك أكثر نزاهة منك.

- لكـن المسـكينة لا تعـرف أيـن يقـع المحيط الهـادي، ولم تـر أبدا أي سـلحفاة، ولا حتـى جلديـة! الـشيء الوحيـد لدينـا في هـذه الشـقة هـي الصراصـير، كـما تـرى، وهـي نفسـها تقتلهـا بمبيـد حـشري كيميـائي لـه رائحـة قاتلـة. وبالأمـس نفسـه اضطـررت لقتـل صرصـور كان يحتضر بـألم وراء المرحـاض برئتـين ممزقتـين بهـذا النـوع مـن النابـالم الـذي يكسـوه.

- لا تكن سفسطائيا.. ليس للصراصير رئتان.

- أيـا كان. لا أفهـم لمـاذا يبـدو لهـا شريفـا الدفـاع عـن السـلحفاة الجلديـة بالمحيـط الهـادي، ولا نعرفهـا إلا مـن التلفزيـون، أكـثر مـن الدفـاع عـن صرصـور عـادي في نهايـة المطـاف يشـكل جـزءا مـن النظام البيئـي العائـلي، ويخلـف وراءه عنـد تغيـير جلـده، بحسـب اليابانيين، مـادة مضـادة للسرطـان...

- بالطبـع، فالأسـهل الكفـاح مـن أجـل الـشيء المعـروف، وهـو في النهايـة مـا تفعلـه أنـت عندمـا تكـرر الكليشـيه مـرة وثانيـة في رواياتك الرخيصـة. المغامـرة هـي أن تراهـن بحياتـك مـن أجـل شيء مجهـول، أو بكلـمات أخـرى، المغامـرة بكتابـة روايـات لم تُكتـب بعـد. واليـوم الـذي يحتـوي فيـه أدبـك نفـس كميـة مخاطـرة زوجتـك البيئيـة وطموحهـا، سـأفكر أنـك مـا تـزال تتمتـع بإمكانيـات أدبيـة، حتـى ولـو حاولـت

كتابة سلحفاة جلدية وكانت النتيجة مجرد سلحفاة عادية.

لف بيثنتي رقبته في إيماءة لانتهاء الحوار. ثم أمسك بالقلم من جديد وبدأ يكتب ألف باء بإيماءة مركزة ليبدي أهمية أدبية. وبعد أن ملأ سبع صفحات بهذه المادة بدأ يهدأ، وحاول تخيل كيف يمكن أن تكون الرواية في شكل سلحفاة جلدية. لابد أن الفكرة ستكون مجعدة، أو ربما لها طبقات جلدية، من نوع القشرة الضخمة. وكان هذا هو التجديد، بالطبع، بمصطلح أدبي. الحبكة، إذن، ستكون بالداخل وستمثل المنطقة الناعمة بالرواية، بينما سيكون الشكل هو الصَدَفة. وفي حالة موت الرواية (يقول لنفسه «الله لن يرضى بذلك»)، واختفاء الفكرة لتحللها غير المتماسك باللحم، سيبقى الهيكل الخارجي كشهادة شكلية على عمل عظيم. وعندما تذكّر أنهم يصنعون من صدفة السلحفاة أمشاطا ودبابيس للشعر، هاجمه وسواس خافت بفكرة أن كتابه قد يتحول في المستقبل إلى شيء يباع في محلات العطور، لكنه انتبه في الحال إلى أن الفكرة لها جانبها الإيجابي، هكذا دوّن الملحوظة ليطوّرها في اليوم التالي، وفكر أنه في تلك الليلة قد كرّس وقتا كافيا للخلود. كان التلفزيون قد انطفأ منذ برهة، وبالتالي لابد أن صهره وأخته قد ناما.

نهض، وضع الأوراق في الثلاجة والقلم في درج الشُوَك والسكاكين، ثم توجه إلى غرفة النوم بشعور راحة محفز. كان مشروع كتابة رواية باتباع القواعد الشكلية والمضمونية لسلحفاة تعيش خطر الانزواء يبدو له ثوريا تماما. وفي المستقبل قد يُقال إن بيثنتي أولجادو قد استلهم كنموذج أدبي سلحفاة جلدية بالمحيط بنفس استلهام جويس لـ هوميروس ليكتب «عوليس». كان يتخيل

موسوعات المستقبل تكتب: «تجديد أولجادو يكمن في أنه شيّد رواية بظفر قدم، لنقولها هكذا، بحيث ستعمل القشرة الدماغية للأبد كمكان فارغ أو كقالب لمنطقة القصة اللحمية، والقابلة للفساد بسبب طبيعتها ذاتها».

كانت زوجته نائمة؛ لو لم تكن كذلك لأيقظها (يا للحماقة، صحح لنفسه) ليحكي لها أن بين يديه مشروعا مهمًا، وجاهزا لبلوغ المجد معها لو أمدته بوثائق حول السلاحف المائية بالمحيط الكبير. وكان قادرا على تبصُّر الإهداء: «إلى زوجتي، فلولا معارفها حول سلاحف المحيط الجلدية لما خرجت هذه الرواية للنور». ربما كان إهداء مبالغا فيه، قد يوحي بأن جزءا من استحقاقه الأدبي يستحقه آخر. كذلك، فكّر في الحال أنه لو اقترح عليها تبادل مصالح كريم، فستلقي هي في وجهه مرة أخرى أن عليهما أن يعيشا من أموال أخيها المعاق، كما يحدث كلما حاول أن يشركها في أي مشروع طليعي. لم يستطع جنونها بالحيوانات الغريبة أن يلغي مزاجها الانتهازي الذي يتجلى في هذا النوع من الحوارات الفنية. ربما من الأفضل ألا يحكي لها.

اضطجع وهو ينظر إلى السقف، وتذكر أزماته الاقتصادية التي عكّرت مزاجه مجددا حين أدرك أن عليه أن يؤجل كتابة تلك الرواية حتى تحقيق استقرار بات يبتعد أفقه يوما وراء يوم. حينئذ، ومن دون أن يضيف شيئا من جانبه، كأنها فكرة منبثقة من رأس آخر وقابلت رأسه بالخطأ، بدأ يخطط لموت صهره. حَسبَ أن بوسعه أن يقضي عليه لو وضع له في طعامه كمية يومية من المنتج الكيميائي الذي تستخدمه الزوجة لقتل الصراصير. وفي الحالة التي سيكون عليها المسكين، بأزمة تنفسية

وقلبية متكررة، سيوقع الطبيب شهادة الوفاة من دون اللجوء إلى تشريح الجثة. كم سيستغرق حتى يموت؟ أربعة شهور، خمسة؟ لا يهم، يمكن أن ينتظر حتى مدة عام أو عام ونصف. المهم أن تتم العملية على مهل حتى لا تثير الشبهات.

كان صهره يمتلك، بالإضافة لإعانة الإعاقة، بعض مدخرات غير معلوم مقدارها، وشقة فاز بها كتعويض عن حادثة العمل التي أقعدته على كرسي متحرك. وحسب أنه، من بين أشياء وأشياء أخرى، يمكن أن يعيش هو وزوجته، عقب وفاة الصهر، فترة ضرورية من دون ضائقة حتى يحقق نفسه في عالم الأدب الصعب. وعالم السلاحف.

ثم نام بهذه الخطط التي واسته، وفي الصباح، وبمجرد أن استيقظ، راح ليحبس نفسه في الحمّام ليحكيها لصديقه غير المرئي. غير أن هذا تلقاها بوجه عابس، ما أغضب بيثنتي جدا. في طفولتهما، كانا دائما متواطئين في فعل كل نوع من الحماقات، لكن بعد ذلك، وكلما كبرا، كان غير المرئي يمتلئ بالقيم الأخلاقية التي بلغت ذروتها عندما غدا ناقدا أدبيا. كان بيثنتي سيقدّر بلا ثمن أن يشعر بالدعم العاطفي في مغامرة جرامية بهذه الخطورة. بعد كل شيء، كان الناقد غير المرئي يكره أيضا أخا زوجته وفي أحيان كثيرة اختبرا معا خسته وعصبيته.

- لكن إن كان طفيليا -برر لنفسه- من ذا الذي سيهتم إن اختفى؟ انظر في أي ظروف أعمل. أحتاج إلى غرفة وقليل من المال حتى أبدأ الكتابة بجدية. بالتحديد، لديّ فكرة قصة لها شكل القشور ويتطور مضمونها داخل صدفة سلحفاة، مثل رؤوس السلاحف الجلدية بالمحيط.

- إنــه كائــن حــي. مــن غــير الأخلاقــي أن تحــاول تشــييد شــهرتك الأدبيــة عــلى جريمــة.

- وما علاقة الأدب بالأخلاق؟

- ثمــن تجاهلــك لهــذه العلاقــة هــو هــذه الروايــات التافهــة والرخيصــة التــي تعذبنــي بهــا ولا تقبــل بنشرهــا أي دار نــشر.

بــدا غــير عــادل لــ بيثنتــي موقــف صديقــه غــير المــرئي، فنهــض بعنــف مــن فــوق المرحــاض ونظــر إلى عينيــه نظــرة ينقصهــا الاتفــاق.

- كلــما كنــتَ تحتــاج إليّ، كنــت أقــف بجانبــك! ولم تســبب لــك صداقتــي حتــى الآن أي مشــكلة! في المقابــل، بســببك أخــذوني وأنــا صغــير إلى الطبيــب النفــسي!

- بسـببك أنـت! لقـد حذرتـك ألـف مـرة لتحدثنـي بصـوت خفيـض. كذلـك صدّقـتَ في الجلسـة الثالثـة عـلى كلام الطبيـب النفـسي، وكلام مدرسـيك وأبويـك. قلـتَ لهـم إني غـير موجـود، إني غـير موجـود وإني غـير موجـود، أتذكـر ذلـك جيـدا جـدا، لم أسـتطع أن أنسـاه أبـدا. هـل تعتقـد أنـه لم يؤلمنـي أن أنكرتنـي ثـلاث مـرات بهـذه الطريقـة؟ أنـت يهـوذا، هـذا هـو أنـت، مجـرد يهـوذا!

- ومــاذا كنــت تريــد أن أفعــل؟ كانــوا يطاردوننــي طــول اليــوم وكانــوا ســيحجزونني لــو لم أصــدّق عــلى كلامهــم!

- الحقيقـة أنـك منـذ ذلـك الحـين لم تتجـرأ عـلى الحديـث مـع أحـد عـن وجـودي، ولا حتـى مـع زوجتـك حـين كنتـما خطيبـين وكنـت تشـاركها كل أسرارك.

- لكن، هل تريد أن يظنوا أني مجنون أم ماذا؟

- هـذا مـا يقتلـك: مـا يقولونـه. سـأقولها لـك بخمـس كلـمات: أنـت رجـل برجـوازي جـدا وفاسـد. لا أعـرف كيـف صدّقـتُ أنـك سـتكتب

شيئا جديرا على الأقل بهذا الميل المتجذر في الطبقة الوسطى!

- وأنت، يمتلئ فمك الآن بالجدارة، لكني على علم أنك مستشار لثلاث دور نشر أو أربع غير مرئية، وأنك لا تتجرأ أن تكتب نقدا موضوعيا عن إصداراتها. وعلمت أيضا، عندما عيّنوا أباك مديرا عاما للكتاب غير المرئي، أنك استفدتَ من منصبه بأن أعطيت محاضرات غير مرئية في كل المراكز الثقافية غير المرئية التابعة لنطاقه. وبالتالي، عليك أن تطبّق على نفسك ما تقوله.

- انظر يا بيثنتي، لقد فعلتُ ما استطعتُ منذ كنا أطفالا من دون أن أفكر في أدائك الخسيس معي كل يوم. لكني مللتُ ولن أخفيك ما أفكر فيه ولا دقيقة واحدة: أنت لا ينقصك الموهبة فحسب، إنما أنت بائس أيضا. رجل بائس. وربما الأول نتيجة للثاني، وهكذا انس الأدب وكرّس حياتك لشيء آخر.

كان صديقه غير المرئي سيضيف شيئا، لكن الفرصة لم تسنح لأن بيثنتي سحب صبّانة الحمّام ذات البلورة الصخرية وصدمها برأس صديقه بغضب بينما كان يطلق اللعنات بكل الأحجام وبصوت صارخ.

- هل حدث شيء يا بيثنتي؟ سألت زوجته بصوت قلق من الجانب الآخر للباب.

توقف أولجادو للحظة وهو يلهث وقال: لا، إنه كان يحاول غناء أغنية لا يحفظها جيدا. ثم رأى الجسد غير المرئي لصديقه ميتا، وفي جبهته شق ينبثق منه شلال دماء غير مرئية يغرق وجهه فتضيع ملامحه كلها. بشكل فطري، غسل الصبّانة ومسح الأرضية بالممسحة المبلولة. لكن ماذا سيفعل في الجثة؟ بالطبع لن يراها أحد حتى لو تركها في مكانها، عند طرف المرحاض؛ لا أحد

باستثنائه هو، مَن يتحتم عليه تتبع تحلل الأعضاء اللينة لعدة شهور (هل ستكشف الأنسجة العضلية عن العظام؟). بدت له فكرة غير محتملة، هكذا فتح نافذة الحمّام المطلة على منور داخلي صغير، وألقى بالجثة في الخارج، وسمع ارتطامها غير المرئي بالأرض، في نفس اللحظة كان صهره يطرق الباب ويصرخ بأنه منذ نصف ساعة وهو محصور، وأن الآخرين لهم احتياجاتهم أيضا.

- انتظر! صرخ بعصبية، وأغلق النافذة مقللا صخب الإحكام بمسحة ملفوفة عليها.

في نفس تلك الليلة، وبعد يوم طويل من التوتر، بدأ تأنيب الضمير. أو ربما الخوف. وفي البُعد غير المرئي، ربما لاحظوا أو على وشك أن يلاحظوا غياب صديقه، رغم أنه كان أعزب وليس له، بالتالي، أي زوجة غير مرئية تفتقد إليه. وبلا شك، سيتأخرون في العثور على جثته، لكن حين يعثرون عليها، سيبدؤون في التحقيقات. لم يكن لدى أولجادو أي فكرة عن إجراءات الشرطة في هذا البُعد، لكن مجرد التفكير في أنه ذات يوم، حين يستيقظ، سيجد مفتشين غير مرئيين في انتظاره، كان كافيا لإرعابه. قضى أسوأ ليلة في حياته، وخمّن أنه ربما كانت بين السلطات الشرطية المرئية وغير المرئية ثمة اتفاقيات شبيهة بتلك الموجودة بين الشرطة الإسبانية والفرنسية، وحاول خلال برهة أن يفصل الذنب عن الخوف، ليفرّق بين كتلة كل من الشعورين ومن ثم يحاربهما بطريقة خاصة، لكنهما كانا معقودين بطريقة لم يجد معها تمييز أحدهما عن الآخر. في النهاية، سقط في هذيان المطاردة المميت وبقي طوال الليل مستيقظا.

عند الصباح، وبارتجاف ونبض مضطرب من الحمّى، راح للحمّام وأطل من النافذة ورأى الناقد الأدبي غير المرئي في نفس الوضع الذي

سقط به، برقبة مكسورة وعينين مفتوحتين في اتجاه السماء، كأنه يحسب المسافة التي ألقوه منها. كانت أسراب من الذباب غير المرئي تطن حوله وتستريح في المناطق المتخثر فيها الدم. لقد أدى التحقق من أن الجريمة لم تكن محض كابوس إلى مضاعفة الحمّى في ثوانٍ، وإلى تشنجات عصبية. في تلك اللحظة سمع زوجته تصرخ، في حالة جنونية، بشيء يتعلق بأخيها، غير أنه لم يكن قادرا على استماع ما تقوله، إذ كان معلقا كما كان في إحباطه ذاته. وبعد أن أغلق النافذة ليتجنب تسلل الانبثاقات غير المرئية للجثة إلى البيت، خرج من الحمّام وتوجه راكضا إلى التليفون وضغط على رقم الشرطة.

- لقد ارتكبتُ جريمة. أعلن منهكا، وأعطى اسمه وعنوانه للشرطي الذي رد عليه.

ثم وضع السماعة، وبعد نوبة الراحة التالية للاعتراف انتبه إلى وجود زوجته التي كانت تراقبه بنظرات رعب من الطرف الآخر للصالة.

- هل قتلت أخي؟ هل كنت أنت، يا خسيس؟

عَبَرَ بيثنتي من بُعد إلى آخر بوجه مرتعب وأدرك مرتبكا أن حبكة مجعدة ومظلمة وطائشة كانت تبزغ من قشرة الواقع.

- ماذا تقولين عن أخيك؟ أنا لم ألمس شعرة منه في حياتي.

ركض لغرفة صهره، وبالفعل كان ميتا فوق سريره وبتعبير مستاء كما كانت عادته، وبوجه أخضر قليلا. حاول أن يزيل سوء الفهم، لكن حين تمكن من إيقاف زوجته عن الصراخ وأن تجلس على الأريكة لتسمعه، كانت الشرطة قد وصلت وقبضت عليه.

- الحقيقة أن ميّتي ليس هذا، بل مَن بالمنور الداخلي. دافع عن نفسه بوهن بينما كانوا يلبسونه القيود.

تطلّع رجال الشرطة من نافذة الحمّام ولم يروا شيئا.

- ما من أحد هناك بالأسفل.

- الحكاية أنه غير مرئي. دلل بحيطة ما.

بعد هذه اللحظة، سار كل شيء بسرعة دهليزية. أمر القاضي بتشريح الجثة، واكتشفوا في الشعر والأظافر كمية غير طبيعية من الزرنيخ المشتق، بحسب الخبراء، من مبيد حشري منزلي. واستنبطوا أن عملية التسمم كانت بطيئة حتى لا تخلف وراءها علامات مميزة للتسميم، وبالتالي لا تخلف ما يشي بها، وبالرجوع إلى الملف الطبي للضحية، ستمر الجريمة من دون لفت للنظر.

في جلسته الأولى، أصر بيثنتي أمام القاضي على مسؤوليته عن جريمة قتل صديقه غير المرئي فحسب.

- ناقد عنيد -أضاف- كان دائما ما يشكك في موهبتي الأدبية.

بالوصول إلى هذه النقطة، أمر القاضي بأن يُعرض على فريق طبي نفسي، ما بدا للمحامي أفقا يمنح الأمل في دفاعه.

- ما يتحتم عليك فعله -نصح المحامي بيثنتي- هو أن تتكلم طوال الوقت مع صديقك غير المرئي وتلح على وحشيته عند ساعة الحكم على كتاباتك.

- لا أفهم -أجاب أولجادو- حين كنت صغيرا كانوا يؤكدون لي أن الأفضل حتى لا أواجه مشكلات مع السلطات هو إنكار وجوده، والآن تطلب مني أنت أن أفعل العكس. لا أعرف ماذا أفعل، حقيقة.

- افعل ما أقوله لك وكل شيء سيسير على ما يرام. لو حصلنا على شهادة معاملة أطفال، فسيحبسونك في مستشفى أمراض نفسية، والخروج من هناك أسهل من السجن. وفي وقت أقل.

- لكن لماذا وأنا صغير كان يؤذيني أن أبدو مجنونا والآن، وأنا كبير، أستفيد من ذلك؟

قرر بيثنتي أن يطيعه، وفي مقابلته مع الأطباء النفسيين أكد وجود الصديق غير المرئي، لكنه فعل ذلك بقليل من الاقتناع، متذكرا الفوائد التي حظي بها في المدرسة عند إنكاره له. وكانت النتيجة تقريرا جاء فيه تقريبا أنه شخصية ذات ميول للكذب، رغم أنه واعٍ لتصرفاته، وبالتالي حكموا عليه بعشرين سنة ويوما واحدا، وطلب المحامي الاستئناف كطلب روتيني، لكن من دون حماس.

وبعد تنفيذ الحكم، زارته زوجته في السجن ومعها أوراق الطلاق، وأطلعته على أنها ستذهب للعيش في المحيط الهادي حتى تكون أكثر قربا من السلحفاة الجلدية. وقّع بيثنتي على الأوراق بوداعة وتمنى لزوجته حياة أفضل وللسلاحف بشكل عام. ثم، حين بقي بمفرده في صمت الزنزانة وتأمّل بدهشة عكوسات حياته، انتبه لأول مرة إلى أن من وضع السم التدريجي كان زوجته («كم أنا أحمق!» قال لنفسه بقليل من الحسرة). ولم تكن مصادفة موت الأخ مع اغتيال صديقه غير المرئي إلا مساعدة لها لتتخلى في الوقت نفسه عن الاثنين.

وأكثر من الحقد، شعر بإعجاب لزوجته، وبإصرارها على الدفاع عما يمنح لوجودها معنى، حتى لو كان مجرد سلحفاة بدلا من رواية. أما عمله العظيم، فقد أدرك أن كتابته كان من الممكن أن تكتسب معنى إن كانت ضد صديقه غير المرئي، أو ربما في صالحه. وبمجرد اختفائه للأبد، كان من الممكن التخلي عن هذه المهمة. لعله وجد في ذلك علاجه. السيئ في الأمر أن ثمن الصحة

كان عشرين سنة ويوما واحدا.

- يا لها من حياة.

قال دون اهتمام لكن بصوت مرتفع، بينما يتقلّب على المرتبة ليصالح النوم في تلك الليلة.

شروع في علاج
UN ALTO EN LA TERAPIA

حلمتُ بأني كنت آكل ألبسة نسائية بالشوكة والسكين. وكانت نيئة وملفوفة بالألمونيوم، ولم تكن تحتاج إلا إلى دقيقتين في الميكروويف. كانت ألبسة بيضاء، مخرّمة، وكانت تذوب على اللسان. كانت كل علبة تحتوي على ثلاثة ألبسة، لباس لكل وجبة، وكل واحد يتمتع بخصائص للريجيم والتخسيس. كانت ألبسة تباع في محلات المستلزمات الطبية، أو محلات العطارة، حتى نقول ذلك سريعا. حكيتُ حلمي للمحلل النفسي، وكان في تلك الفترة رجلا نحيفا، وعصبيا جدا. وسألني: من تظن صاحبة هذه الألبسة؟

- كانت لمجهولة -قلت- وكانت مغلفة بالألمونيوم.

- هل تعتقد حقيقة أنها كانت لمجهولة؟

- على الأقل لم أرها أبدا.

سكتَ، لكنه كان صمتا يقول لا تعاملني كساذج. والحقيقة أني لم أستطع التوقف عن التفكير في مذاق الألبسة. أعتقد أني لم أحلم أبدا حلما بهذه الكثافة، ولا انصهرتُ في حلم متعة الجنس مع متعة الطعام بهذا الشكل من قبل. وسألت نفسي

إن كان هناك ملابس داخلية نسائية يمكن أكلها، وعند خروجي من العيادة مررت بمحل عطارة. لكنني لم أتجرأ على السؤال عن الألبسة، غير أني فحصت كل منتجات المحل، منتجا منتجا، وأستطيع أن أؤكد أنه لا وجود لها. وفي المساء هاتفتُ صديقة أثق فيها جدا، وسألتها إن كانت تعرف هذه الألبسة، وقالت لي لا. وبحسب ما رأيتُ، كان ثمة ألبسة من الورق، لكن لا يمكن أكلها.

في اليوم التالي توجهتُ إلى الصيدلية وطلبتُ منهم علبة كلينكس وعلبة أخرى من الألبسة الورقية.

- الحكاية أني مصاب بنزلة برد. قلت حتى أقول شيئا.

وبمجرد وصولي إلى البيت، فتحتُ العلبة، وبالفعل كانت ألبسة من ورق، غير أنها مختلفة عن ألبسة الحلم التي كانت تبدو عضوية مع أنها اصطناعية. والألبسة الورقية، لو أن المرء أصرّ، فقد يمكن أكلها، لكن لن يشعر بالعطش لأنها سلولوزية. حينئذ تخلصت منها ولم أعد أحلم بالألبسة الأخرى، رغم إلحاح المحلل النفسي.

- لو أردتَ أن تعرف أكثر عن هذه الألبسة، فعليك أن تحلم بها بنفسك -قلت له- فأنا نادرا ما أكرر نفس الحلم.

وذات يوم، بعد أن قطعت شوطا كبيرا في الجلسات، تعرفت على فتاة وجاءت إلى منزلي. ثم نامت سريعا ونهضتُ أنا ودخلتُ الحمّام. حينئذ شاهدتُ لباسها على الأرض بجانب السرير، ولن تصدق حضرتك، قلت للمحلل النفسي، كان لباس الحلم. كانت الفتاة تنام بعمق، وهكذا أخذت اللباس للمطبخ ووضعته في طبق، ومن دون أن أسخّنه، أكلته بالشوكة والسكين.

كان ملمسه ناعما، وكان مذاقه مذاق فقاعة كثيرا ما أسَرني في ألبسة الحلم.

- هل أكلتَ اللباس فعلا؟ سأل المحلل النفسي.

قلت له: نعم، لأني لا أكذب في الجلسة أبدا، وأعتقد أن الكذب أحد طرق المقاومة، رغم أنه بدا لي أن في سؤاله نبرة رقابة، أو حسدا. وبالإضافة لذلك كان جيد المذاق. ثم عدتُ إلى غرفة النوم ورقدتُ بجوار الفتاة ثم غططْتُ في النوم. وحين استيقظت، رأيتها تروح وتجيء من جانب لآخر وهي تبحث عن لباسها.

- لقد أكلته. قلت لها.

- لا يهم -أجابت- سأعطيك ألبسة أخرى.

الحقيقة أني لم أرها مرة أخرى. الشيء الوحيد الذي تبقى لي منها رقم تليفون اكتشفتُ أنه مزيف. ألمح المحلل النفسي إلى احتمالية أن أكون قد حلمت أيضا بذاك اللقاء والحق أني ارتبتُ، رغم أن اللباس الحقيقي كان له ملمس وحجم من الصعب جدا التباسه بألبسة الحلم.

- لكنك جئتَ إلى هنا لأن الأشياء تلتبس عليك. قال لي بمكر.

- هذه حقيقة -وافقت- لكن فيما يخص الألبسة كنت دائما بقدم راسخة في الأرض.

- هل تتذكر الألبسة الأولى التي رأيتها في حياتك؟ سأل.

- الألبسة الأولى رأيتها في الحلم.

- لكنك قلتَ لي للتو إنه فيما يخص الألبسة كنتَ دائما بقدم راسخة في الأرض.

- أرض الألبسة هي الأحلام. دللت له.

التزم المحلل النفسي بصمت حقود. وأنا تصنعت كأني سأعطس وأدخلت يدي في جيبي لأخرج منديلا، لكن بدلا من خروج كلينكس خرج لباس نسائي. ارتمى المحلل النفسي فوقي، وسحبه مني، ثم أدخله في فمه وبدأ يلوكه بيأس. لقد اعتقد المسكين أنه لباس الحلم، لكنه كان لباسا ورقيا احتفظت به لأخدعه. حينها فحسب استطعنا أن نواصل علاجي من دون توقف.

تعاقب الأيام
ALTERNANCIA

هاتفتُ وكالة للزواج يوم الإثنين فأعطوني ميعادا يوم الأربعاء، وبدا لي ذلك فألا حسنا، إذ أفعل الأشياء في أيام تعاقبية: الإثنين، الأربعاء، الجمعة. أو الثلاثاء، الخميس، السبت. اضطررت لملء استمارة كانت تحتوي على أسئلة حميمية يجرمها الدستور، لكن آنسة شديدة اللطف أكدت لي ضرورة الاطلاع عليها.

- تخيل يا سيدي أنك نصراني ووفّرنا لك زوجة مسلمة. أو أنك نباتي وعرضنا عليك زوجة تأكل اللحم.. سيكون التوافق حينئذ مستحيلا.

مسلمة وتأكل اللحم، فكرت بداخلي وشعرت بأني ضحية لإثارة حسية غير معتادة.

- الآن، بفضل الاختبار الجيني، يستطيعون صناعة فئران بآذان في الظهر. قلتُ لأغير الموضوع.

- من فضلك، لا علاقة لهذا بالموضوع. قالت الآنسة اللطيفة.

انسحبتُ محرجا لصالة مجاورة واستعددت لملء الاستمارة، وكانت كبيرة جدا. ثم راجعتها وانتبهت إلى أني خلقت فردا مختلفا تماما عني. كتبتُ أني أحب السينما والأدب والمطبخ الباسكي،

بالإضافة لكوني متدينا جدا وأمقت التلفزيون والتبغ. لو أن الآنسة انتبهت إلى أني لم أقل حقيقة واحدة، لحدثت مشكلة، لكنها لم تنظر حتى إليها. وبحسب ما أرى، يتكفل الكمبيوتر بهذا إذ يوفّق البيانات ويختار المسلمين للمسلمات، وآكلي النباتات مع نباتيات بروكسيل.

حين خرجت إلى الشارع شعرت بنفسي إنسانا جديدا. رأيت كنيسة فدخلت وصليت الربيّة مرتين والسلام عليكِ يا مريم ثلاث مرات. ثم اشتريت عدة روايات كلاسيكية تصفحتها في المطعم الباسكي الذي يقع بجانب البرلمان. وأنا آكل الطبق الأول سألت نفسي إن لم أكن أنا نفسي من بلباو[23]، لكن الجرسون أكد لي أني أتحدث الإسبانية بلا لكنة. ربما جئت إلى مدريد وأنا صغير، مثل صديق في طفولتي، أيضا متقاعد وأرمل، وُلِد في «رينتيريا» ثم قضى كل حياته هنا. لكن بدا لي أن التنوع الأكبر أن أكون من مكان آخر، رغم أني في البداية لم أقرر بسهولة أي مكان. ثم خطرت لي فكرة أن أكون من كولومبيا، شيء عبثي أعرف ذلك، لكني فكرت أن أي امرأة رصينة سيجذبها جدا رجل كولومبي ناضج يعيش بمدريد ويهوى المطبخ الباسكي. كل ذلك لو غابت الميول الدينية وهواية الأدب الكلاسيكي.

وصلتُ إلى البيت في حالة من تفاؤل جديد تماما بالنسبة لي. وأول ما فعلته كان إخفاء التلفزيون في خزانة ملابس. لو كان بيدي لألقيت به في القمامة، لكني فكرت أني ربما أعود إلى هويتي السابقة ليلا وأحتاج إلى التواصل. قضيت أمسية مذهلة، من دون التهاب في المعدة ولا ارتجاع، وفي الحادية عشرة تقريبا دسست

(23) بلباو: عاصمة إقليم الباسك شمال إسبانيا. ورينتيريا بلدة تقع بنفس الإقليم (م).

نفسي في السرير كرجل كولومبي متخفٍ، من دون أن أنسى تأدية عدة صلوات. وبين الملاءات، قرأت أحد الكتب التي اشتريتها من الوكالة وغططتُ في النوم من دون حاجة إلى منوم.

في اليوم التالي، وكان يوم الخميس، استعدت شخصيتي السابقة ولا أعرف كم ساعة بقيت مدخنا، من دون توقف، وأعاني من خيالات حسية لا يمكن تحملها مع سيدات يأكلن اللحم. وعند عودتي إلى البيت، عبرت من أمام كنيسة وبصقت بدلا من أن أشير بإشارة الصليب. ثم شاهدت التلفزيون حتى قام بدور المهدئ وغططت في النوم على الأريكة. ويوم الجمعة، حين عدت لشخصيتي الكولومبية والمثقفة، أدركت أني كنت مدينا بأن أكون شيئا أيام الإثنين والأربعاء والجمعة، فيما أكون شيئا آخر أيام الثلاثاء والخميس والسبت. وكل شيء في حياتي كان يعمل بطريقة الأيام المتعاقبة، وأعتقد أني بلغت عمرا لا يمكن معه التغيير. أما أيام الأحد، الخارجة عن هذا النظام التعاقبي، فلم تكن تُعد: كنت أقضيها في نوع من البرزخ، فلم تكن الأشياء لا لحما ولا سمكا.

وفي الأسبوع التالي هاتفوني من الوكالة ليقدموا لي سيدة تناسب ذوقي الكولومبي، لكنه كان يوم الثلاثاء، فقلت لهم إنها يجب أن تكون مسلمة وآكلة للحم أو فلينسوا الموضوع. ويوم الأربعاء هاتفتهم أنا، غير أن الآنسة طلبت مني ألا أظهر مرة أخرى في الوكالة، وأغلقتْ السماعة.

اللغز والعبث
EL MISTERIO Y EL ABSURDO

كانت تثبّت برنامجا على الكمبيوتر عندما دخل هو الغرفة واعترف أنه قد تحول.

- تحولتَ إلى ماذا؟ أو من ماذا؟ سألتِ المرأة وهي تسحب قرص سي دي وتدخل آخر في محرك الأقراص المرنة، كما نفعل حين نقوم بعمل يدوي يتطلب تركيزا كبيرا.

- إلى الكاثوليكية.

ومن دون التوقف عن الحديث مع زوجها، كانت تواصل حديثا مثيرا مع الكمبيوتر، فيما كانت فأرة الكمبيوتر تتحرك من جانب إلى جانب، بينما تنصت بقلق إلى صخب الأحشاء المنبثق من القرص الصلب. وكانت كل خطوة تتم تبدو لها معجزة من الطبيعة أكثر منها معجزة فنية.

- وبداية من الآن ستنام معي من دون رغبة؟ قالت مازحة.

ترك الغرفة بورع، ولم يلتقيا حتى ساعة العشاء. كانت المرأة مستاءة لأنها في النهاية لم تستطع تحميل البرنامج لمشكلة في مساحة الهارد ديسك.

- من الأسهل أن تثبّت الكاثوليكية بعقل رجل من أن تثبّت

برنامج الأوفيس بهارد ديسك للابتوب. الكمبيوترات أكثر رقة منا. وبالفعل، أنت كنت شيوعيا، كنت يساريا ديمقراطيا، كنت بوذيا، كنت لاعب جمباز وسينمائيا، والآن أنت كاثوليكي. لو حاولتُ أن أحمّل كل هذه البرامج على الكمبيوتر فإنه سيتوقف عن العمل بسبب الهارد ديسك. أنت بالتأكيد لديك مشكلة في الذاكرة. اذهب للطبيب لترى ماذا سيقول لك.

أكَلَ الديك المقلي والسلق المحمّر بتواضع، من دون أن يرد على استفزازاتها، ثم انصرف بعد العشاء إلى غرفة النوم بينما كانت زوجته تشغّل التلفزيون، وتختار أحد البرامج السيئة حيث ترتدي مقدمته صليبا في رقبتها. لم تكن تعرف إن كانت مستاءة من زوجها أم من الكمبيوتر. ثم بعد قليل نامت، لكن أيقظها بعد خمس أو عشر دقائق منبه سيارة. أطلت من الشرفة ورأت رجلا عصبيا كانت سيارته محجوزة بسيارة أخرى واقفة صفا ثانيا. وكانت زوجته قد جاءها المخاض وما من طريقة للعثور على سيارة الأجرة بالتليفون، إذ كانوا ينقلون مباراة كرة قدم مهمة بالتلفزيون. حينئذ توجهت هي إلى غرفة النوم ووجدت الكاثوليكي نائما بساقين منفرجتين، كأنه لا يعاني من أزمة ضمير. وبعد أن تعرت، ألقت بنفسها جانبه بعنف، فاستيقظ مفزوعا.

- إذن ستكون الآن معارضا للإجهاض؟ سألته.

- يمكن أن تتوقعي أن نعم. قال وهو يفرك عينيه.

- ومع عقوبة الإعدام.

- لا تحاولي أن تربكيني. أن أتحول لا يعني ألا يكون لدي تناقضاتي، إنما فضّلت اللغز على العبث.

- يا إلهي، يا لها من عبارة. مَن قالها؟

- أظنها عبارة مطران.

- نعـم. تقصـد أني الآن أبـدو لـك عبثيـة؟ لأن الأمـر لـو كان كذلـك، فلنتطلّـق الأسـبوع المقبـل.

- أنا لم أقل لك إننا يجب أن نتطلّق.

- لكنـك قلـتَ لي إني عبثيـة، ولـن تحـب أن تعيـش مـع امـرأة عبثيـة إن كان يمكنــك أن تعيــش مــع امــرأة غامضــة. لم يخطــر لي قــط أن أفكـر في أن الكاثوليكيـات يتمتعـن بلغـز، كـما تـرى أنـت. كأن هاجـس التطهـير لا يكفيهـن.

ولأنه لم يجبها، نهضت من السرير بعنف وصاحت:

- أتفهــم مــا أقولــه؟ إن عــدتَ أنــت إلى الديــن، فســأعود أنــا إلى الحشــيش.

وخرجــتْ مــن الغرفــة لتعــود بعــد قليــل بســيجارة حشــيش مشـتعلة مررتهـا لـه بعـد أن سـحبت نفسـين أو ثلاثـة. أخذهـا الرجـل مـترددا قليـلا وقـال لهـا بعـد أن بـدأ تأثيرهـا:

- ولم أتحـول إلى الآن إلى مسـلم ولا مورمـوني ولا كويكـر. الحيـاة مثـيرة للإعجـاب. كان أبي يقـول قبـل أن نهجـر الضواحـي: في مدريـد يمكـن للرجـل أن يكـون مـا يحـب، مـا يحـب. والآن أريـد أن أكـون كاثوليكيـا.

- يجـب أن تكـرس بعـض الوقـت حتـى تدمـن ألعـاب الفيديـو. الكمبيوتـر أيضـا مثـير للشـغف.

- سنرى كيف تسير الأمور. قال وهو يدير ظهره لينام.

شغّلت الراديـو وضبطتـه عـلى برنامـج مخصـص لعبـادة الشـيطان وانصتـت إليـه وهـي نائمـة عـلى ظهرهـا وتفكـر في مشـكلتها مـع الكمبيوتـر. ولـن يـرن المنبـه حتـى السـابعة.

الفراغات بين الأصابع
EL ESPACIO INTERDIGITAL

رن التليفـون وكانـت فتـاة الاسـتطلاعات. عـادة مـا تتصـل كل خميـس بعـد الغـداء، لأنهـا تعـرف عـاداتي جيـدا وفي أي سـاعة أكـون في البيـت وأي سـاعة أخـرج. سـألتني كـم مـرة أغيّر جـواربي في الأسـبوع وإن كنـت أفضّلهـا مـن القطـن أم مـن الأليـاف الصناعيـة. أتعـرّف عـلى صوتهـا في التـو. وأحيانـا أخـرى تريـد أن تعـرف إلى من سأصوّت وإن كنـت أفضّـل المحـلات الكبـيرة عـلى المحـلات الصغيرة. بشـكل عمـلي، قلـت لهـا كل شيء عنـي: أي برامـج تلفزيونيـة أشـاهد، كـم مسـاحة بيتـي بالمـتر مربـع، أي نـوع مـن الكولونيـا أحـب أكـثر، وأني منحـاز للفلـور في معجـون الأسـنان. واسـتطلاع وراء اسـتطلاع رحـت أحـكي لهـا حيـاتي مـن دون أن أعـرف شـيئا عنهـا. لا أقـول إني لم أكـذب عليهـا قـط لأبـدو أفضـل مـما أكـون، لكنهـا بشـكل أسـاسي تعـرف شـخصيتي. لكـن موضـوع الجـوارب بـدا لي مبالغـا فيـه.

- مع الوقت تسألين عن أشياء أكثر حميمية. قلت لها.

- لسـت أنـا مـن يعـد الاسـتطلاعات، لكنـي أعيـش منهـا، افهمنـي. أجابـت.

- لا، لا أفهمك، لكني أحب أيضا أن أعرف بعض التفاصيل عن ملابسك الداخلية.

- إذن، فلتسأل كما تحب.

سألتُ بخجل عن ثلاثة أو أربعة أشياء، ولم أواصل أسئلتي لأنها بدت لي غير شغوفة في أجوبتها. كانت تجيب بطريقة باردة، غير جذابة، كأنها تتحدث عن شيء آخر، ما سبّب لي استياء غير محدود. وفي النهاية قلت لها إني أغيّر الجوارب مرتين في اليوم لأبدو أكثر نظافة مما أنا عليه، لكنها فسرتْ ذلك بأني كثير العرق ونصحتني باستخدام مسحوق يوضع بين الأصابع. هكذا قالت: «بين الأصابع»، وأثارتني، ولن تعرف لماذا. على أي حال، لم يرق لي أن أعطيها انطباعا بأني شخص مختنق؛ أعتقد أني أعرق بشكل عادي، لا أكثر ولا أقل. أما بخصوص تفضيلي للقطن أكثر أم الألياف الصناعية، فأنا لا أعرف ذلك عن يقين، هكذا قلت لها الألياف، وهي ما يعلنون عنها كثيرا الآن رغم أني أعتقد أنها مفيدة للهضم أكثر منها للأقدام.

شكرتني الفتاة، كالعادة، ثم مر وقت طويل من دون أن تهاتفني. فبدأت أقلق، لا أعرف لماذا، وفي اليوم التالي، كأنها قد قرأت أفكاري، رن تليفوني بعد الغداء وكانت هي. في هذه المرة لم ترد أن تقوم بأي استطلاع؛ كانوا قد طردوها من العمل أو لم يجددوا لها العقد اللعين، وكانت في الشارع، المسكينة. وبحسب ما رأيت، لم يكن لها أحد في مدريد، وسألتني إن كان يمكن أن تنزل في بيتي لعدة أيام.

- فرغم كل شيء أنت تعيش وحيدا ولديك بيت كبير وبحمّامين.

أضافت.

كان حقيقة أني أعيش وحيدا، لكن في المسألة الأخرى كنت قد كذبتُ عليها. والحقيقة أن لديّ شقة بغرفة نوم واحدة وصالة ومطبخ مستقل، وحمّام واحد، بالطبع. كنت محرجا من أن أعترف لها بذلك، لكنها بدت حذرة جدا.

- بالإضافة لذلك، ليس لديّ ميكروويف ولا غسالة أطباق. أضفت.

قالت إنها افترضت ذلك (فلا أحد يقول الحقيقة في الاستطلاعات التليفونية)، لكن ذلك لا يهمها. يمكنها أنها تنام على الكنبة ولن تكون ثقيلة.

بدا لي عبثيا أن أقول لها «نعم» ستكون ثقيلة، لكن ثمة حميمية نشأت بيننا أثناء الاستطلاعات التليفونية، لحد أن ذلك قد يشبه إنكار استضافة قريب يمر بمدريد في طريقه لمكان آخر. مع ذلك، العلاقة بالصوت لا تساوي صداقة بجسد كامل. الصوت أكثر شيء مجرد نمتلكه، الأكثر وهنا، ربما أقل ما فينا. وأنا كنت أحب صوتها، لكن لم يكن ممكنا أن أقول لها أن تترك صوتها هنا وترحل ببقية جسدها لمكان آخر، وبالتالي أعطيتها عنواني وجلست أنتظرها.

بعد برهة رن جرس الباب ودخلت فتاة قصيرة جدا، وشابة جدا. لم أكن قد تخيلتها هكذا، لكنها أعجبتني أكثر مما في خيالي؛ شيء غريب، لأن الطبيعي أن يحدث العكس. دعوتها إلى الجلوس، ولأن في رأسي وصفا لملابسها الداخلية، تخيلتها شبه عارية، لكنها انتبهتْ وقالت إنها أيضا كذبت عليّ في ذلك: أرتدي عادة ألبسة قطنية لأني حساسة من الأنسجة الصناعية. ثم أخرجتْ الكتب وبدأتْ تذاكر. كان ذلك منذ عام ولم ترحل. السيئ في الأمر أن

فتـاة مـن وكالـة اسـتطلاعات أخـرى بـدأت تهاتفنـي، وعُـدتُ لأقـول لهـا إني أعيـش بمفـردي وإن لـديّ حمّامـين. مسـألة الحمّامـين كذبـة، لكـن المسـألة الأخـرى، رغـم وجـود الطالبـة، لا تـزال حقيقـة.

اختطاف طائرة
EL SECUESTRO AÉREO

لم تكـن الطائـرة قـد بلغـت ارتفـاع الطـيران حـين نهـض شـاب يمسك بيـده اليمنـى بجهـاز وأكـد بـصراخ أنـه موصـل بقنبلـة ملتصقـة بفخـذه بحـزام لاصـق.

- مـن يحكـم هنـا بدايـة مـن الآن هـو أنـا. قـال بشـفته العليـا وبجبهـة تلمـع مـن العـرق.

ولاحـظ الـركاب والمضيفـات أنـه ليس إلا ريمـوت كنـترول لتلفزيون، لكـن أحـدا لم يفعـل شـيئا لفرملـة الصبـي. كانـت الثامنـة صباحـا وكانوا بالـكاد قـد ودعـوا مدريـد الممطـرة والفوضويـة والعنيفـة. ولم تكـن برشـلونة، التـي تنتظرهـم عـلى الجانـب الآخـر مـن الجـسر الجـوي، أحسـن حـالا بحسـب الراديـو. لقـد امـتنّ سرا كثـير مـن المسـافرين لأن حـادث الاختطـاف المزيـف أخرجهـم مـن الروتـين المعتـاد. صـوّب الشـاب الريمـوت ناحيـة المضيفـة وأمرهـا بـأن تقـوده إلى كابينـة الطائـرة.

- ماذا يحدث؟ سأل القائد عندما شم عطر المضيفة وراءه.

- إنـه اختطـاف. صـاح الصبـي موجهـا الريمـوت لـكل مـا كان يتحـرك.

- يقـول إن معـه قنبلـة ملفوفـة عـلى فخـذه. أطلعتـه المضيفـة بحياديـة.

تأمـل الكابـتن الريمـوت كنـترول بنظـرة متحفـزة وسـأل طاقـم الطائـرة:

- هـل تريـدون أن نظهـر في نـشرة الأخبـار أم تفضّلـون أن أضربـه لكمـة وأعيـده إلى كرسـيه؟

مرت لحظات من التوتر أنهاها مساعد الطيار بانتهازية:

- أنا أفضّل الظهور في نشرة الأخبار.

بـدأ الكابـتن يحلّـق فـوق مدريـد وأطلـع بـرج المراقبـة عـلى أنهـم مخطوفـون مـن جانـب فـرد يهددهـم بتفجـير قنبلـة ملتصقـة بفخـذه إن لم يتّبعـوا تعليماتـه. ومـن الـبرج سـألوه مـاذا يريـد؟

- ماذا تريد؟ قال الكابتن ملتفتا إلى الشاب.

- لا أعرف -أجاب وهو يتعرق بغزارة- الحكاية أن لديّ كل شيء.

- كيف لديك كل شيء؟

- إن لديّ كل شيء، هذا ما يقوله معلميّ.

- ألا ترغـب في شيء فعـلا، حتـى ولـو لم يكـن شيء مبـاشر لـك بـل شيء يمنـح السـعادة لأي أحـد؟

اقتربـت المضيفـة مـن الصبـي وجففـت عـرق جبهتـه، كممرضـة تجفـف عـرق جـرّاح. أثنـاء ذلـك، توجـه الكابـتن بالميكروفـون إلى الـركاب وأعلـن أنـه رغـم كـون الطائـرة مخطوفـة، إلا أن المفاوضـات مـع الإرهـابي تتطـور بشـكل جيـد نسـبيا.

- أتمنـى أن أبلّغكـم بأخبـار جيـدة بعـد قليـل -أضـاف- لا تفقـدوا هدوءكـم وإن أردتـم تنـاول عصـير أو قهـوة فاطلبـوا ذلـك مـن طاقـم الخدمـة.

مـرت دقائـق مـن الارتيـاب. كان الصبـي المجنـون يبـدو، في ذات الوقـت، محبطـا ومرعوبـا مـن الموقـف بشـكل عـام. ربمـا لم يكـن يتوقّع كل هـذا التفاهـم. ثـم أخـرج مسـاعد الطيـار مشـطا مـن مـكان مـا ومشّـط بـه شـعره، وهـو يفكـر في الصـور. وأشـعل الكابـتن سـيجارة بإيمـاءة صبر.

- ألا تريد أن نتوجه إلى كوبا؟ هذا هو الطبيعي.

- لا -قـال الصبـي وهـو يتجـاوز دهشـته- مـا يتمنـاه أبـواي أن أفـوز بجائـزة نوبـل في الكيميـاء لأن لديهـما صيدلية في «فوينـكارّال»[24].

اتصـل الكابـتن بالسـلطات، التـي بدورهـا اتصلـت بالسـويديين. وبعـد مـداولات لا ينقصهـا التوتـر أخـبروا الكابـتن بأنـه، بمـا أنـه إرهـابي، يمكـن أن يمنحـوه فقـط جائـزة نوبـل في السـلام.

- نوبـل في السـلام جيـدة أيضـا -قـال الصبـي عقـب لحظـات مـن الـتردد- اهبـط، سأسـلم نفسـي.

بـدأ الكابـتن في منـاورة الاقـتراب مـن مطـار باراخـاس[25]، بينـما الـركاب بـدؤوا في تشـغيل الموبايـالات ليتواصلـوا مـع إذاعـات الراديـو وحكايـة روايتهـم مـن الحادثـة. وعندمـا فتحـوا بـاب الطائـرة، صرخـت الشرطـة أن يخـرج الخاطـف بيديـن مرفوعتـين. فـترك الصبـي جهـاز الريمـوت كنـترول مـن يـده اليمنـى وهبـط درجـات السـلم وعندمـا كان عـلى بُعـد مـتر مـن الأرض، وهـم عـلى وشـك أن ينقضّـوا عليـه، ضغـط عـلى زر وغـيّر القنـاة.

---

(24) حي معروف في العاصمة مدريد.

(25) المطار الدولي في إسبانيا.

عصفور كناري
EL CANARIO

لم يكن قط في حساباتي أن أصير أرملة، ولا خطر ببالي. عموما، فأغلب الأشياء التي تحدث لنا تتجلى في خاطر شخص آخر، وليس في خاطرنا. كان مفاجأة، في النهاية، أن يموت أنطونيو قبلي، وبالتالي، عند العودة من المقابر وحين وجدت نفسي في البيت الصامت، كله لي الآن، لم أعرف هل أسعد بذلك أم أشعر بالحزن. وبالفعل، عُدتُ إلى الشارع وبدأت أسير بلا وجهة، في محاولة لتنظيم أفكاري ومشاعري، غير أني لم أنجح كثيرا في ذلك، وهذه حقيقة. لم أنتبه إلى أني كنت أكلم نفسي حتى رفعت رأسي عند إشارة مرور ورأيت الناس ينظرون إليّ بشفقة، وربما بخوف.

بخجل، عبرتُ الشارع واختبأتُ في أول محل جاء في طريقي؛ محل صغير للطيور يقع في شارع كوستاريكا (بيتي يقع في شارع لوبيث دي أويوس[26]، ولم أنتبه إلى أني مشيتُ كثيرا). نظرتْ إليّ الطيور بحيادية عندما دخلتُ، وفي الحال عادت إلى عزلتها. وما التفتَ إليّ صاحب المحل الذي كان يشاهد مباراة كرة قدم في آخر المحل. قررتُ أن أتجول بين الأقفاص حتى أسترد نفَسي حين

---

(26) خوان لوبيث دي أويوس: عالم إسباني متخصص بعلم الاجتماع.

شدا عصفور كناري بطريقة ملفتة، ونظر إليّ بإلحاح بعينه اليمنى. أوحى لي أنه يحاول أن يقول لي شيئا أكثر من مجرد الزقزقة. اقتربتُ منه وانتبهتُ في الحال إلى أنه زوجي. لم أتخيل قط إمكانية وجوده هنا، لكن الحقيقة أن أنطونيو كان هناك، وكان يتوجه إليّ بهذه النبرة القاسية التي كانت تهرب منه قبل نشرة الأخبار وبعد الإفطار. فاشتريته، بالطبع، ماذا سأفعل. كان سعره خمسين يورو دفعتها ببطاقة الفيزا، فأثار زوبعة في القفص لأنه اعتاد أن يدفع كل شيء بالكاش إذ يخاف من الدفع الإلكتروني.

- نعم إنه يشدو، نعم. قال صاحب المحل ليتباهى بنوعه بينما كان يغطغط.

وحين وصلنا إلى البيت، علّقت القفص فوق الكنبة وشغّلت التلفزيون، واشتقت لشعور الحرية الذي انتابني عند العودة من المقابر. أتذكر أني في تلك اللحظة هاتفتني ابنتي (ابنة أختي، إذ لم أنجب قط) لتسألني كيف حالي، فبدأ العصفور في الزقزقة والزمجرة كما كان يفعل وهو حي؛ ما كان يراني أتحدث في التليفون إلا ويسألني في الحال، وبصراخ عادة، مع من أتكلم.

- ما هذه الضوضاء؟ سألت ابنتي.

وكنت على وشك أن أقول لها إنه زوجي وقد عاد من العالم الآخر، لكنني أدركت أني لو قلت ذلك ستسيء فهمي، فكذبت عليها:

- لا شيء، إنه عصفور قد اشتريته.

وعندما عدت إلى الكنبة، ألح أنطونيو ليعرف مَن المتصل فقلت له لا دخل لك ودعني أشاهد التلفزيون في هدوء. بعيدا عن ذلك، بدأ في الزقزقة أكثر مما سبق، وكان يصدر ضوضاء

دفعتني لأسدل فوقه قماشة سوداء. وفي اليوم التالي، عند فتحي القفص لأضع له طعاما، نقرني، فقلت له حينئذ:

- انظر، لقد انتهى كل ذلك. لن أتسامح معك ولا حتى في فعل عدواني صغير. إن أردتَ أن تعيش في هذا البيت، حاول أن تحسن معاملتي.

ثم شرع في الزقزقة بعنف، وأنا بحركة مباغتة أدخلتُ يدي في القفص، وخنقته مرة واحدة. ثم حملته إلى الحمّام ورميته في التواليت وشددت السيفون وراءه. ثم جلست لأشاهد التلفزيون من دون أي تأنيب ضمير، رغم أنها كانت ساعة تهوية البيت وترتيب السرير.

وبعد أيام قليلة، مررت من جديد على محل للطيور يقع هذه المرة في شارع خواكين كوستا[27]، فدخلت لأتجول فضولا. وفجأة، لفت انتباهي صراخ هامستر اكتشفت أنه أنطونيو مجددا. ومع الوقت كان يزيد استسلامه. ولأنه كان أرخص من الكناري ولأن لديّ القفص بالفعل، حملته معي إلى البيت، لكني بعد أيام قليلة اضطررت لخنقه أيضا لأنه بات عنيدا. ولا أفكر في التوقف عن خنقه حتى يتعقل، حتى لو كان في جسد كلب أسير، أو جسد نمر. في الواقع، هذا ما أتمناه، أن يظهر لي في شكل حيوان كبير حتى أشعر بأني أقتله حقيقة. فالحيوانات الصغيرة، رغم أن الجريمة تمنحني بعض الرضى، إلا أنها لا تشبعني.

(27) خواكين كوستا: كان دبلوماسيا وقاضيا واقتصاديا (1846-1911) ينتسب لحركة مهمة في إسبانيا.

حين لا يحدث شيء
CUANDO NO PASA NADA

انفجر الارتباك في قسم شرطة وسط المدينة في منتصف الصباح، حين هاتفهم صحافي بشكل روتيني ليعرف ماذا حدث، واضطروا ليقولوا له: لا شيء.

- كيف لا شيء؟ ألم يخطف رجل عقد امرأة أو حقيبتها؟ ألم يأتكم بلاغ بالتعدي ولا بالاغتصاب ولا بالقتل؟ ماذا تريدون أن تداروا؟

بعد المكالمة مع الصحافي، توتر مأمور القسم قليلا وهاتف زملاءه في الأقسام الأخرى... كان الهدوء مطلقا في كل الأقسام، وانتهى اليوم من دون أن يعكّر هذا السلام الغريب أي شيء أو أحد، الغرابة تتفاقم لو وضعنا في الاعتبار أن احتفالات الكريسماس ترفع درجات الحمى المعتادة التي يمكن ترجمتها بزيادة ملحوظة في البلاغات مقارنة بالأشهر التي تعتبر طبيعية.

وفي اليوم التالي، وبعد الغداء، ولأن الأمور استمرت على نفس الحال، اجتمع مندوب الحكومة مع مأموري أقسام المدينة وشدد عليهم:

- لا يمكن أن نستمر في إخبار الجرائد بأنه لا يحدث شيء. سيعتبروننا حمقى.

- لكن ما يحدث أنه لا شيء يحدث. أجابوه.

- إذن فليسرق أحد بنكا أو فليهاجم سفارة. لكن فلتفعلوا شيئا، فقبل رأسي سيطيّرون رؤوسكم.

عاد المأمورون إلى محل عملهم بأمل أن تكون قد حدثت أثناء غيابهم كارثة، لكنهم يجدون مساعديهم راقدين بجوار التليفونات الخرساء. اجتمع بعضهم بفريقه الموثوق به للتخطيط لارتكاب جنحة صغيرة، لكنهم لم يجدوا متطوعين، رغم الوعد بالتعاون معهم في ساعة قرار الترقيات المقبلة. وبعد أربعة أيام كان الوضع محبطا؛ كان يبدو أن الإجرام قد دخل في إضراب مفتوح والقوانين بدأت تكتسب درجة من اللا جدوى المقلقة. حينئذ، اجتمع الوزير بمعاونيه الأقرب ولم يلف ويدور:

- أريد من الآن وحتى الغد حادثتي قتل، وثلاث حوادث سرقة بالاقتحام، واغتصابين مع سبق الإرصاد والترصد. سيتوقف على ذلك مستقبل هذا الوزير وبالتالي خبز أولاده. وانظروا كيف ستفعلون.

واجتمع المأمورون مع رجالهم الأكثر صلابة وطلبوا منهم أن يتواصلوا مع المقربين منهم ليعرضوا عليهم أموالا لارتكاب جرائم.

- سنغدق على الجميع -وعدوا- ولن نطلب منهم شيئا من العالم الآخر؛ جريمتان، سبع سرقات أو ثمان لبنوك، ونصف دستة مخالفات مرورية. ومخدرات، مخدرات كثيرة، وأن تُهدّئ تجارة المخدرات المساهمين.

استخدم رجال الشرطة علاقاتهم المعتادة بميزانية منخفضة، لكن لا بالوعود ولا بالتهديدات تمكنوا من إعادة الناس إلى الإجرام. لقد غدت الجريمة كسولة.

وهكذا، بعد شهرين أو ثلاثة من هذه العطلة، وعندما بدأت

علامات الضعف تظهر على جهاز القانون، لغياب غذاء الجريمة، قرر وزير الداخلية الإعلان عن مسابقة للمجرمين، وقدّم خمسة آلاف وظيفة لم يتقدم إليها أحد لأن الراتب كان أقل من راتب رجل شرطة البلدية المستجد. وعقب مراجعة هذه الملحوظة وعمل ميزانية تؤمّن تقاعدا كريما حتى للمسجّلين خطرا الذين لم يدفعوا أبدا التأمين الاجتماعي، تمكنوا من تغطية بعض الوظائف التي تقدّم لها مجموعة من رجال الشرطة الشبان الضجرين من وضع الجهاز الداخلي. غير أنهم رفضوا ارتكاب جنح كبيرة ما لم يعترفوا لهم بضم خدمتهم الجديدة لخدمتهم القديمة ذات العقود المؤقتة والمتتالية في الشرطة. وعقب سلسلة من الاجتماعات مع ممثلي الداخلية، حيث سادت توترات معتادة في كل مفاوضات جماعية، بدأ الموظفون الجدد في انتهاك القانون بعنف، وتعزيزه في نفس الوقت. ومرت أيام قليلة، وغدت مدريد مدينة هادئة وآمنة للأبد. ثم حاول كثيرون ارتكاب جرائم من دون أن يتقدموا للمسابقة، لكن نقابة الجريمة الجديدة منعتهم من فعل ذلك.

كل فرد عالم في ذاته
CADA INDIVIDUO ES UN UNIVERSO

عندما اعتقد سائق التاكسي أنه بلغ درجة من الثقة في رحلته، أكد أن كل عائلة عالم، ثم أضاف من دون أي تمهل:

- حمواي، على سبيل المثال، يتسامحان معي، لكنهما لا يقبلاني.

- أما حمواي فيقبلاني، لكنهما لا يتسامحان معي. أجبته لأربكه قليلا، فأنا أكره هذا النوع من الحوارات.

غرق الرجل في صمت حقود، وفي أول إشارة مرور نزل من السيارة ليغير أسطوانة الغاز. وفي الراديو كان ثمة فرد يؤكد أن أغلب الحوادث الواقعة داخل سيارات ممتلئة جدا تؤدي للوفاة لارتطام رؤوس الركاب ببعضها، فتنفتح مثل البطيخ. رجل مريض. عاد سائق التاكسي إلى السيارة بعد انتهاء المهمة وأكد:

- ما تقوله يا سيدي لا يمكن حدوثه. إن كانا يقبلانك، فكيف لا يتسامحان معك.

- بنفس الطريقة التي أقبل بها البنسيلين رغم أني لا أتسامح معه لأني حسّاس للمضاد الحيوي. وحمواي حسّاسان للأصهار، لهما ثلاثة آخرون ويقبلانهم جميعا، لكنهما لا يتسامحان مع أي منهم. وأنا شخصيا، كنت أفضّل أن أتسامح مع البنسيلين، حتى لو لم

أقبله. فقط أستطيع معالجة المرض بالسلفوناميد الذي يميتني.

وأدركت أني دمرت للرجل عبارة ربما كان يكررها على كل الركاب الذين كانوا يقعون في يده. كان ذلك وحشية، لكن الحياة قاسية والسمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة، إلى آخره. ووصلنا إلى شارع فيبس دي بيلاثكيث وطلبت منه فاتورة حتى أكلّفه؛ حتى يتعلم فتح حوارات مع الزبائن. من الفم تموت السمكة، أيها السمكة المقززة.

ركبت تاكسي بعد أيام قليلة من ميدان كتالونيا. وحين بدأت أغرق في تأملاتي قرر السائق أن يدخل في حوار.

- كل عائلة عالم. قال.

- بالطبع. أجبته من دون أن أتوقف عن التفكير في أموري.

- عائلة زوجتي تقبلني، لكنها لا تتسامح معي.

- أما عائلة زوجتي فتتسامح معي لكنها لا تقبلني. قلت ميكانيكيا حتى أعارضه فحسب.

حينئذ ركن السيارة في جانب، وشعرت بقوة الفرملة الحادة، والتفت إليّ السائق بنظرة انتصار. كان نفس السائق الذي يتسامح معه حمواه ولا يقبلانه.

- لقد اصطدتك -قال- أنت رجل ديماغوجي، دائما تعارض ما تسمعه بهدف التعارض فحسب.

- لكن ذلك ليس ديماغوجية حقيقية أجبته- الديماغوجي الحقيقي هو من يقول عكس ما يفكر ليشحّم خلاياه العصبية.

- وأنت قلتَ لي شيئا في يوم سابق والآن تقول لي عكسه. فإما أنك كذبت حينها أو أنك كذبت الآن.

- ليس لي حموان، هذا كل ما في الأمر. أنا أعزب، وبالتالي

لا فارق عندي بين أن يقبلاني ولا يتسامحان معي أو يتسامحان معي ولا يقبلاني.

أثناء ذلك وصلنا عند بيتي.

- هل تعيش هنا؟ سأل.

- نعم. قلت.

- بيت كبير جدا لرجل عازب.

لم أرد على هذه السماجة، لكني طلبت منه فاتورة من جديد ورميتها في وجهه بمجرد ما نزلت من السيارة.

وبعد أيام قليلة كنت خارجا من البيت مع زوجتي، وكان ثمة تاكسي أمام الباب بالمصادفة، ركبناها بلا تردد، إذ كنا مستعجلين. ثم سمعت صوتا تعرفت عليه في الحال.

- كل عائلة عالم. قال.

- وكل فرد عالم. أضافت زوجتي واقعة في الفخ سريعا.

- حمواي يتسامحان معي، لكنهما لا يقبلاني. أضاف السائق وهو يهددني بنظرته عبر المرآة حتى لا أتكلم.

- مع الوقت سيقبلانك أيضا. أكدت زوجتي، وتشعبا في هذه الحوارات الكريهة حول القبول وعدم القبول العائلي. وحين وصلنا إلى قِبلتنا سألني إن كنت أريد فاتورة واضطررت إلى أن أقول له لا، بالطبع، حتى لا أشرح ذلك لزوجتي.

والآن أبحث عنه في كل مواقف التكاسي منذ عدة أيام، حتى أنتقم منه، لكن يبدو أن الأرض انشقت وابتلعته.

تعصب في المواعيد
INTRANSIGENCIA HORARIA

كان لي خطيبة تكره الدقة في المواعيد وتراها من عيوب البرجوازية. في تلك الفترة كنتُ أصل دائما قبل موعدي بنصف ساعة، ليس كرد فعل معاكس، وإنما لمشكلات عقلية، فقد كنت أعتقد أني لو تأخرتُ في مواعيدي فستحدث كارثة. بالإضافة لذلك، فميزة الوصول إلى المطار، مثلا، قبل موعدك بساعتين أو ثلاث يتيح لك الفرصة، إن كنت قد نسيت جواز سفرك، أن تعود إلى البيت لتحضره من دون أن تفقد رحلتك.

لم تكن خطيبتي تفهم هذه التفسيرات، بل وكانت تلومني بمرارة على برجوازيتي التقدمية في سنوات كانت فيها الطبقة الوسطى تنظر إلى الطبقة الوسطى نفسها باحتقار. شرحتُ لها حينئذ أني أصل قبل موعدي لألقي نظرة من بعيد على الناصية التي تواعدنا عندها لأتحقق أنه ما من حركات مريبة في المنطقة، إذ قرأتُ روايات كثيرة لجون لي كاريه[28]، وعلمتُ أن الجواسيس دوما ما يتخذون هذه الإجراءات الاحتياطية.

- أتريدين أن يتحروا أين نتقابل ويعتقلوني؟

(28) جون لي كاريه: كاتب بريطاني مشهور، اشتهر بكتاباته البوليسية والتجسسية في الحرب الباردة (الروسية - الأمريكية).

- لكنك لست جاسوسا لتفعل ذلك. أجابتْ.

- لا أحد يعرف هذه الأمور. أجبتها بشكل غامض.

يتميـز الجواسـيس بقدرتهـم عـلى الإحسـاس بـكل نـوع مـن الوسـاوس، مـن دون أن يلفتـوا الانتبـاه. فالعميـل، كـما يقـول الكتاب، يجـد نفسـه مضطـرا، مثلا، إلى تـرك فرشـاة أسـنان عـلى بـاب بيتـه عند خروجـه ليتحقـق إن دخـل أحـد بيتـه في غيابـه أم لا. وغـير الفرشاة، يمكنـه أيضـا أن يـترك قليـلا مـن الصمـغ في ركـن مـا مـن الباب. ورغم كل حيطـة، يجـب أن يحـترس مـن حديثـه في غرفـة معيشـته لأنهـم ربما يضعـون لـه ميكروفونـات في حجـم رأس الدبـوس في أي مـكان. وقبل أن يـشرع في حديـث حسـاس، مـن المناسـب أن يطـل مـن نافذتـه ليتأكـد أنـه ليـس ثمـة سـيارة في الشـارع لهـا هـوائي في سـقفها. وكل هـذه الإجـراءات تعـد قليلـة.

وذات مـرة توجهـتُ إلى طبيـب نفـسي ليعالجنـي مـن هـذه العلل التـي أخـسر معهـا وقتـي وأفقـد فيهـا طاقتـي. وحـين رويـت لـه كل شيء، أكّـد لي أني فعـلا في حاجـة إلى عـلاج، غـير أنـه عـبّر عـن ذلك بطريقـة لم تـرق لي. وبالتـالي، عندمـا شرع في عمـل ملفـي وسـألني عن مهنتـي، أجبتـه بـأني جاسـوس.

- أنت إذن تقوم بواجبك، قد تحتاج علاجا لو لم تفعل ذلك.

- هذا ما أقوله لخطيبتي!

- وهل تعلم خطيبتك أنك جاسوس؟

- بالطبـع لا، هـل تظـن أني عميـل مجنـون لأحـكي لـكل النـاس أني أعمـل في خدمـة الاتحـاد السـوفييتي؟

كان الاتحـاد السـوفييتي حينهـا موجـودا، وكانـت مدريـد تكتظ بالأحـزاب الشـيوعية وأحـزاب العـمال والأعـلام الحمـراء والصينيين

ومؤيدي الصين ومؤيدي كوبا، بالإضافة إلى الفاشيين التقليديين والفلانخيين الإسبان[29]. وكانت الحياة غاية في الصعوبة، ولم يكن في وسع أحد أن يتخلى عن هذه الطقوس الوسواسية حتى لا يبدو ضد الثورة، أو برجوازيا صغيرا.

كان وصولي مبكرا عن موعدي وعشق خطيبتي للوصول متأخرا يعكر العلاقة بيننا. حينئذ، بلمحة كرم مني، وحتى أرضيها، أقسمتُ لها أن أصل متأخرا عن كل مواعيدي، أو على الأقل عن مواعيدي معها. وبهذه الطريقة عادت المياه لمجاريها، أقصد إلى مجاريها هي، لأنها تركت مجراي حتى صار جافا.

أوفيتُ بوعدي خلال الأسابيع التالية في موعدين أو ثلاثة، غير أني عانيت من أفكاري الخرافية التي تصور لي أن العالم سينتهي كنتيجة لتأخيري. وسريعا «عادت ريمة لعادتها القديمة»، فأصبحت أصل من جديد مبكرا، وأختبئ في مكان قريب لأتظاهر بأني وصلت للتو بعد أن أراها قد وصلت وانتظرت عدة دقائق. وذات يوم كنت مختبئا في مدخل بناية، مراقبا منطقة اللقاء، ورأيتها قد وصلت قبل موعدها بعشر دقائق، حينها خرجتُ من مخبئي، وعندما ناديتها «يا برجوازية»، أكدت لي أنها جاءت مبكرا لتتأكد إن كنت أصل متأخرا أم لا. في ذلك اليوم فسخنا خطبتنا، لأسباب أيديولوجية في رأيها، رغم أني اعتقدت دوما أن انفصالنا كان لأسباب نفسية.

بالأمس رأيتها في الشارع تجر طفلا في يدها، وشعرت بوسواس يدفعني لأقترب وأطلب منها أن تغفر لي دقة مواعيدي في سنوات شبابي، غير أني أدركت في الحال أن الوقت، على الأقل بالنسبة لي، قد تأخر جدا، رغم أنه بالنسبة إليها ربما لا يزال مبكرا جدا.

(29) مصطلح يطلق على الشيوعيين الإسبان في عهد فرانثيسكو فرانكو.

ابنة بياتريث
LA HIJA DE BEATRIZ

في الخميس الماضي، وكان يوم الكتاب، كنت آكل شطيرة الحبار في أحد بارات شارع لوبيث دي أويوس[30] عندما اقتربت مني فتاة لها ذيل حصان مموج وترتدي كنزة مربعات وتبدو قادمة من مراهقتي أكثر من كونها قادمة من الشارع. كانت تحمل في يدها كتابا لباولو كويليو[31] قد قرأتْ فيه للتو، بحسب ما قالت لي، أن العالم حافل بالعلامات.

- انتبهت إلى أنك تأكل الخبز كأنك تفكر فيه أكثر من أن تمضغه، كما كان يفعل أبي الميت. أضافت.

- تبا لأبيك ولـ باولو كويليو -أجبتها بعدوانية- لا أكلم أحدا يقدم استشهادات أدبية أقل من شكسبير فما فوق.

- كان هذا أيضا نمط أبي -أجابت برقة- يزدري ما يجهله. يمكن لك أن تسبّه كما تريد، لكن دع باولو كويليو في حاله.

انتبهتُ حينئذ إلى أن العالم بالفعل حافل بالعلامات. وتلك الفتاة كانت تذكّرني بحبيبة مراهقتي وكانت تسمى بياتريث،

---

(30) خوان لوبيث أويوس (1511-1583).

(31) الكاتب البرازيلي صاحب رواية الخيميائي.

اسم نادر في تلك الفترة التي انتشر فيها باكيتا وخوليا وماروخا. وفكرت أنها ربما جاءت من الماضي لتقول لي شيئا. أفكر أحيانا في الماضي. أسير بشارع كونستانثيا، في اتجاه المدرسة، وأرى فجأة بياتريث بمواجهتي، في طريقها لدرس الاختزال والآلة الكاتبة. ربما يكون عنيفا أن أطلب منها استشهادا من شكسبير مع ثقافتها المحدودة. فبعد كل شيء، لم أعرف شكسبير إلا بمحض مصادفة، ولم أستطع دوما فهم ما يقوله. كان ينقصني القليل لأقرأ باولو كويليو؛ ربما كنت أفضّله شريطة أن تبقى بياتريث بجانبي. كنا سنكون الآن اثنين ناضجين، وكنا سنشاهد التلفزيون وسنقرأ باولو كويليو معا. وكان أبناؤنا سيملؤون البيت بكتب في التنمية البشرية، ولابد سنعثر على معنى «كويلياني» للحياة. رنين الكلمة مريح، أفضل من «سارتري» أو «فيتجنشتايني».

وعلى سيرة فيتجنشتاين، تذكرتُ كتابا مهمّا جدا قرأته في شبابي: فيينا فيتجنشتاين. ربما لو كنت تزوجت بياتريث لكنت كتبتُ «ساو باولو كويليو». لا أعرف، لا يعرف الواحد ما المهم وما غير المهم. أخذت رشفة من البيرة، وعضضت ساقا واحدة كاليماري كانت تهرب من فتحة بالرغيف، وألقيت نظرة لطيفة على الفتاة.

- انظري -قلت لها- لا أريد أن أضايقك، لكن باولو كويليو يكتب كتابة سيئة جدا وهو كاتب تافه. بالإضافة لذلك، لا أعتقد أن العالم حافل بالعلامات. بيد أنه يتغذى على العكس تماما: نقصان العلامات. العالم أسوأ من المطار. العالم أسوأ من مطار فرانكفورت؛ كل اللافتات موجودة حتى تتوه، حتى تأخذ رحلة غير رحلتك أو تظل معلقا في متاهة الممرات.

- هـذا سـبب آخـر حتـى عندمـا تظهـر علامـة نتمسـك بهـا، ولقـد قلـت لـك إنـك تشـبه أبي.

- ليـس لأمنـح لـ كويليـو الحـق، لكنـك تشـبهين فتـاة كنـت مغرمـا بهـا في مراهقتـي. شـبيهة، صـورة طبـق الأصـل. ربمـا تكونـين ابنتهـا. كان اسـمها بياتريـث.

- لا تكمـل -ردت الفتـاة بوجـه ذابـل- أمـي اسـمها بياتريـث، لكنـي أخـاف لـو واصلـتَ الحديـث ألا تكـون هـي، وأنـا أحـب علامـات القـدر.

وأنـا أيضـا كنـت أخـاف أن أتحـرى، حتـى لا ينتهـي السـحر باعتـذار. لم أتخيـل قـط بياتريـث أرملـة، بملابـس داخليـة سـوداء وكل ذلـك. أنـا بقيـت أعـزب كسـلا. ربمـا لم أجـد امـرأة تلـح علـيّ بمـا يكفـي، لكنـي فكـرت فجـأة أن لـو أصبحـت بياتريـث أرملـة ولا تـزال تشـعر بـشيء تجاهـي، فسـأكون مسـتعدا للـزواج منهـا، حتـى لـو كانـت ابنتهـا تقـرأ باولـو كويليـو. بشـكل شـخصي، سـقطتُ العـام المـاضي في هذيـان قـراءة سـوزانّا تَامـارو[32].

- أريـد أن أتـزوج أمـك. سـمعت نفسي أقـول العبـارة بحسـم بينـما كنـت أدفـع حسـاب البـيرة وشـطيره الحبـار.

- لكنـك ولا حتـى تعـرف إن كانـت بياتريـث هـي بياتريـث شـبابك أم أخـرى.

- لا يهـم -أجبـتُ- لـو كانـت هـذه علامـة، فـلا أريـد ألا أقرأهـا. يفزعنـي أن أقـضي حيـاتي داخـل مطـار وبحثـا عـن مكتـب اسـتعلامات. اصطحبينـي إلى مكانهـا، وسـأكون كأب لـك.

هـذا في الواقـع مـا تخيلتـه، وكان بـلا شـك مـا يجـب أن أفعلـه،

(32) سوزانا تامارو: كاتبة إيطالية متخصصة بالبرامج الثقافية العلمية وهي مساعدة إخراج كذلك.

لكني لم أتمتع بالشجاعة لخيانة شكسبير من أجل كويليو. فما بين الأدب والحياة دائما ما اخترت الأدب، وهكذا أعيش. والفتاة تركت المحل وراحت تبحث عن علامة أخرى، وعندما خرجتُ كانت قد اختفت.

الجارة الميتة
LA VECINA DIFUNTA

عرفت في تلك الليلة أن صديقة لنا كانت تسكن الطابق الأسفل قد ماتت، لأني من قبل أن يرن المنبه فتحت عينيّ وظهر لي طيفها.

- اسمع، لقد مُتُّ. قالت كأنها لم تصدق بعد.

المرأة تعيش بمفردها وظننت أنها جاءت لأشيع الخبر. لكن لا. لقد جاءت إلى بيتي لأنها لم تكن تعرف ماذا ستفعل ولا إلى أين ستتجه.

- هل أنتِ خائفة؟ سألتها.

- خائفة لا. لكني أشعر بأني غريبة. لقد انتصرتُ في سرعة الانتقال، غير أني لا أعرف إلى أي مكان أريد أن أذهب. لم أحب السفر قط.

- هل تريدين أن أبلغ أحدا؟

- لا.. لا، أقول لك فقط إني كنت عابرة من هنا، لكني سأواصل عبور الحوائط، فضولا.

كل شيء كان طبيعيا حتى إنه أدهشني ألا أشعر بالخوف. أن تكون ميتا ليست مسألة كبيرة في نهاية المطاف. انقلبتُ على جنبي لأصالح النوم وفي تلك اللحظة رن المنبه.

وبعد الاغتسال، وبينما كنت أصب القهوة، كنت على وشك أن أحكي لزوجتي ما حدث. كان يمكن أن أقول لها بنبرة عادية: حلمت بأن فلانة ماتت. لكني رأيت أن موقفي سيكون حرجا لو تأكد الخبر بعد ذلك. وإن لم يتأكد أيضا. فصمتُّ، إذن، وعند الخروج من البيت نزلتُ السلم بدلا من ركوب المصعد، وأصختُ السمع لما وراء باب الميتة. ولم أسمع شيئا. قاومت غواية دق الجرس ولديّ فكرة تافهة عن أنها لو كانت ميتة بالفعل فسأدخل نفسي، بهذه الطريقة، في مشكلة. ولم يكن صعبا تخيل أسئلة الشرطة: «هل حقا، كما تؤكد إحدى جاراتك، أنك ضغطتَ على جرس القتيلة في الساعة الثامنة؟».

قضيتُ الصباح في المكتب بشعور أني في عالم غير واقعي مثير، كأني لم أخرج من الحلم بعد، أو لم أدخل الواقع كلية. تغديت في مطعم اقتصادي قريب بشارع لوبيث أويوس، وبعد القهوة هاتفتُ الميتة بإصبع جاهز لإنهاء المكالمة لو ردت الشرطة، إذ ربما يكونون هناك لتفتيش الشقة. لكن أحدا لم يرد. وبعد خمس رنات ملحّة قفز المجيب الآلي، لكنه لم يقل: لا أستطيع الرد عليك الآن لأني مُتُّ للتو، لكنه قال اترك رسالة بعد سماع الصفارة. لم أقل شيئا حتى لا أبدو على صلة بالحادثة إن كانت قد ماتت بالفعل. كان يمكن أن أسأل الطيف إن كانت الوفاة بسبب جرعة زائدة أم ماذا، رغم أني أعتقد أنها لا تتناول مخدرات. لكن الموت اليوم يثير الشبهات حتى إن بدا لي من الحيطة ألا أتحقق في الأمر.

وفي المساء، حين فتحتُ باب بيتي، سمعتُ امرأة تتحدث في الصالون مع أحد. «إنها هي»، قلت لنفسي، «الميتة». خطوت في الممر بقلب في الحنجرة، وكانت هي بالفعل. في أمسيات كثيرة،

ولأنها تعيش وحيدة، تأتي إلى بيتنا وتظل تحكي معنا حتى ساعة نشرة الأخبار. كانتا تجهزان كأسين وسألتني زوجتي إن كنت أريد شيئا:

- كوب ماء. أجبتُ، إذ كانت حنجرتي جافة.

راحت زوجتي إلى المطبخ وبقيتُ أنا والميتة وحدنا، نتبادل النظر. لاحظتُ أنها مهما حاولتْ تصنّع الطبيعية ثمة شيء فيها لم يكن طبيعيا.

- لكن لم تموتي؟ سألتها بصوت خفيض.

- ماذا تقول؟ وهل كنت ستبقى معي هنا لو أني مُتُّ؟

في تلك اللحظة وصلت زوجتي بكوب الماء والثلج.

- عن ماذا تتكلمان؟ سألتْ.

- زوجك، يصر على أني قصّرتُ شعري.

لو أنها لم تكذب، لكنت فكرت أن كل شيء محض حلم، لكن رد فعلها وشى بها. وبالفعل، توقفتْ عن زيارة بيتنا بالمساء لأنها خافت من أن أقدّم لها الأدلة، وعندما نتقاطع عند مدخل البيت تتجنبني. المدينة حافلة بأناس هكذا، أفراد يقضون الأمسيات في الكافتيريات، أمام فنجان يتصنعون أنهم يشربونه.

ثمن الأرواح
EL PRECIO DE LAS ALMAS

في البداية كانت تنهيدة راحة أن ظهر لي الشيطان، إذ إنه من المفيد دائما لتقدير الذات أن تعرف أن روحك مطلوبة في السوق، حتى لو لم تكن ثمة نية لبيعها. كنت أنا وإبليس في تاكسي، هو متخفٍ في شكل سائق، بالطبع، وأنا في شكل وكيل تجاري. وكان يقود بمهارة فائقة، رغم أنه في مكان قدميه ثمة أرجل لمعاز.

- لا أعرف كيف تستطيع التحكم في المقود والفرامل بهذه الأطراف.

قلت لأكسب وقتا، حتى لا يراني متلهفا ويبدأ التفاوض في السعر.

- الواقع أن السيارة تسير وحدها -أجاب- أنا أقتصر على حركة الذراعين والساقين تمويها.

- وما سعر الأرواح هذا الموسم؟ سألتُ بنبرة عادية عندما لاحظت أنه غير متحمس للتحدث في الموضوع.

- أرواح؟ منذ زمن لم أشتر أرواحا. في الجحيم فائض. من قبل كان يجب تقديم الشباب الأبدي ولا أعرف كم جوالا من الذهب مقابل الروح الواحدة. الآن يمنحونك في المقابل ساعة رولكس من الرصاص أو شقة في حي توريبيّخا[33].

---

[33] توريبيّخا: معناها (المنارة القديمة) وهي منطقة ساحلية مطلة على البحر الأبيض وهي في محافظة فالينسيا.

في الوقت الحالي، كما شرح لي، كان يشتري الأجساد. وكانت أسعار الأجساد في السماء. وتملقني بأنه مهتم بجسدي، إذ لم يبد لي قط ذا أهمية تذكر. بالإضافة لذلك، بعد تجاوز لحظة الارتباك الأولى، فكرت أنه كان أفضل لتقدير الذات أن اهتم الشيطان بجسدي أولا قبل روحي. ليس لأني قررت بيعه، بل اكتفيت بأن يضع له سعرا.

- أنا الآن أمنحك روحين مقابل جسدك. قال في النهاية.

- وماذا أفعل أنا بروحين، بالإضافة لروحي، من دون جسد يضمهم عند غروب الشمس؟

- سترى يا سيدي، واحدة تتكلم الفرنسية والإنجليزية والأخرى تتكلم الألمانية. إنهما روحا شاعرين مشهورين من القرن الماضي.

بدأت أتردد. ورغم أني لم أقل شيئا للشيطان، كان الكوليسترول مرتفعا ومنذ عامين أصبت بذبحة صدرية. كذلك، أعاني من بعض التهابات في المعدة. وأصاب بالبرد بأقل نفحة هواء. لم أشعر قط بالراحة داخل جسدي. وفكرة التخلي عن الاحتياجات العضوية وأن أكون رئيسا، على الأقل، لروحين عالميتين، كانت تغريني. بالروح التي تتحدث الفرنسية والإنجليزية يمكنني فهم نفسي، إذ كنت أعرف اللغتين. ليس لديّ فكرة عن الألمانية، لكني فكرت أنها مسألة اهتمام سأوليه خلال الشهور الأولى. أن يكون لديّ روح ألمانية، حتى لو لم أفهمها، كان له سحره.

أثناء ذلك، هاتفوا سائق التاكسي من المحطة المركزية وأخبروه بأن هناك جسدا للبيع في تقاطع شارع ماريا دي مولينا[34] مع شارع سيرّانو[35].

(34) ماريا دي مولينا: شخصية إسبانية مشهورة.

(35) سيرانو: تعني ريفي بالإسبانية، ويعتبر صفة في بعض الأحيان.

- هل يضايقك أن تنزل هنا، عندي مهمة طارئة؟ سأل.

- لحظة، لحظة، لم ننته بعد من اتفاقنا.

- هل تهتم بالصفقة، إذن؟

- هيا، نعم. قلت له مترددا قليلا في الحقيقة، وفي ذاك اليوم بالتحديد كان التهاب المعدة يقتلني.

حينئذ شعرت كأنهم يجردونني من قميصي القطني بعنف كبير، وفجأة رأيت نفسي خارج التاكسي، أطفو في وسط «لا بويرتا دي ألكالا»[36]، بروحين خاضعتين بجانبي. ابتعدتِ السيارة بجسدي في داخلها. ولم أستطع نسيان تعبير الحزن على وجهي على الجانب الآخر من النافذة.

في البداية، كان مسليا الذهاب من هنا إلى هناك مثل مجموعة كرات بالهواء، لكن في اليوم الثالث بدأنا نشعر بمرض الغياب الجسدي غير المحتمل. فضلا عن أني كنت أفترض أني الرئيس، كنت مضطرا لاتخاذ قرارات وتهيئة الحياة مع الفرنسي بمعرفتي للإنجليزية، وكذلك للألماني. قدمت نفسي لأكثر من مئة شخص دون نتيجة تذكر؛ كان حقيقة أن الأرواح في الأرض. في النهاية، في مرآب سيارات سانتو دومينجو[37] قابلت رئيس موارد بشرية سمح لي بالدخول في جسد مدير تجاري يرأسه مقابل أن أعلّمه الفرنسية والإنجليزية والألمانية. وافقت في الحال، لكن تحتم علينا تقسيم الجسد على ثلاثة، وكان نصيبي قطاع التهابات المعدة، وهي التهابات نفسجسمية، هكذا تخيّل كثافة ثلاث أرواح في مكان واحد. أحيانا، حين يشرد المدير التجاري، أصعد في الخفاء حتى

(36) بوابة الكلا: هي بوابة قديمة لمدينة مدريد ومعلم مشهور.

(37) عاصمة الدومينيكان.

العينين، وأقضي اليوم وأنا أراقب الأجساد. الأرواح لم تعد تحركني. رؤية واحدة كرؤية جميعها، رغم أنه متعدد اللغات. أعتقد الآن أني عقدت صفقة سيئة مع الشيطان، لكني لم أعرف قط بيع نفسي.

حافظة ورق خضراء
LA CARPETA VERDE

عملت منذ سنوات في مكتب محاماة، وكان يعمل هناك موظف من الدرجة الثانية نحيل جدا وبأظفار مكسوة بالنيكوتين. وذات يوم اتصل بالمكتب من أحد بنسيونات شارع أتوتشا[38] وقال لي إنه قد هجر زوجته في التو، وبالتالي لا يرغب في المجيء إلى المكتب.

- قل للمدير إني أصبحت مريضا. أضاف.

وطلب مني أيضا أن أقترب من بيت الأرملة (هكذا أشار إلى زوجته) وأن أعد له حقيبة تضم قمصانه وحافظة ورق خضراء، مطاطية، على واجهتها مكتوب «مراسلات».

- واحتفظ بكل شيء في المكتب -قال- وبعد يومين، بمجرد أن أنظم نفسي قليلا، سآمر لآخذها.

لم أستطع الرفض، رغم أنه بدا لي تكليفا متجاوزا، هكذا في ساعة الغداء ركبت المترو من محطة نونيث دي بالبوا[39] ونزلت في محطة كاياو[40]. كان يعيش في بيت من دون مصعد بشارع

(38) أتوتشا: شارع مهم في مدريد ويحتوي على محطة القطارات المركزية.

(39) نونيث دي بالبوا: شخصية تاريخية ويعتبر من أوائل المستعمرين في أمريكا الجنوبية وله علاقة بدولة (بنما).

(40) كاياو: محطة مترو مشهورة في وسط مدريد.

بريثيادوس[41]، قديم جدا، بمدخل خشبي وفضاء حافل بالصدى، وربما بالأشباح، وكنت جبانا جدا في تلك الفترة. في الدور الأول كان ثمة بنسيونان، وفي الثالث ثلاث شقق واجهتها خربة. طرقت شقته وفتحت لي امرأة شقراء وقذرة، بروب خفيف جدا رغم أنه طويل، وكانت تمضغ قطعة خبز.

- أنا صديق سيرخيو -قلتُ- وكلفني أخذ أشياء له.

قادتني المرأة حتى غرفة نوم كان سريرها غير مرتب، وفوقه ثمة حقيبة مفتوحة وممتلئة بملابس رجل مرصوصة بأي طريقة.

- كلها لك. وأين يختبئ سيرخيو؟

- أعتقد أنه في بنسيون بـ أتوتشا. قلت وأنا أقترب من الحقيبة لأقفلها.

- قل له إذن فليتعفَّن.

- سأقول من جانبك.

سحبتُ الورم بالممر، لكني فجأة تذكرتُ حافظة الورق الخضراء، المطاطية، حيث يحتفظ بـ «مراسلات».

- يجب أن آخذ أيضا حافظة ورق.

اختفت الشقراء في أعماق الممر وعادت بنوع من الكارتون تسلمته بيدي الخالية. وفي الشارع، انتبهت إلى أني اطلعت في مدة زمنية قصيرة على كل ما كنت أكرهه في حياتي؛ بنسيونات المدينة القديمة والخلافات الزوجية. في ذاك البيت لم يسُد أبدا السلام الزوجي ولو ليوم واحد. أنا قد جئت إلى مدريد لأنتصر، لا لأرى هذه المشاهد التي تسبب لي الهزال. هذا ما قلته لنفسي في المترو، في عودتي للمكتب، بيدين مشغولتين وبعرق يخرب ياقة قميصي الوحيد المحترم.

(41) شارع في وسط مدريد.

وضعت الحقيبة في غرفة أرشيف معدنية، غير مستخدمة، واحتفظت بالحافظة الخضراء في درج بمكتبي. وآخر النهار ناداني المدير ووقفت أحل معه مسائل روتينية. سألني إن كنت أعرف شيئا جديدا عن سيرخيو وقلت له لا، أصابه برد، ووافق أن يتغيب يومين أو ثلاثة.

- دائما ما يمرض في نهاية الشهر عندما ينبغي أن نجهز الرواتب.

وعدته أن أقوم بالمهمة وعدت إلى مكتبي. كان النهار قصيرا جدا وفي الخامسة والنصف بدأت تظلم. حينئذ اتصل سيرخيو وقلت له إن كل شيء تمام.

- والحافظة الخضراء كذلك؟ سأل بقلق ما.

- نعم، لا تقلق.

بانتهاء المكالمة، استحوذ عليّ حزن لا يمكن السيطرة عليه. في نهاية المطاف، أنا أيضا جزء من تلك الحياة المشققة. لو لم أنتبه، لانتهى بي الأمر في بنسيون، معانقا جوابات غرامية. قلت جوابات غرامية لأن هذا ما تخيلته في داخل حافظة الورق الخضراء. بشكل ما، كان لديّ الحق للاطلاع عليها حتى أواجه تمثيلات حياتي ذاتها.

وبقليل من الحياء، إذن، أخرجت الحافظة من الدرج وفتحتها. كانت تشبه التابوت في شيء، ببقع الرطوبة والأوراق الميتة أو المحتضرة في كل جوانبها. غير أن أكثر ما أذهلني أني لم أر مظروفات بعناوين مكتوبة بخط اليد، كما كان متوقعا في المراسلات الحميمية. لم تكن إلا خطابات من البنك أو فواتير غاز وكهرباء. وأكثرها شخصية كانت تهنئة بعيد ميلاده من مدير محلات كبيرة. وكانت مكتوبة بخط يقلد خط اليد، ومفزوع. احتفظت بكل شيء في مكانه وأدخلت الحافظة في الحقيبة. وفي الأسبوع التالي، عندما عاد سيرخيو، تركت المكتب وقررت تجربة حظي في نشاط آخر.

خورخي وماروخا
JORGE Y MARUJA

دفعت الحساب في المطعم ببطاقة الفيزا وأعاد لي الجرسون بالخطأ بطاقة امرأة تدعى ماروخا كونتريراس، وحين حاولت تحديد مكانها كانت قد خرجت من المطعم ببطاقتي. لم أفعل شيئا لأصلح الموقف. فكرت أنها ستتكفل بكل شيء، أو أن المسألة ستُحل من تلقاء نفسها. كنت أمرُّ بمرحلة كراهية للإجراءات ولم أقِس العواقب بشكل صحيح. أثناء ذلك، كنت أذهب إلى كل الأماكن ببطاقة الفيزا الغريبة في محفظتي، كأنها هوية مزيفة، عضو اصطناعي، حتى جاء اليوم الثالث وتحمست لاستخدامها في مطعم آخر بشارع بيلاثكيث. لم ينتبه أحد، رغم لحيتي، إلى أني من المستحيل أن يكون اسمي ماروخا، ما حمّسني أكثر على مواصلة استخدامها، لكن دون سوء استخدام، بنفس السخاء أو السفه، بحسب وجهات النظر، الذي أستخدم به بطاقتي ذاتها. ربما تجاوزت في شراء ربطة عنق عبثية، ربيعية، حافلة بالألوان، أو في هدية متقشفة قليلا بحسب ذوقي، وما كنت لأتجرأ على ارتكاب ذلك وأنا في شخصيتي كـ خورخي، وهو اسمي في الحقيقة، خورخي كونتريراس: لي نفس لقب ماروخا، من هنا جاء التباس الجرسون.

وفي الشهر التالي، تلقيت كشفا معتادا بنفقات بطاقة الفيزا وأدهشني أن ماروخا لم تسرف كذلك في أموالي: خمسة أو ستة مطاعم (كلها غالية بما يكفي، هذه حقيقة)، محل ملابس، سوبر ماركت، ومكتبتان. ربما لا تكون علاقة النفقات شيئا حميميا جدا، لكن إحساسي وأنا أراجعها كان إحساس من يراقب ماروخا من عين سحرية. كنت لا أعرف هيئتها (لم يتح لي الوقت لرؤيتها) ولا عمرها، رغم أني بمراجعة تواريخ الشراء والمحلات كان يمكنني أن أتتبع أماكنها. ذات يوم دخلتْ ثلاثة محال مختلفة بشارع بيلاثيكيث ومكتبة بشارع خوان برابو، حيث أنفقتْ أكثر من مئة يورو على كتب الأدب. وهذا أهانني قليلا في الحقيقة. وفكرتْ أنها ربما أرادت أن تتظاهر بالثقافة، أو تجعلني أنا أتظاهر بها، لو اعتبرنا أن كل ما يخصها أدفعه أنا.

من جانب آخر، حين كنت أحاول تخيل المرأة عند مراجعة حساب إنفاق بطاقتها لأتحقق من عاداتها الشرائية، زاد شعوري بالإهانة، فهذه النفقات كانت أكثرها عادية. لقد تطلعت دوما لقراءة «دون كيخوتيه» وللاستماع للأوبرا، لكني في النهاية استمعت للكيخوتيه (فصلا فصلا في الراديو) وقرأت كتيبا عن الأوبرا لأتمكن من إبداء رأيي أمام الناس. كل شيء بالعكس.

وبدأت أنتظر بلهفة خطابات البنك ثم كنت أحلل بدقة كل شيء اشترته ماروخا. أحيانا كنت أذهب للمحلات التي اشترت منها لأطأ نفس الأرض التي وطأتها هي، وأشتري نفس الأشياء التي ربما اشترتها هي كذلك. وخلال كل ذلك الوقت، راحت ماروخا تغير عاداتها بنعومة. أعتقد أنها أصبحت أكثر اهتماما بالتفاصيل، وفي الأسابيع الأخيرة لم يكن مستغربا أن تشتري ورودا أو دبابيس

للشعر. وكان يروق لي أن أتخيل أنها تفعل كل ذلك لتأسرني وبدأت أشتري أيضا كأنها تراقبني، مختبئة في ركن ما من المحال. اشتريت حينئذ مجموعة ديسكات للموسيقى الكلاسيكية ومكتبة صغيرة للعناوين الرئيسية، رغم أني لم أقرأ الكيخوتيه بعد. وأحيانا كنت أشتري ملابس داخلية نسائية حتى تفهم هي أني رجل أتمتع بكل نوع من الحساسية. وفي ذلك أنفقت أموالا أكثر، لكني عوضت ذلك بتقليل مرات الأكل خارج البيت.

كان من الممكن أن نقضي حياتنا هكذا، متبادلين فواتيرنا كأنها قبلات، أو ملامسات. حتى تخليت عن لحيتي وأنا أفكر في فكرة فانتازية بأني بهذه الطريقة سأشبه ماروخا كونتريراس. لكن ذات يوم رحت لأدفع حساب لباس نسائي، ورغم أن أحدا لم يتجرأ على أن يقول لي إني لست هي، إلا أنهم أشاروا لي بأن البطاقة انتهت صلاحيتها. وكانت حقيقة. لم أفكر قط أن قصة حب بهذه الغرابة يمكن أن تنتهي بمشكلة اعتقدت حتى ذاك اليوم أنها لا تؤثر إلا على اللبن. رغم أني لا أريد أيضا أن أخدع نفسي بهذا الخصوص: ربما الحياة لا تمنح نفسها أكثر من ذلك.

بعد قليل، لابد أن بطاقتي كذلك ستفقد صلاحيتها، لأني تلقيت بطاقة جديدة من البنك، وكانت، كما هو منطقي، باسم خورخي كونتريراس. لكني لم أستخدمها. فهذا الشخص لا علاقة له بي. أنا أشعر أكثر بأني ماروخا، من دون أن يتطلب ذلك تغييرا في توجهي الجنسي أو شيئا شبيها. أريد أن أقول إن القيمة القليلة لديَّ بقيت معها ببطاقتي منتهية الصلاحية. أنا جسد فارغ، بدلة معلقة على شماعة في بيت بلا صاحب. وربما جاءت اللحظة المناسبة لقراءة الكيخوتيه.

المختفي
EL DESAPARECIDO

رأيتُ صورة لرجل مفقود في مظلة محطة الباص. كانت في نفس مكان صورة كلب ضال معلقة الأسبوع السابق. في الحي الذي أعيش فيه، يختفي الشيوخ كما تختفي الكلاب، ويعلنون عنهم في أكشاك الجرائد وفي مظلات محطات الباصات وأيضا على أعمدة الإنارة. أحيانا يفكر المرء أن الشيوخ والكلاب يهربون معا. وكذلك يتبخر الشباب، وبخاصة الفتيات. مختفية، في الخامسة عشرة، ترتدي بنطلون جينز وبلوزة زرقاء. وكان في واجهة المخبز إعلان دائم عن مختفية تنظر إليك من صورة سيئة، أحيانا صورة ملتقطة من فوتوماتون[42]، وكان الواحد يغض بصره إذ من الصعب النظر لفتاة مراهقة مختفية.

علقت معي ملامح العجوز وفكرت أن مقابلته بالمصادفة ومنح البهجة لعائلته قد يكون شيئا مفرحا. وفي الباص، ركزت في سيد كبير يحمل في يده مجلة Hola [43]. كانت HOLA قذرة، كأنها خارجة من سلة زبالة أو حاوية قمامة؛ لم تكن بشكل واضح جزءا

(42) الفوتوماتون ماكينة تصوير آلي موجودة بالشوارع [المترجم].

(43) مجلة هولا: مجلة إسبانية مشهورة تهتم بفضائح الأغنياء في إسبانيا والعالم من أخبار وصور عارية، وأكثر قرائها من الطبقة غير المثقفة. وhola تعني مرحبا.

من عاداته القرائية. ورغم أنه لم يكن عجوزي، إلا أني تكرست لمراقبته ورأيت أنه قبل أن ينزل في محطة لا كاستيّانا يخرج مشطا من كيس بلاستيكي (انتبهت إلى أنه يضم كذلك فوطة صغيرة) وكان يمشط عدة خصلات بيضاء ومنكوشة بجانب أذنيه. استنبطتُ أنه كان رجلا بلا بيت ومتسولا. وبلا شك كان قد نام في أحد مداخل بنايات حيي والآن يتوجه ليتسوّل في وسط البلد.

نزلتُ وراءه، ولأن الوقت كان مبكرا جدا قررت السير حتى المكتب، لكن العجوز سريعا ما اتخذ قِبلة غير قِبلتي. الحياة ملغزة، فكرت في ذلك، لعله سيطلب الآن صدقة في إحدى إشارات المرور، أو ربما يزور بيت ابنة ستدعوه مكرهة إلى الإفطار. ربما يكون عجوزا مفقودا ملصوقة صورته في مظله حي آخر. تناولتُ القهوة هناك ووصلتُ إلى مكتبي في التاسعة إلا عشر. حكيت لزميلي قصة العجوز المفقود.

- الآن أركز في كل الشيوخ، لكني أظن أنه من المستحيل أن أصادفه، ستكون مصادفة مفرطة.

- لا تصدق -قال- هناك مؤسسة متخصصة في البحث عن السيارات المسروقة. يعلنون أرقام السيارات ويرصدون مكافأة لمن يعثر عليها. أنا نفسي، في فترة ما، كنت أراقب لوحات السيارات وأنا في طريقي للعمل، وكنت محظوظا أن عثرت على سيارتين مختفيتين في شهر واحد. هي مسألة حظ. بالطبع لا يحمل الشيوخ لائحة، ها ها.

لم يكن قد خطر لي أن السيارات أيضا كانت تختفي. سيارات، كلاب، شيوخ، مراهقون. متوسطو الأعمار، أمثالي، وحدهم من لم يكونوا يختفون ولا حتى بالموت. وشخصيا، لم أختف قط. حاولتُ

أن أفكر في نفسي كرجل مختفٍ، وحسبت الفراغ الذي قد يتسبب فيه غيابي في حياة الآخرين. فراغ صغير، نوع من فتحات المنفس سريعا ما يعبّأ بأشياء أخرى (كلاب، سيارات، أشخاص) بينما سيتحرك جسدي في أحياء بعيدة عن حيي. كنت أتخيل نفسي راكبا باصا لم أركبه قط.. باصا يقوم برحلة مجهولة لي بالكامل. وكنت أرى نفسي بكيس بلاستيكي أحتفظ في داخله بأشياء لحياتي الجديدة: مشط بالطبع، وفوطة لا تشغل مساحة. وربما مجلة HOLA، لكنها HOLA التي أضطر لأخذها من القمامة. وبدا لي مفارقة أن تظهر مجلة صقيلة في القمامة، مع كل هؤلاء الملوك والأمراء والبنكيين بداخلها. كنت أتخيل نفسي أقرؤها كأني أفك شفرات رسائلها من بُعد آخر. زوجتي تشتري هذه المجلة. تخجل من الاعتراف بذلك وتقول دائما إنها أخذتها من بيت صديقتها، لكني أعرف أنها لا تكذب. وأنا أحيانا أتصفحها وأتساءل ما علاقتنا نحن بكل هؤلاء الناس أصحاب الأخبار العبثية الذين يحققون، مع ذلك، نجاحا عالميا.

فكرت أني حين أختفي سأتذكر زوجتي في كل مرة آخذ فيها مجلة HOLA من سلة الزبالة، وتحركتْ مشاعري بحماقة. بعدها، وبالليل، بعد العشاء، كنت على وشك أن أحكي لها عن العجوز الضال، لكنها شغّلت التلفزيون في الحال ولم يبد لي حسنا أن أقاطعها. بعد ذلك، وفي السرير، بدأتْ تقرأ HOLA التي كانت على الطاولة، وانتبهتُ إلى أني أحبها، أحبها جدا، لكني لم أعثر على اللحظة المناسبة أيضا لأقول لها ذلك.

الأعرج الناقم
EL COJO CONTRARIADO

بعد الضجر من اللف في مرآب السيارات بـ هايبر من دون العثور على موقف واحد خال، دخلت في الساحة المحجوزة للمعاقين. لكني لم أنته من فك حزام الأمان حتى انتبهت إلى أن الحارس كان يراقب حركاتي من بعد ثلاثة أو أربعة أمتار. خرجت من السيارة وتصنعت أني أعرج وعبرت ذاك المكان القاسي وأنا أعرج بساقي اليمنى. من حين لآخر كنت ألتفتُ برأسي لأرى إن كان الحارس قد غيّر موقفه المرتاب، لكنه لم يغيره. كذلك، عندما وصلتُ إلى باب المحل، أدركتُ أنه يستعد لمتابعتي، وبالتالي لم أجد مفرا من مواصلة التصنع بالعرج.

انتبهتُ في الحال إلى أني اخترت العرجة الأكثر إنهاكا، إذ بعد برهة بدأ فخذي يؤلمني بوحشية. وخشية أن يصيبني شد عضلي، بدلت العرجة من ساق لأخرى في ممر معجون الأسنان حتى استريح. كان العرج بالجانب الأيسر مريحا في البداية، لكن حين وصلت إلى منطقة الزيوت كنت منهكا من جديد. نظرت حولي ولم أر الحارس، هكذا بدأت أسير بشكل طبيعي، لكن منتبها لظهور صاحب الزي الرسمي، فربما أحتاج إلى استعادة الإعاقة فجأة.

وفي قسـم الأسـماك فكـرت في أن رجـلا معاقـا بالفعـل قـد يكـون دائخـا في المـرآب مـن دون العثـور عـلى مـكان لركـن سيارته وشـعرتُ بتأنيـب ضمـير، وبالتـالي بـدأت أعـرج مـن جديـد، لكـن كتكفـير عـن الذنـب هـذه المـرة. حينئـذ عـبرت بقسـم يبيعـون فيـه عكاكيـز فاشـتريت عـكازا رخيصـا جـدا لـه رأس كلـب عنـد المقبـض. الآن يصـير العـرج متعـة. ثـم اخـترت عرجـة أكـثر أناقـة مـن السـابقة وشـعرت بـأني عـلى مـا يـرام إلى حـد أني وصلـت لأسـأل نفسي إن لم أكـن أعـرج مجـبرا عـلى السـير باسـتقامة بسـبب ضغـوط المحيطـين بي، بنفـس طريقـة كثيريـن مـن العُـسْر[44] الذيـن يكتبـون باليـد اليمنـى بسـبب نفـس الضغـوط. الصعوبـة الوحيـدة كانـت دفـع العربـة بيـد واحـدة، لكـن حتـى ذلـك، بمجـرد مـا تجولـت بهـا كيلومـترا أو كيلومتريـن، تعـودت عليهـا دون صعوبـة. وعندمـا خرجـت مـن ناصيـة التوابـل رأيـت الحـارس الـذي كان يتابعنـي مـن ظهـره، وهـذه المـرة كنـت أنـا مـن يسـعى للتقـدم إليـه حتـى أقـضي عـلى ارتياباتـه في هـذا الموقـف.

في اليـوم التـالي، ذهبـت إلى المكتـب بالعـكاز وأعلنـت أني أصبحـت أعـرج. كثـيرون ضحكـوا، لكـن بعـد يومـين أو ثلاثـة كانـوا قـد اعتـادوا. وكنـت أتعامـل مـع الأمـر بـكل سـهولة حتـى إني هاتفـتُ أمـي.

- يا أمي، قولي لي شيئا: هل أنا أعرج؟

توقعـت في الحـال أنهـا ذُهِلـتْ لأنهـا سـعلتْ عـدة مـرات. وكانـت كلـما ارتابـتْ سـعلتْ. ثـم سـمعتها وهـي تتحـدث مـع أبي.

- إنه الطفل -قالت- أعتقد أنه انتبه إلى أنه أعرج.

- إذن قـولي لـه الحقيقـة مـرة واحـدة -سـمعت أبي يـصرخ- لقـد بلـغ الخمسـين. بلـغ سـنا يتحمـل فيهـا مشـكلاته.

(44) من يكتبون باليد اليسرى.

عـادت أمـي إلى التليفـون وقالـت إنـه ليـس موضوعـا يُناقـش في التليفـون، وإنهـا تفضّـل أن أذهـب لأتغـدى معهـما في البيـت في اليـوم التـالي لنتحـدث عـلى مهلنـا عـن الموضـوع. لكنـي ألححـتُ كثـيرا حتـى إنها قالـت «نعـم» في النهايـة، إني أعـرج، وشرعـتْ في البـكاء.

- ولماذا داريتما عني ذلك كل هذه السنوات؟

- حتى لا تتألم، يا بني.

- لكـن مـا كان يؤلمنـي هـو السـير باسـتقامة يـا أمـي، فمنـذ بـدأتُ أسـير بعـرج توقفـت آلام الظهـر وتوقـف الأرق. وكذلـك فـإني أركـن سيارتي في هايـبر مـن دون مشـكلة.

ابتهجـت أمـي جـدا مـن كل مـا كنـت أقولـه، لكنهـا طلبـت منـي ألا أعلـن ذلـك.

- لا أحد يعرف ذلك في عائلتنا.

- وماذا لو عرفوا؟

- لا أعرف يا بني. افعل ذلك من أجل خاطري.

كان زواج ابنـة عمـي في الأسـبوع التـالي واضطـررت لأتصنـع بـأني غير أعـرج مـن جديـد. السـيئ في الأمـر أن مـن بـين مدعـوي العريـس كان حـارس هايـبر، فنظـر لي بوجـه عابـس.

- أنـا أعـرج -قلـت لـه في لحظـة تصادفنـا- لكـن أمـي سـيدة مهووسـة بالمظاهـر وفي الاجتماعـات العائليـة تجـبرني عـلى التخفـي.

لم يكـن للعبـارة أي جـدوى. وفي السـبت التـالي، في هايـبر، كنـت سأركن سيارتي كالعـادة في المسـاحة المخصصـة للمعاقـين، فظهـر وهـو يهز عصـاه. لم أركـن بالطبـع، لكنـي عـلى أي حـال قمـت بالـشراء وأنـا أعـرج.

المتشاجر
EL DISCUTIDOR

أسافر وحدي كثيرا. أو هذا ما أتمناه، أن أسافر وحدي، فالحقيقة أني بمجرد ما أركب السيارة أبدأ في النقاش مع شخص متخيل يجلس في المقعد المجاور. بالأمس، حتى لا أذهب بعيدا، حدثت مشاجرة متخيلة مع زوجتي. لقد أصرت أنه حتى نصل إلى شارع خوان برابو[45] من الأفضل أن نهبط من شارع برينثيبي دي بيرجارا[46] وأن نلف يسارا. فقلت لها إنه ممنوع في هذا التقاطع اللف يسارا فسخرت مني.

- يبدو أكذوبة أنك تقضي اليوم في السيارة وحتى الآن لا تعرف الشوارع. قالت.

سرت من حيث قالت لي لأضايق نفسي ثم دفعتُ في وجهها ثمن التهاب معدتي، لكن حين وصلنا إلى خوان برابو وبدأتُ في الصراخ كانت زوجتي قد اختفت وفي مكانها كان يجلس مديري في العمل. قال إن أدائي قد تراجع كثيرا في الفترة الأخيرة، ولو واصل أدائي هكذا فسيضطر لاتخاذ موقف.

- إلى أين تذهب الآن؟ سأل.

---

(45) خوان برابو: نبيل من سلالة عريقة شارك بحروب كثيرة.

(46) برينثيبي دي بيرجارا: قائد عسكري شارك بالحروب الفرنسية الإسبانية.

قلت له لأرى عميلا بشارع خوان برابو، فوضع يده على رأسه.

- لكـن ألا تعـرف إلى الآن أنـه ممنـوع اللـف يسـارا مـن برينثيبـي دي بيرجـارا؟ أيـن رأسـك؟

لم تكـن المسـألة تسـتدعي أن أقـول لـه إني أخـذت هـذا الطريـق بسـبب زوجتـي، هكـذا بـررتُ قائـلا إني معتـاد تنـاول القهـوة في حانـة تقـع عـلى بُعـد شـارعين مـن هنـا.

- تتنـاول الكثـير مـن القهـوة -وبّخنـي- في العمـل بالشـارع يجـب أن تعـرف التخطيـط جيـدا، خاصـة في مدينـة مثـل هـذه. الآن أفهـم لمـاذا يتـسرب منـك اليـوم.

هنـا طفـح الكيـل، لأن الحقيقـة أني أقـوم بزيـارات أكـثر مـن نصـف زملائي. هكـذا قلـت لـه بغضـب مـا:

- لكني أقوم بزيارات أكثر من النصف.

- لكن بنتائج أقل.

لم يكـن مفيـدا في شيء أن أذكّـره بـأني في التدريـب السـابق قـد غطيـت أهـداف مبيعـات العـام كامـلا في منتصـف سـبتمبر، ولا أني في هـذا الشـهر قـد أغلقـت بالفعـل عمليـة تزيـد عـلى مليونـين. كان قـد قـرر أن يضايقنـي، وواصـل في قـول «لكـن» عـلى عمـلي. ربمـا في ظـروف أخـرى كان مـن الممكـن أن أسـيطر عـلى نفـسي، لكنـي كنـت غاضبـا جـدا مـن النقـاش المتخيـل مـن قبـل مـع زوجتـي، فلعنتـه.

- أتعرف ما أقوله لك؟ اشرب من البحر.

لم أكـن أجهـل أنـه في اليـوم التـالي كان ثمـة اجتـماع عـلى مسـتوى عـالٍ لتعيـين مديـر المنطقـة الجديـد، فالسـابق كان قـد مـات. كنـت أعـرف كذلـك أني أحـد المرشـحين للمنصـب. واسـتنتجت أن مديـري كان ينتظـر أداء خانعـا، إذ يفضّلـون في مؤسسـتي الأمزجـة الخاضعـة أكـثر

من المهنيين المتفوقين. لكنني لم أستطع السيطرة على نفسي، وهكذا رفضتُ الترقية ورفع الراتب، وكل شيء. وحين أدرتُ وجهي لأعتذر، كان رئيسي قد اختفى وفي مكانه كانت زوجتي جالسة من جديد. أثناء ذلك كنت قد وصلت إلى بوابة «ألكالا»، حيث لم يضع مني شيء. عندما أتناقش، أفقد بوصلتي.

- لابد أنك سعيدة -قلت لها- لقد ضحيت بالترقية بذنبك.

- أي ترقية، أي ذنب، عن ماذا تتحدث؟

شرحت لها بأنه أغضبني جدا إصرارها على العبور من شارع برينثيبي دي بيرجارا ثم فرغت كل غضبي في مديري.

- أنت أحمق. أجابت باحتقار، وبدأنا في الشجار من جديد.

الملفت أني لست متزوجا، ولا أعمل في أي مكان. ولا حتى لديّ سيارة. لكن يستحوذ عليّ مزاج شجار غير معتاد. أقضي حياتي متشاجرا مع أناس متخيلين، كأني لا أكتفي بمشاجراتي مع أمي. بالإضافة لذلك، لا أعيش في مدريد، إنما في بالينثيا[47]. لكن حين أصل إلى البيت، أمسك بخريطة للعاصمة وأركب سيارة متخيلة -سيارة سيات توليدو أوتوماتيكي- وبينما أتنقل من هنا إلى هناك أتشاجر مع زوجتي، مع رئيسي في العمل، مع الحراس.. أحاول أن أقلد الناس، لكنني لا أصيب، لأني في العمق شخص هادئ. لو كان باختياري لهجرت أمي، ولتوجهت إلى مدريد لتكون لي حياة حقيقية. لكن أمي أيضا متخيلة، وليس بوسعي أن أتركها وحدها في هذه الظروف.

(47) بالينثيا: مدينة إسبانية تقع شمالا وهي في محافظة (كاستيا غي ليون) - قشتالة.

وكانت تمطر وتمطر
Y LLOVIA Y LLOVIA

حين رن المنبه، كنت نائما على جانبي الأيمن. لابد أني كنت في نفس الوضع طوال الليل، إذ لاحظت أن أحشائي قد انتقلت ناحية هذا الجانب. حتى لساني قد سقط من أثر الجاذبية، مثلما يحدث حينما تقلب علبة أقلام رصاص ويبقى جزء من العلبة فارغا. جزء من جسدي كان فارغا تماما، بينما الرئتان والكليتان والكبد والبنكرياس كل ذلك غدا مكوّما في الجانب الأيمن. أول ما فكرت فيه، بالطبع، أنه مجرد إيحاء. فالأعضاء تخضع لجدران الجسد بنظام دقيق جدا. ولم يكن ممكنا هذا التنقل الداخلي. سمعتُ زوجتي تنهض وتصنعتُ أني نائم. وكانت عيناي ما تزالان مغمضتين. وكانوا يذيعون في الراديو أن هناك ازدحاما مروريا بطريق M 30 وآخر بـ لا كاستييانا، لأنها كانت تمطر وتمطر.

حين شعرتُ بأن زوجتي محبوسة في الحمّام، تقلبتُ لأنام على ظهري فتعود الأحشاء إلى وضعها الأصلي، لكن الرئة اليسرى هي الوحيدة التي عادت. واللسان. فيما بقيت الأعضاء الأخرى عالقة لسبب ما غير مفهوم. تقلبتُ بعدها على الجانب الأيسر لأرى إن كانت الجاذبية المفرطة ستجبرها على العودة لمكانها، لكن الوضع

استمر كما كان. نهضتُ حائرا وجلستُ على طرف السرير. كان الراديو يذيع أن سائقة تاكسي ولدتْ داخل سيارة بمساعدة راكب، رغم أن ما يحدث عادة هو العكس: الراكبة تلد بمساعدة السائق. وكانوا ينصحون بعدم المرور من طريق M 40 من بين خبرين آخرين لم أنتبه إليهما، إذ انقلبت شاحنة نقل وكانت تمطر وتمطر.

خرجت زوجتي من الحمّام وعادت إلى غرفة النوم، سألتني إن حدث لي شيء، قلت لها لا، لا شيء. وبدا لي أن أعراض ما كنت أعاني منه في ذاك الصباح ليست حقيقية جدا. فانتظرتُ حتى خرجتْ من الغرفة، وحين هممتُ بالنهوض سقطتُ على جانبي الأيمن، إذ ثقل كل جسدي، باستثناء الرئتين المكونتين عمليا من الهواء، كان في هذا الجانب. نهضتُ مرة أخرى ووصلتُ بجهد إلى الحمّام، أديت بعض تمارين التوازن لأرى إن كان ممكنا إخفاء هذا المرض الجديد، أو أيا كان اسمه. ثم خطرت لي فكرة. زوجتي تهوى الغطس وتحتفظ في الدولاب بحزام رصاصي تحمله كلما راحت إلى البحر. أخذته ولففته حول ساقي اليسرى وغطيته برجل البنطلون. وحاولت أن أسير هكذا ورأيت أني غير مضطر لبذل جهد كبير لأحافظ على توازني. قررت ألا أفطر حتى لا أضيف وزنا للمعدة، التي كانت في الجانب الأيمن. لكن زوجتي انتبهت، من دون أن تسألني عن شيء مخافة أن أحدثها عن مرض جديد. هي تبغض أمراضي، أعراضي. وتعتقد أني أمرض لأضايقها، رغم أنها حين كنا مخطوبين كانت تقابلها بمرح. وفي الباص، ورغم الوزن المضاد، سقطتُ مرتين حين توجهت لأمسك بالشريط بيدي اليسرى.

أشعلتُ السيجارة الأولى في المكتب، لأرى ماذا سيحدث، لكن لم يحدث شيء. وصل الدخان بطبيعية إلى رئتيّ، رغم أني لم أشعر في

المعدة بهذه الوخزة المميزة للسيجارة الأولى. وحين ركزت انتباهي أكثر، بدا لي أني من دون كبد ولا كليتين، ولا بنكرياس، ولا شيء من شيء. فجأة أصبحتُ خاويا، فقط برئتين هوائيتين في منتصف صدري. نهضتُ لأواجه دفعة الرعب فسقطت على جانبي الأيسر بسبب الحزام الرصاصي. ولحسن الطالع، لم يكن أحد في المكتب في تلك اللحظة. فخلعت الحزام وسرتُ من جانب لآخر بالمكتب بخفة مدهشة. وكان الحذاء يبدو لي ثقيلا جدا. ثم اضطررت للف الحزام الرصاصي مرة أخرى، هذه المرة في مكانه، حتى لا أرتفع وأنا أمر بالممر عند خروجي لتصوير ورق.

وبالليل، رأت زوجتي الحزام الرصاصي خارج مكانه وسألت ماذا يفعل هنا. قلت إني لم ألمسه، لكن وجهي احمر في نفس الوقت، وبالتالي انتبهت إلى أني أكذب. ربما فكرتْ أن لديّ أي انحراف جنسي أمارسه بهذا الحزام. وفي السرير، قررتُ أن في اليوم التالي سأستيقظ بوهم أني فقدتُ ذراعي اليسرى، وسأرى كيف ستسير الأمور. ونمنا وكان الراديو مفتوحا، وقبل أن أفقد الوعي سمعتُ أنهم حفروا حفرة في ميدان كاستييانا ودفنوا فيها أربع سيارات وكانت تمطر وتمطر.

ثياب الميت
LAS ROPAS DEL DIFUNTO

لم ترغب الأرملة في التخلي فورا عن ملابس زوجها الميت، غير أنها بعد أشهر قليلة، وكلما فتحت الخزانة ورأت معاطفه وقمصانه وربطات عنقه بجانب بلوزاتها وتنوراتها، بدأتْ تحزن أنها لم تتخذ قرارا من البداية.

لديها الآن خزانة أرملة تلوث كل ما يدخل أو يخرج منها، واستطاعت أن يستمر الميت حيا في ذاكرتها، لكن في مقابل أن تموت هي نفسها بطريقة ما. فملابسها الداخلية باتت تفوح منها رائحة جنازة، وسرير الزوجية كان يبدو كالنعش.

كانت تنام بجسد حاضر، حتى نَصِف ذلك سريعا، وكانت ترتجف بين البطاطين كأنها متلحفة بملاءة من الرخام. وبشعور بالذنب، جرّبتْ أن تهادي حارس البناية معطفا لتتخلى رويدا رويدا عن أشياء الميت، لكن ذلك لم يحسّن الوضع. إذ كلما نزلت السلالم ورأت الرجل من ظهره كان يبدو لها أن مدخل البيت يتحول إلى قبر. فكرت في ترك المكان، لكنها كانت كسولة وفضّلتْ أن تستسلم لهذا الشكل الهزيل من الحياة.

حينذاك تعرّفتْ على أرمل وبدأتْ تخرج معه. كان رجلا مريحا، مهذبا، طويلا، مهندما، رغم أن ملابسه تفوح منها رائحة

جنازة. وذات يوم أدركت أن الرجل ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبته هي بالملابس، وقالت له ذلك:

- لابد أنك تحتفظ في الخزانة بملابس زوجتك.

- لماذا تقولين ذلك؟ سأل وبدا متحفظا، إذ اعتقد أنه لوم من عاشقة.

- لأنك تفوح منك رائحة أرمل كما تفوح مني رائحة أرملة. لن نستطيع أبدا التخلي عن تلك الرائحة. لن نكون سعيدين إذا لم نتخل عن تلك الرائحة.

وخلال الأيام التالية، فكرا في حلول متعددة. كان إهداء الملابس بعد كل تلك الفترة يبدو فعلة شريرة، كأنه إهداء الجثة بطريقة ما. يجب إهداء ملابس الموتى قبل أن يبرد الجسد. بعد ذلك تتحول إلى أكفان.

ما من شيء أكثر حزنا من بدلة ميتة، قالا ذلك ذات يوم وهما يضعان على سريرها ملابس زوجها الميت ليفسحا مكانا في الخزانة. وكان ثمة انطباع بأن المعاطف توقفت عن التنفس من قبل الانتحاب. واتصلتْ بالأبريشية، لكن القس حين رأى المشهد قال إنه لا يمكن أن يقبل تلك الأكفان. ثمة فارق بين التبرع للفقراء بملابس مستعملة والتبرع بأكفان.

وبكت المرأة وبكت، إذ كانت تدرك أنها لن تستطيع أن تبدأ حياة جديدة ما لم تتخل عن كل تلك الملابس.

وفي النهاية خطر للأرمل فكرة أن يأخذ الملابس كلها إلى محل تنظيف الملابس ثم يتركها هناك. بدت لها فكرة جيدة وهذا ما فعلاه. حقيقة أن الفراغ الذي تركته الملابس في الخزانة كان يشبه في البداية نخر الأسنان، حفرة صغيرة، لكن شيئا فشيئا كان الثقب

يمتلئ بملابس أحياء بدؤوا يبعثون من بين الموتى فيندمجون من جديد في الحياة وفي الكافيتريات. لم يصل الأرمل والأرملة إلى إقامة علاقة، غير أنهما كانا يلتقيان كل ظهيرة ويتناولان الجاتوه بالكريمة. ويوم الأحد كانا يتغديان معا، سواء في بيتها أو في بيته. واعتادا أن يطبخ كل واحد منهما حين يجد نفسه في بيت الآخر، وكانا يدفعان تذاكر السينما مناصفة. ولم يتحدثا قط عن محل تنظيف الملابس، ولا عن الملابس المنسية هناك كطفل غير مرغوب به ألقياه في مدخل بناية.

وذات يوم كانا في كافتيريا في انتظار فنجانَي قهوة وقطعتَي جاتوه عندما طلبت منه أن ينظر إلى رجل جالس في المنضدة المجاورة.

- إنه يرتدي معطف زوجي.

- يشبه معطف زوجك يا امرأة. أجابها.

- لا.. لا، أنا أعرفه لأن ثمة زرا مكسورا في الكم، ألا تراه؟ والجيب حيث كان يضع المفاتيح به علامة.

رمق الأرملُ بدقة معطفَ الرجل الجالس على المنضدة المجاورة ولم يشعر بقوة ليعارضها. هو نفسه اضطر للاعتراف لنفسه بأنه منذ فترة ينظر إلى كل النساء على أمل العثور على امرأة ترتدي ملابس زوجته الميتة.

أدرك حينئذ أن تلك العلاقة لا مستقبل لها، وعند الوداع قبّل الأرملة بطريقة خاصة ولم يعد للاتصال بها. ولا هي فعلتْ ذلك.

فتاة التلفزيون
LA CHICA DE LA TELE

في ناصية شارع لوبيث دي أويوس مع برينثيبي دي بيرجارا كان ثمة زوجان يتشاجران. كانت المرأة تبكي وكلما زاد بكاؤها، زاد هو في عدوانيته. اقتربتُ في الخفاء وتوقفتُ أمام فاترينة محل موبيليا. حينئذ قالت المرأة:

- إذن لو أردتَ، نضعه في الصندوق الخلفي.

لم أفهم إلى ما تشير، غير أن الصوت بدا لي مألوفا وانتبهتُ إلى أنها فتاة النشرة الإخبارية. كانت أكثر نحافة إلى حد ما من الشاشة، وكان بصوتها نبرة حادة لم ألتفت إليها في التلفزيون، لكن يجب ألا ننسى أنها كانت مُثارة لمسألة صندوق السيارة. حينئذ، لفتَ هو انتباهها لوجودي وسارا لخطوات قليلا مكتومَين.

وفي اليوم التالي، حين بدأت الأخبار، ركّزتُ في الفتاة والتفتُّ إلى أنها قد بكتْ. لكن المُشاهِد الأقل تركيزا، أو من لم يحضر مشاجرة اليوم السابق، لا يمكن أن يلاحظ ذلك لأن المكياج كان مبهرا. أغلب الظن أنها وضعتْ قطرة للعين أيضا حين يلمع بؤبؤها. لكن في عمق العينين كان يُلاحظ بقايا التعب. شعرتُ بحزن، حقيقة.

وخلال الأيام التالية، راقبتها بتركيز وأدركتُ أن الأمور بين الفتاة والرجل لا تسير على ما يرام. كان وجهها عابسا، رغم المكياج، ولم يكن شعرها مفرودا كالعادة. قلت ذلك لزوجتي:

- هذه الفتاة في حالة متدهورة.

رفعت زوجتي رأسها من المجلة وقالت إنها لم تلاحظ عليها شيئا.

- كيف لم تلحظي عليها شيئا؟ لو رفعتِ نظرك، ألا ترين أنها كانت تبكي للتو؟

- كيف كانت تبكي؟ بالإضافة لذلك، هناك الآن قطرات ومساحيق تقلل التعب. يمكن أن تبكي طوال اليوم من دون أن يعرف أحد.

وحين لاحظتُ أنها تعارض من أجل المعارضة، تركتها تعود إلى مجلتها وواصلتُ مراقبة الفتاة. فكرت أني لو كنتُ أباها، لكنت تكلمتُ مع هذا الرجل الذي سبّب لها كل هذا الضيق. ولكنت طلبت منه أن يستخدم صندوق سيارته. ليس غريبا أن تتورط هذه النساء اللاتي يظهرن في التلفزيون مع رجال سيئين يستغلون شهرتهن ليحظوا بنجاح. من ناحية أخرى، ثمة أناس يحملون في صناديق سياراتهم جثثا. وصليت من أجل ألا تكون المسكينة متورطة في جريمة.

أثناء ذلك، بدا لي أن الفتاة، بين خبر وخبر، كانت تومئ بفمها إيماءة كطلب نجدة.

- هذه الفتاة تطلب النجدة. قلتُ بصوت عالٍ.

- أنت مختل. علقت زوجتي.

وظللت، طوال الأسبوع، أراقب بدقة كل تعبيرات وجهها ووصلت لخلاصة أنها تطلب المساعدة، من دون أي ذرة شك.

لم أكن أعرف ماذا أفعل. كان يمكن أن أهاتف القناة التلفزيونية، لكن ربما لا يصدقونني.

في تلك الظهيرة، توجهتُ إلى ناصية برينثيبي دي بيرجارا مع شارع لوبيث دي أويوس في نفس الساعة التي صادفتها فيها المرة السابقة. فكرتُ أن الفتاة ربما تعيش هناك وأكون سعيد الحظ فأقابلها. انتظرت ربع ساعة دون أن يظهر أحد، وحين يئستُ تنزهت حتى حانة «فيبس»[48] الواقعة على ناصية شارع بيلاثكيث لأتناول زجاجة مياه معدنية. جلستُ على البار وأشعلت سيجارة، وحين التفتُّ لألقي نظرة على المشهد، رأيتهما جالسين على منضدة قريبة. كانت ترتدي نظارة شمس، رغم الظلام السائد، وكان ذلك علامة على أنها تبكي من جديد. وربما كانت في تلك اللحظة تبكي. وفجأة، مع ذلك، أطلقتْ قهقهة. بعض الزبائن التفتوا لأنها لم تكن قهقهة عادية. ربما كانت تحاول لفت الانتباه. انتظرتُ قليلا وعندما نهضتْ لتدخل الحمّام اقتربتُ من المنضدة وكلمتُ الرجل.

- اسمعني جيدا، لأني لن أكرر لك ما أقوله مرة أخرى يا معتوه: لو استمررتَ في إيلام هذه الفتاة، فسأسبب لك مشكلة. أعرف الكثيرين في الشرطة، وربما أنا نفسي رجل شرطة. وشيء آخر: حين تحب أن تخبئ ميتا، افعل ذلك في حقيبة سيارتك أنت.

أدركتُ من تعبير وجهه أني ضغطتُ على الجرح، وخرجتُ إلى الشارع قبل أن تعود الفتاة من الحمّام. وفي اليوم التالي، شاهدتُ نشرة الأخبار بتركيز وانتبهتُ إلى أن للفتاة نظرة خاصة، كأنها تحاول أن تشكرني. حكيتُ كل ذلك لزوجتي، لكنها لم تنصت إليّ.

(48) سلسلة مطاعم للوجبات السريعة مشهورة في مدريد.

راحة غريبة
UN RARO BIENSTAR

على باب أحد المولات التجارية بشارع «جران بيا»[49]، كان ثمة كشك صغير يبيعون فيه ساعات بستة يوروات. اقتربتُ لألقي نظرة، ووقفتُ بجانب سيدة وطفل (افترضتُ أنه ابنها) وكان في التاسعة أو العاشرة. في تلك اللحظة كانت السيدة تقول:

- لو لم تختر الآن أي ساعة فسننصرف في الحال، لقد مللتُ من الانتظار.

كان الولد يضع يده في مجموعة ساعات بتعبير استياء، ويسحب واحدة لها إطار حافل بمعلومات لكنها لا تشير إلى الوقت.

- يا للعفن الذي اخترته -قالت المرأة- ألم تعجبك إلا هذه؟

كانت المرأة قد اختارت ساعة أخرى لا علاقة لها كذلك بالتوقيت، لكن كان يبدو أن حزامها معدني. كان الطفل ينظر إليها ويتردد بين ما تقترحه أمه وساعة ثالثة سوداء تماما، كأنها من المطاط ربما تفيد لمعرفة درجات الحرارة لأني لم أستطع رؤية التوقيت فيها. لقد كنت أبحث في كل الساعات عن التوقيت بهاجس يشبه من يبحثون عن قِطٍّ بثلاث أرجل، ولم أعثر عليه

---

(49) جران بيا: معناها بالإسبانية الشارع الكبير وهو شارع مهم في وسط مدريد.

قَـطُّ. ولا رأيـتُ قِطـا بثـلاث أرجـل. فـكل القطـط التـي أعرفهـا لهـا خمـس أرجـل أو سـت.

وعندمـا رأت المـرأة أن الطفـل لم يخـتر الساعة التـي اقترحتهـا، كـررتْ لـه أنهـما سينصرفان مـن دون شيء. اسـتمر المشـهد عشريـن دقيقـة، وفي النهايـة اختـار الطفـل، بتوتـر كامـل، السـاعة التـي اختارتهـا الأم.

الخطـير في الأمـر أنـه ظـن أنهـا تـروق لـه، أو هـذا مـا بـدا لي. كرهـتُ هـذه الأم كأنهـا أمـي، وعندمـا ابتعـدا خطـوات اشـتريتُ أنـا السـاعة التـي راقـتْ للطفـل. ثـم ركبـتُ المـترو وراءهـما واسـتغللت إحـدى حـركات العربـة لأدس السـاعة في جيـب الطفـل مـن دون أن ينتبـه هـو أو أمـه.

نمـتُ أفضـل في تلـك الليلـة. الأفعـال الخـيِّرة عـادة مـا تسـبِّب لي شـعورا براحـة غريبـة. مـن أجـل ذلـك أفعـل القليـل مـن الخـير: لأن الراحـة غريبـة وتمنعنـي عـن الكتابـة. حـين أشـعر بالسـعادة، أكـره الكتابـة، وهـي أكـثر مـا يـروق لي. يبـدو أنـه مـن المسـتحيل أن يكـون المـرء سـعيدا وفي نفـس الوقـت يفعـل مـا يحـب. هـذه مفارقـة لم تعالجهـا الفلسـفة بشـكل كافٍ. لا أعـرف مـن قـال إن النـاس عـادة مـا ينجحـون في خططهـم البديلـة، لأنهـم لـو نجحـوا في خططهـم الأولى فسـيبلغون مسـتوى مـن البـؤس لا يمكنهـم تجـاوزه بالفعـل.

انظـر إلى سـالنجر[50]، الـذي تعرّفنـا إليـه بفضـل السـيرة التـي كتبتهـا ابنتـه (يـربّي الغربـان) والتـي كُتِبـت بحرفيـة كيـف كان يتطهـر بـشرب بولـه ذاتـه. وكل ذلـك قبـل أن يكتشـفوا العـلاج بالبـول ويقننـون، بالتـالي، هـذا المـاء المذهـب.

(50) دافيد سالنجر: كاتب أمريكي معروف (1919 - 2010).

في اليوم التالي، عدتُ للعبور من باب المول التجاري في نفس الساعة، وأدهشني رؤية الطفل وأمه أمام الكشك. اقتربتُ في لحظة وجهتْ الأم فيها صفعة للطفل وقالت:

- أعِد هذه الساعة في الحال.

أخرج الطفل الساعة التي دسستها في جيبه وسلّمها بخجل إلى البائعة.

- لكني لم أسرقها -قال- فقط وجدتها في جيبي.

- يكذب بنفس وقاحة أبيه. قالت المرأة يائسة.

بمجرد ما أعاد الساعة للموظفة المصعوقة، انصرفتْ الأم مع ابنها وعُدْتُ أنا لشرائها من جديد.

- هذه المرة الثانية التي أشتريها. قلتُ للبائعة التي لم تعرف بماذا تجيب.

أخذتُ الساعة إلى البيت وأهديتها من جديد لأحد أبناء الجيران، وأعجبته جدا لأنها لم تكن تعد الساعات. قلت له أن يعتني بها لأنها كلفتني الضعف وصدّقني الطفل ليغيب عن نظري في أسرع وقت ممكن.

في تلك الليلة كنت سأستغرق في النوم، سريعا لشعور براحة غريبة، حين انتبهتُ إلى أن تعبير «راحة غريبة» تعبير تكراري. الراحة دائما غريبة. ليس هناك راحة عادية كما ليس هناك جنس عادي.

حينئذ عرفتُ أن حكاية الساعة التافهة التي لا تشير إلى مرور الوقت ستظل في ذاكرتي بطريقة غريبة أيضا، مثل الراحة التي كنت ضحية لها.

في تلك الليلة نمتُ جيدا حتى إني لم أستطع كتابة نصف صفحة في اليوم التالي. لكن في اليوم التالي عاد ليتملكني الاستياء الطبيعي فغدوتُ سعيدا جدا لأني أنهيتُ فصلين.

تدبير الرب
LOS CAMINOS DEL SEÑOR

كان هـو يتوجـه كل ثلاثـاء إلى برشـلونة لمسـائل تخـص المؤسسـة، وكانـت هـي تتخيـل أنـه سـيبقى هنـاك للأبـد. كانـت برشـلونة في خيالهـا مكانـا غير واقعـي لا يمكـن لبعـض الأشـخاص أن يعـودوا منـه. مع ذلـك، كان زوجهـا يعـود ومـن دون أن يفقـد طرفـا مـن حقيقيتـه. ربما يمكـن أن نقـول إنـه كان يعـود أكـثر حقيقيـة مـما كان عليـه. وأيام الثلاثـاء، في النهايـة، كانـت أيامـا سـعيدة حتـى يـأتي الليـل وتسـمع احتـكاك مفتاحـه في الكالـون.

في هـذا الثلاثـاء، تنبـأتْ بـأن الطائـرة سـتتعرض لحادثـة وسـيهلك كل الـركاب. جاءتهـا النبـوءة مـن قبـل أن تنـزل مـن السريـر، بقـدم في الحلـم وأخـرى في الصحـو، وفكـرتْ أن هـذه الفكـرة سـتنصرف عـن رأسـها تحـت الـدش، أو عندمـا تجهـز القهـوة. وبعيـدا عـن ذلـك، كان الشـعور بـأن شـيئا سـيحدث يـزداد كلـما دخلـت الحيـاة الواقعيـة. وخـلال الإفطـار كانـت عـلى وشـك أن تطلـب منـه ألا يسـافر اليـوم إلى برشـلونة، لكنهـا اسـتطاعت أن تقمـع نفسـها وتودّعـه عـلى البـاب بـكل طبيعيـة. وهـو لم ينتبـه حتـى إلى أنهـا تودّعـه بطريقـة غريبـة بعـض الشيء، للأبـد.

حين بقيتْ بمفردها، فتحت الراديو وانتظرتْ بلهفة أن يقولوا الخبر. تأخروا أكثر من ساعة تقريبا، لكن ثمة طائرة وقعتْ، بالفعل، وكانت تلك التي يسافر فيها زوجها. أطفأت الراديو، لتوحي بأنها لم تطلع على الخبر بعد، وبدأتْ في القيام بمهامها المنزلية، وفي انتظار أن يرن التليفون من لحظة لأخرى.

جاءت ساعة الغداء ولم تتلق أي مكالمة بعد، لكنها لم تقلق إذ اعتبرتْ أن التعرف على الضحايا سيكون عملا شاقا جدا. المهم أنه قد مات. أكلتْ حبة طماطم بالملح والزيت، وجلستْ أمام التلفزيون من دون أن تركّز في البرنامج، إذ كانت تخطط لنفسها حياة فانتازية. ستبيع البيت الواقع في الضواحي، وستنتقل إلى وسط البلد لتكون قريبة من السينمات والمطاعم والصخب. لم يحب زوجها مدريد قط، لذلك عاشوا في الضواحي. وهي كانت تكره الضواحي. كان التأمين على الحياة مرتفعا جدا وكان يضاعف في حالة الحوادث. لن تواجه أي صعوبات حتى تتحسّن أحوالها. وفجأة، بدا لها أن من السهل نسبيا أن تحوّل خيالاتها إلى واقع. وشعرتْ بحسرة ضئيلة على بقية الركاب، لكن من دون أن تشعر بالذنب، إذ لم يكن ممكنا أن تحذرهم واحدا واحدا بنبوءتها. بالإضافة إلى أنهم ما كانوا ليصدقوها. فالنبوءات يُنظر إليها باحتقار.

في منتصف النهار بدأت تشعر بالقلق، لكنها فتحتْ الراديو وقالوا إنهم حتى لم يبدؤوا في مهمة التعرف على الضحايا. فكرت أن الغريب كذلك أنهم لم يهاتفوها من مؤسسة زوجها، وأرجعت ذلك إلى عجزهم. وفي السابعة دخنتْ سيجارة وأعدتْ كأس نبيذ أبيض باردا. منذ عام لم تدخن ولم تشرب، لكنها فكرت أن المناسبة تستحقها.

وفي الثامنة والنصف، عندما سمعتْ صخبا نابعا من الباب، أطلت على الممر ورأت زوجها يدخل بكل طبيعية. أول ما خطر لها أنه طيف. موتى كثيرون لا ينتبهون سريعا إلى أنهم موتى ويواصلون فعل نفس الأشياء التي كانوا يفعلونها وهم أحياء. «سأقول له إنه ميت؟»، فكرتْ، «وسيختفي في الحال».

وفي الحال انتبهتْ إلى أنه ليس ميتا. بالعكس، كان أكثر حياة من الصباح. واستنبطتْ أنه لا يذهب إلى برشلونة يوم الثلاثاء، إنما يقابل عشيقة ما في مكان منعزل جدا، إذ لم يعرف حتى بالحادثة.

- ألا تعرف أن طائرتك سقطتْ وأنك ميت، يا جبان؟

- ماذا تقولين يا امرأة؟

- إنهم حتى الآن لم يتعرفوا على جثتك، أم أنك لم تستمع للراديو طوال اليوم؟

احمر وجهه من الخجل، وتردد لثوانٍ إن كان يتصنع دور الطيف أم لا. لكن الطيف لا يأكل بشهية مفتوحة، وبالتالي فضّل الصمت.

- أنت ميت بالنسبة لي من الآن. قالت هي وانصرفتْ إلى السرير من دون أن تشاهد التلفزيون.

منذ ذلك اليوم، بدأ يقوم بدور الميت، وعلاقتهما، بشكل مذهل، تحسنت فوق الوصف. وفي أيام الثلاثاء، توقف عن أكذوبة أنه سيسافر إلى برشلونة وكانا يقضيانه معا، في السرير، كأنهما عاشقان سريان. واكتشفا النيكروفيليا في نفس الوقت، ومنذ عدة شهور عرفا متعة إنجاب أطفال أيتام. والآن، في النهاية، صارا عائلة سعيدة، طبيعية، عائلة من تلك التي تعرفها كل يوم وتودّعها كل ليلة. تدبير الرب عجيب جدا.

سيعرفون
SE VAN A ENTERAR

قلتُ للسائق أن يفتح الراديو، وأجابني بأنهم لا يقولون إلا حماقات. تفاديتُ إغواء أن أثبت له أني لستُ أحمق، أو أن الراديو ذكي. واقتصرت أن كررت له طلبي، من دون أي تعديل، لكن من مسافة: من فضلك افتحه. أمال الرجل رأسه وضغط على الزر. لابد أنه كان برنامجا عن كائنات خارقة، إذ كانت المرأة تؤكد أنه قد لبسها كائن نوراني في ممر بيتها.

- انحنيتُ لأنظف مقعد المرحاض -قالت- وعندما نهضتُ، بدلا من أن أرى القيشاني، رأيت شكلا بشريا من خيوط مضيئة. هربتُ إلى الممر، وهناك لحق بي كائن غريب ولبسني بوحشية بجانب ساعة البندول.

نظر إليّ السائق في المرآة بتعبير: كفى. وأنا أظهرت وجه الأنثروبولوجي، كأني أنتهي لاستخلاصات شديدة الأهمية من كل ذلك. لكن بعد ذلك اتصل بالبرنامج شخص مقتنع بأنه حين يغلق باب الحمّام يصبح شفافا، رغم أنه لم يستطع البرهنة على ذلك، لأنه حين يفتح الباب يعود ليكون مرئيا.

- ادخل الحمّام مع أحد. اقترحت عليه المذيعة.

- الحكاية أني أصبح شفافا حين أدخل بمفردي.

كان مـن الصعـب الحفـاظ عـلى وجـه الأنثروبولوجـي والاسـتماع لهـذه الهـراءات، لكنـي قمـتُ بجهـد وتحملـتُ. وكان السـائق يرمقنـي بحـسرة، والحقيقـة أني بـدأت أشـعر بنفـسي أحمـق بعـض الـشيء.

- هل يضايقك لو غيّرت الإذاعة، من فضلك؟ قلت له الآن.

- المسـألة أن كل الإذاعـات سـواء -أجـاب- لا يقولـون إلا هـراءات في كل مـكان.

- هل يضايقك لو غيرتها؟ ألححتُ من تحت ضرسي.

حـرّك المحـوّل باحتقـار كبـير والتقـط بالمصادفـة إذاعـة إنجليزيـة، أو هـذا مـا بـدا لي، لأني لا أعـرف الإنجليزيـة.

- هل أترك هذه الإذاعة؟ سأل.

- نعـم، مـن فضلـك. أجبتـه وأنـا أتظاهـر بفهـم مـا يقولـه رجـل وامـرأة يتخاطـف كل منهـما الكلمـة كل برهـة.

وفجـأة، قهقـه السـائق، وبالتـالي ظننـت أنـه يعـرف الإنجليزيـة وربمـا قـالا شـيئا مضحـكا. فابتسـمت بتقلـص وجـه خفيـف، كأني فهمـتُ. بعـد قليـل لـف رأسـه وقـال لي:

- هل رأيت كيف أنهم لا يقولون إلا هراءات؟

لم أرد، لكـن واتتنـي نوبـة حمـرة ولبسـت وجـه السوسـيولوجي، إذ إن السوسـيولوجيين، عـلى مـا أظـن، يهتمـون بهـراءات الراديـو للوصـول إلى اسـتخلاصات حـول الجمهـور. أديـتُ بوجـه الأنثروبولوجـي أفضـل مـن وجـه السوسـيولوجي، رغـم أني أعتقـد أني تمكنـتُ مـن خداعـه.

وحـين وصلنـا إلى إشـارة مـرور، سحـب السـائق كتابـا مـن درج التابلـوه وبـدأ يقـرأ عـدة سـطور بينـما يمـر المشـاة. كان كتـاب «نقـد العقـل الخالـص»، لـ «كانـط». وعندمـا تركـه في مكانـه مـن جديـد

لينطلق، رمقني بنظرة استعلاء. كان يحاول أن يفهّمني تواضعي كأحمق يهز رأسه عند سماعه برامج عن الخارقين بلغات مختلفة أمام سائق تاكسي يقرأ كانط.

- أقرأ بمتوسط دقيقتين في الإشارة -قال- هل تعرف كم كلمة ذلك في العام؟

- لا، لا أعرف. أجبتُ مستاء، كأنه قاطع إنصاتي لجزء مهم في الحوار بالإنجليزية.

- إذن في العام الماضي قرأتُ الأعمال الكاملة لبورخس. هل تعرف من بورخس؟

- هل هو بائع الثمار الجافة؟ أجبته غاضبا.

- أرى أنك لا تعرف من هو، معذرة.

ربما قتلته، إذ بدا لي صبيانيا أن أقنعه بأني أعرف بورخس، لكني حين لا أفعل ذلك أحتفظ بصورة المعتوه التي تصورها عني منذ البداية. ماذا أفعل؟

- أطفئ الراديو من فضلك. قلتُ.

- الآن بالذات حين بدؤوا يقولون أشياء ذكية؟

نزلتُ في نفس المكان، ودخلتُ مكتبة، اشتريتُ كتابا عن سقراط ووضعته في جيبي. ثم ركبتُ في تاكسي آخر كان فيه الراديو مفتوحا:

- أغلقه من فضلك، إنهم لا يقولون إلا هراء. قلتُ.

أغلق سائق التاكسي مستاء، وأنا فتحتُ الكتاب عن سقراط وتظاهرتُ بأني أقرأ بتعبير وجه إنجليزي. سيعرف هؤلاء السائقون!

كلماتها
LAS PALABRAS DE ELLA

كانت تشاجرت مع زوجها مرات عديدة، لكنها دائما ما كبتت رغبتها في أن تقول له رأيها فيه أو تسبّه بتطاول. وبعد كل مشاجرة، كانت تشعر بالندم لأنها افتقدتْ لشجاعة أن تترك البيت وتغلق الباب وراءها. مع ذلك، كانت تفعل ذلك في خيالها على الدوام.

- أتعرف ما أود أن أقوله لك؟ إني راحلة.

وكانت تأخذ المعطف وتخرج لبسطة السلم، وتقضم أظفارها حتى يصل المصعد، وترحل من البيت. كانت متأكدة أن مرة واحدة كافية لينتبه زوجها إلى أنه يحتاج إليها. لكن المسافة ما بين الواقع والخيال كانت كبيرة حتى تقرر هذه القفزة. وفي النهاية كانت تتركه يتحدث وحده وتدخل سريرها وهي تغلي غضبا يذوب، لحسن الطالع، في مناماتها.

في ذاك اليوم حدث شيء داخل رأسها، إذ استمر الشجار نصف ساعة وأدركتْ أنها ليست مشاجرة روتينية بل محاولة لإظهار القوة من جانبه، حينئذ فتحتْ فمها وأطلقت، بشكل ملغز، العبارة التي رددتها كثيرا في خيالها.

- أتعرف ما أود أن أقوله لك؟ إني راحلة.

وأخذت المعطف بنفس الطريقة المتخيلة قبلا، وارتدته بنفس الحركات وسارت عدد الخطوات ذاتها التي سارتها عدة مرات داخل رأسها. ثم أغلقت باب البيت وراءها وطلبتْ المصعد وانتظرته وهي تقضم أظفارها. وفي الشارع، لفّت كالعادة إلى اليمين وواصلت المشي من دون أن تسأل نفسها إلى أين تذهب. كانت الحادية عشرة مساء وثمة أناس قليلون في الشارع. وبعد نصف ساعة من السير بلا قِبلة، تضاءل الناس أكثر. حينئذ توقفت وأدركت أنها بلا مكان تذهب إليه. لقد كانت تتوقف في خيالها دوما عند لحظة غلق الباب وطلب المصعد. لقد كان ينقصها التدريب لتصل إلى أبعد من ذلك.

ركبتْ التاكسي وتوجهتْ إلى المقابر بشارع M 30. ولأنها كانت تبكي، فكرتْ أن أحدا لن يلتفت لها هناك. ولم تلفت النظر، لكنها لم تشعر براحة كذلك في هذا الجو الجنائزي. لقد فعلتْ خيرا، فعلتْ شيئا كان يجب أن تفعله لتحافظ على كرامتها مصونة، ولم تكن الطريقة المناسبة للاحتفال بذلك أن تقضي الليلة في قبر متأجج. حينئذ سمعتْ، بشكل عابر، حوارا قال فيه شخص إنه قادم من الطوارئ، من حي لا باث. «طوارئ، لا باث»، رددت العبارة لنفسها. لقد ذهبت عدة مرات إلى هناك، حين كان أبناؤها صغارا، وفكرتْ أنه ليس مكانا منفرا لقضاء الليلة. أفضل من المقابر، بالطبع، وأفضل من محطات القطارات والباصات. أفضل أيضا من المطار. ذات مرة راحت إلى المطار بالليل، لتوديع أحد أقاربها، وبدا لها أكثر جنائزية من المقابر.

هكذا ركبت التاكسي الآخر وتوجهت للطوارئ. كانت الصالة مملوءة بالناس. جلست بجانب فتاة شابة بطفل بين ذراعيها.

- كيف حال الطفل؟ سألتْ في الحال.

- حرارتـه فـوق الأربعـين، وعـلى هـذه الحـال منـذ يومـين. أجابـت الفتاة بوجـه قلـق.

فشرحـتْ لهـا أن مشـكلة الحنجـرة ترفـع الحـرارة كثـيرا، لكنهـا ليست مقلقـة مـع الأطفـال الصغـار. ولاحظـتْ أن الفتـاة هـدأت مـع كلماتهـا، وعندمـا نادوهـا قبّلتهـا عنـد توديعهـا. ثـم جلسـتْ بجانـب امرأة مـن عمرهـا كان ابنهـا قـد تعـرض لحادثـة بالدراجـة الناريـة.

- منذ ساعتين وهو بالداخل. قالت لها.

- ولم يقولوا لك شيئا حتى الآن؟

- لا.

- هـذه علامـة خـير. أضافـتْ هـي، وكانـت قـادرة عـلى شرح لمـاذا هـي علامـة خـير، ولاحظـتْ أن كلماتهـا تركـتْ تأثـيرا مسـكنا في أم سائق الدراجـة الناريـة.

وقضـت الليلـة بطولهـا متنقلـة مـن شـخص إلى شـخص مخففـة بكلماتهـا آلام النـاس. وفجـأة، انتبهـتْ إلى أنهـا موهوبـة في تهدئـة الآخريـن بطريقـة لم تطبقهـا أبـدا عـلى نفسـها. وحـين شقشـق الصبح، عـادت إلى بيتهـا. لم يكـن زوجهـا قـد نـام. كان في المطبـخ يدخـن ويشرب قهـوة بوجـه يائـس. وحـين رآهـا داخلـة، عبـس، مـع ذلـك، بوجهـه.

- لا تحـاول -قالـت- لقـد انتبهـتُ الليلـة إلى أنـك لا تسـتطيع الحياة مـن دوني. وغفـرتُ لـك. هيـا، فلنسـترح قليلا.

وسار وراءهـا بخنـوع ودخـلا السريـر في نفـس السـاعة التـي كانـا يستيقظان فيهـا كل يـوم.

قاتلة الشزلونج
LA ASESINA DEL DIVÁN

كانت صديقتي تزور المحلل النفسي في أيام الإثنين والأربعاء والخميس عند الساعة الأولى من الظهيرة، وقبل أن تعود إلى مكتبها. وفي هذه الأيام كانت تتغدى قليلا، لأنها حين ترقد على الشزلونج[51] كان يهاجمها نعاس لم تكن دائما قادرة على مقاومته. ولا المحلل النفسي كان يقاومه. وذات يوم، غطّ كل منهما في النوم حتى منتصف الظهيرة، واستيقظا معا فجأة، رغم أنهما تصنعا بأن شيئا لم يحدث. وخلال مدة النوم، حلمتْ صديقتي بأنها رأت عند وصولها إلى العيادة شعرا أحمر من مريض سابق على وسادة الشزلونج، وأنه التصق بقفاها خلال الجلسة، حتى إنه بات جزءا من شعرها ذاته. وخلال جلسات متتابعة، ودائما داخل حلمها نفسه، كانت تتحقق من أن المحلل النفسي كان قد تخلى عن عادة نفض مرتبة الشزلونج بين مريض ومريض، بحيث إنها كلما دخلت كانت ترى أثر المريض السابق، وكانت تحاول أن تكيف نفسها عليه كأنه قالب. وهكذا، رويدا رويدا، كانت صديقتي تستحيل رجلا بشعر أحمر وتعيش مع أمها التي تكرهها.

(51) الشزلونج: هو الكرسي النفسي الذي يتم استقبال المرضى عليه.

لم تتجـرأ قـط عـلى تحليـل هـذا الحلـم، رغـم أنهـا منـذ ذلـك الحـين وهـي تنظـر بريـب إلى الشـزلونج قبـل أن تضطجـع عليـه. وذات يـوم سـألها المحلـل النفـسي مـاذا تفعـل.

- أنظر إن كان هناك شعر من المريض السابق.

- وما مشكلتك مع الشعر؟

- ليـس لـديّ مشـكلة معـه، لكنـي لا أحبـه لا في الحسـاء ولا في الشـزلونج.

- لماذا تربطين الحساء بالشزلونج؟

- لم أربط شيئا بشيء.

- قلتِ إنك لا تحبين الشعر في الحساء ولا في الشزلونج.

كان محلل صديقتي يتمتع بالقدرة على إغضابها عندما يلّح.

- دعك من هذا. قالت له.

- كما تحبين. رد المحلل النفسي.

وظلـت صديقتـي صامتـة، لكنهـا عصبيـة. كانـت صامتـة لأنها عصبيـة، وكان ذلـك يزيـد عصبيتهـا، إذ بلغـت أن احتسـبت ثمـن الجلسـة بالدقيقـة (1،08 يـورو) وبـدا لهـا أن الالتـزام بالصمـت يشبه إلقـاء المـال في القمامـة.

- أتعرف -قالت في النهاية- أنا أقتلك في بعض الأيام.

لم يـرد المحلـل، وبالتـالي واصلـت صديقتـي في تطويـر خيالاتها القاتلـة:

- لـو اسـتطعتُ أن أقتلـك بالتفكـير، بالتفكـير وحـده، ومـن دون حاجـة إلى تحريـك إصبع، لكنـتَ ميتـا بالتأكيـد منـذ زمـن. لقـد تخيلت هـذه الاحتماليـة في مـرات كثـيرة؛ أن تمـوت أنـت وأن أذهـب أنـا إلى محلـل نفـسي آخـر سـأقتله أيضـا. دائمـا مـا راقـت لي أفـلام السـفاحين.

بعضهم متخصص في قتل المتسولين، أو المهندسين أو العاهرات، أنا سأتخصص في قتل المحللين النفسيين. وعناوين الجرائد الرئيسية تتجلى لي: «قاتلة الشزلونج تضرب من جديد».

كانت صديقتي تتكلم وتتكلم عندما، فجأة، انتبهتْ إلى أن الساعة انتهت والمحلل لم يقل شيئا. حينئذ التفتت وراءها ووجدته ميتا. «يا إلهي، إنه مات، إنه مات». أول ما خطر لها كان الخروج ركضا، لكنها حسبتْ في الحال أن لها ملفا مع مرضى آخرين أو شيئا شبيها، وأن الشرطة لن تتأخر في تحديد مكانها. أصابها الخوف بالشلل. حينئذ اضطجعتْ على الشزلونج من جديد، غمّضتْ عينيها وقالت: «سأتصنع أني نائمة لعدة دقائق، وحين أفتح عينيّ سيكون كل ذلك مجرد حلم».

وبالفعل، بعد دقائق فتحتْ عينيها وسمعتْ أنفاس محللها النفسي.

- ألست ميتا. قالت براحة.

- ولماذا يجب أن أكون ميتا -سأل- هل حلمتِ بذلك، بأن محللك النفسي ميت؟

- هل أنا استغرقتُ في النوم؟

- نعم، وليست المرة الأولى. لابد أن نحلل ذلك.

- كما تحب.

- لكن اليوم لا، لقد انتهى الوقت.

نهضتْ صديقتي من الشزلونج وخرجتْ من العيادة على ألا تعود إليها أبدا. كانت تحاول ألا تنام بعد الغداء لأنها تحلم بكوابيس وجرائم. ثم تزوجتْ رجلا شعره أحمر، كانت تقابله في الليل بالمصادفة في مصعد بيتها، وكان ينام القيلولة عادة على

الأريكـة. وعندمـا كان يصحـو، كان يخلّـف وراءه بضـع شـعرات حمـراوات في وسـادة الأريكـة، وكانـت صديقتـي تجمعهـا وتضعهـا في الحسـاء.

ندم
ARREPENTIMIENTO

عندما صعد الرجل إلى القطار كنتُ أنا قد شغلتُ مقعدي بجانب النافذة. توقف أمامي ورمقني بوقاحة ثم راجع تذكرته مرتين، كأنه لا يصدق أن حظه جاء في مقعد الممر. وحين انتبهتُ لاستيائه، اقترحتُ عليه أن نغيّر أماكننا، فالمكانان سواء بالنسبة إليّ. لكنه قال لا، كأنه بقبوله هذا المعروف سيضطر إلى التحدث معي طوال الرحلة. جلس، إذن، مجبرا، وفتح الموبايل ليتحدث مع أحد، ربما سكرتيرته، واشتكى لها من أنه، بالإضافة للجلوس في الممر، جلس عكس اتجاه القطار. «شركة السياحة هذه سيئة، لا تتعاملي معها مرة أخرى»، قال قبل أن ينهي المكالمة ويحفظ الجهاز في جيبه. أثناء ذلك، كنت أتظاهر بأني أقرأ كتابا. الملفت أن موقف الرجل، بعيدا عن مضايقتي، أثار فيّ الشفقة. كان واضحا أنه استيقظ بمزاج عكر وكان يبحث عن مواقف أو أماكن يبرر بها توتره. أنا أيضا يحدث لي ذلك أحيانا ثم أكره نفسي بسببه، لكن لا يمكن تفادي ذلك. نحن هكذا.

طلب ثلاث جرائد من المضيفة، لكنه اقتصر على تصفحها من دون قراءة أي منها. كان في طريقة تمريره للصفحات ثمة إحباط مثير

للتعاطـف. وبعـد الانتهـاء مـن الجرائـد الثـلاث، ألقـى عـلى المنضـدة المتحركـة قلـما ذهبيـا ولاحـظ كل عنـاصره بإيمـاءة إحبـاط كوميديـة بعـض الـشيء، كأن ميكانيزماتـه بـدت لـه بسـيطة. ثـم عـاد وأخـذه بإيمـاءة متعاليـة. ومـن حـين لآخـر كان يتذمـر أو ينظـر في السـاعة، كأن شـيئا طارئـا يضغـط عليـه. وبشـكل طبيعـي رفـض الإفطـار وبـدا لـه سـيئا أني قبلتـه أنـا رغـم الاسـتياء الـذي أفترضـه فيـه. ثـم بقـي لبرهـة كاملـة هادئـا، كأنـه يصـلي، بعدهـا مـال كأنـه أصيـب بسـكتة قلبيـة.

لكنهـا لم تكـن سـكتة قلبيـة، إنمـا مقاومـة رغبـة عارمـة في البـكاء. وحـين التفـتُّ، رأيـت عينـه اليمنـى بالجنـب مسـمّرة في المنضـدة المتحركـة.

- هل يحدث لك شيء؟ سألته بحيطة.

- يحـدث أني أنـدم عـلى كل شيء، كل شيء، أنـدم عـلى كل شيء، لكـن لا تشـغل بالـك، سـأتجاوز ذلـك في الحـال.

وبالفعـل، بعـد عـدة ثـوانٍ، عـاد واسـتقام في جلسـته، واتخـذ نفـس الموقـف السـخيف السـابق. وفي النهايـة رحـل مـن دون وداع.

حياة
UNA VIDA

لم يكـن تعارفهـما الأول، بـل إعـادة تعـارف، إذ شـعر كل منهـما بأنـه قـد عـرف الآخـر في حيـاة أخـرى. كانـا يلتقيـان في أي مـكان، كأنهـما كانـا يتوقـان إلى انصهـار يجعلهـما واحـدا. وحـين كان أحدهـما يذهـب للثلاجـة أو العمـل، كان الآخـر يشـعر بأنـه مبتـور. لم يكونـا يتحمـلان أي انفصـال لأن أحدهـما كان أوكسـيجين الآخـر، دم الآخـر، روح الآخـر. وكانـت الإثـارة التـي تمنـح لهـما اللقـاء تنبـع مـن شـعور كل منهـما بالكـمال مـع الآخـر. لم يكونـا يكتمـلان إلا حـين يلتقيـان، كانـا عاشـقين في النهايـة.

المدهـش أن هـذا الشـغف اسـتمر. لم يخففـه الحـر ولا الـبرد، ولا خطـوات الأسـابيع والفصـول. وأحيانـا كانـا يجتمعـان في المصعـد حتـى لا يفقـدا لحظـة مـن الزمـن مـن دون أن يكونـا معـا. حتـى إنهـما فكـرا أن مـا بينهـما لا يشـبه مـا عنـد أحـد. وكانـا يداريانـه خوفـا مـن إثـارة الحسـد والغـيرة والنميمـة. ومـن ارتفـاع كماليهـما، كانـا ينظـران بـشيء مـن الحسـرة إلى بقيـة البـشر. كانـا يسـتمتعان بـالأكل، بالسـينما، بالتلفزيـون، بالشـارع. كل مـا كانـا يفعلانـه معـا يكتسـب أهميـة خاصـة لأنهـما ببسـاطة كانـا يلمسـانه بسـحريهما.

ثـم أنجبـا طفـلا. وخـلال فـترة الحمـل، صنعـتْ بطنهـا حاجـزا بينهـما، ومـع ميـلاد الطفـل تحـول الحاجـز إلى تجويـف. كانـت هـي تعيـش مـن أجـل الطفـل فحسـب، من أجـل النظر إليـه بحب وارتياب، إذ كان هـذا الكائـن فعـلا جـزءا مـن الأم. ومـن المسـتحيل أن يفصـل بينهـما أحـد. وكان يفكـرْ أن الأم والطفـل ربمـا يقضيـان بقيـة حياتيهـما في البحـث عـن وضـع يسـمح لهـما بالتعايـش معـا، وضـع يشـبه وضعـه داخـل رحمهـا وهـي تحيـط بـه. في البدايـة، اعتقـد أن الطفـل حـين يكـبر، سـتعود هـي إليـه وسـيلتقيان كمجنونـَين، كأنهـما أجـزاء مختلفـة مـن الألفبائيـة تبحـث عـن حـروف أخـرى لتكـوّن عبـارة. لكـن الرضيـع غـدا طفـلا والطفـل غـدا مراهقـا مـن دون أن يتوقـف الشـغف بـين الابـن والأم. وكان الرجـل يلاحـظ هـذه التجربـة بـشيء مـن الحقـد، لكـن أكـثر مـن الحقـد كان الذهـول. كان يذهلـه رؤيـة كميـة الطاقـة التـي تمنحهـا الأم للابـن. كان ذلـك حبـا، حبـا يائسـا، وربمـا كان الحـب الوحيـد الممكـن. وكان هـو يسـلي نفسـه أحيانـا بمغامـرة خـارج الـزواج، حتـى لـو كانـت مـع عاهـرة. لم يكـن يهمـه أن يدفـع، بـل وكان يـرى الدفـع أكـثر نزاهـة. لكـن لا في المغامـرات التـي يدفـع فيهـا ولا في المغامـرات الأخـرى كان يعـثر عـلى فردوسـه المفقـود.

ثـم، ذات يـوم، وبعـد أن غـدا الابـن شـابا، بـدأ يبتعـد عـن أمـه، التـي قبلـت البُعـد لأنهـا كانـت قـد أعـدت، مـن أجـل هـذه اللحظـة، خطبـة مضمونهـا أن الأبنـاء يجـب أن ينفصلـوا عـن آبائهـم حتـى يكـبروا. في الظاهـر، كانـت تمنـح للولـد كل مـا يحتـاج إليـه حتـى يهـرب منهـا، لكنهـا في الواقـع وبمنحـه كل شيء كانـت تقيـده بطريقـة مـا. وخـلال فـترة حققـتْ ذلـك، لكـن في النهايـة انتـصرتْ إرادتـه عـلى إرادتهـا، وبقيـتْ وحيـدة في العـالم.

وذات يـوم، عندمـا دخلـتْ صالـة البيـت خارجـة مـن المطبخ، رأت زوجهـا يقـرأ كتابـا. منـذ آلاف السـنين لم تكـن تـراه. وتحققـت مـن أنـه بـات أصلـع، ولديـه تجاعيـد، لكـن تحـت هـذه الملامـح تعرفـتْ مـن جديـد عـلى الرجـل الـذي عشـقته منـذ سـنوات بعيـدة. وانتهـا رغبـة لتسـأله أيـن كان، لكنهـا لم تقـل شـيئا ربمـا لأنهـا أدركـتْ أنهـا هـي مَنْ رحلـتْ عنـه ومَـنْ تعـود الآن إليـه، بعـد مغامـرة شـاقة، مـع ابـن كان قـد هجرهـا في التـو. جلسـتْ بجـوار هـذا الرجـل الغريـب وتحدثـتْ معـه. وحينئـذ اقـترح عليهـا الخـروج للسـينما، للعشـاء، لزيـارة المتاحـف، وبـدأا يتعرفـان مـن جديـد، أو يعيـدان التعـارف مـرة أخـرى. وكان حبهـا الكبـير، ابنهـا، يمـر أحيانـا بالبيـت، لكـن بمجـرد أن ينصرف كان يخلّـف في المـرأة بقايـا حـزن مصبـوغ بـكل شيء. مـع ذلك، كانـت العلاقـة بـين الرجـل والمـرأة في طريـق التعـافي. التقيـا مرتـين، ورغـم الفشـل المحيـط بهـما قـالا لنفسـيهما إن ثمـة حيـاة أبعـد مـن الجسـد. كل شيء كان عـلى مـا يـرام في النهايـة، وكان يمكـن أن تكـون أفضـل لـولا أنـه ذات يـوم، وفي وسـط الليـل، اسـتيقظ وتأمـل زوجتـه النائمـة بجـواره، وأدرك أنـه لـن يسـتطيع أبـدا أن يغفـر لهـا كل سـنوات غيابهـا.

ملابس النساء الداخلية
LA ROPA INTERIOR DE LAS MUJERES

عصفور أسود، بمنقار وردي (ربما شحرور) دخل في غرفتها وهي نائمة، توجه إلى خزانة الملابس وفتح درج الملابس الداخلية واختار اللباس الأكثر خفة. حمله ثم عاد ليبحث عن صدرية تليق عليه. في سبع رحلات أو ثمان كان قد فرّغ الدرج. ثم وضع مكانها قطعا مقلدة بمهارة لكنها مصنوعة من أوراق البلوط وبتلات الزهور المختلفة وأجزاء من جذور الشجر وجذوع مضفرة، وريش الطيور. وحين استيقظتْ، لم تلتفت إلى التغيير وارتدت واحدا من الأطقم التي استبدلها الشحرور بالحقيقية. واختارت تيشيرت خفيفا جدا، مفتوح الصدر، ومن حوافه كانت تظهر أجزاء من أوراق البلوط والبتلات والجذور والريش. وعندما كانت تميل، كان بداية صدرها يبدو ممسوكا بهذا الإطار النباتي. وأحيانا، كان يتقدمها ريشة أو جذع أو فرع.

وفي المكتب كان ثمة فرد، هو مدير الحسابات، كانوا يلقبونه بـ الرجل العصفور لأن المسافة بين عينيه كبيرة جدا، ربما تقعان عند الصدغين، وبالتالي كان مضطرا لتحريك رأسه من جانب لآخر بحركات تُذكّر بحركات طائر. وحين دخلتْ هي مكتبه في ذاك

اليوم لتستشيره في مسائل حسابية، انتبه لها، حين مالت، إلى بتلات عند فتحة الصدر، فشحب الرجل من الحب. في نفس ذاك اليوم، بدأا الخروج، وبعد سبعة أشهر بالكاد كانا قد تزوجا. وحملتْ سريعا وأنجبت طفلا وزنه عند مولده ثلاثة كيلوات ونصف. كانت الولادة يسيرة ولم تحتجز في المستشفى إلا يوما واحدا، بعدها عاد الرجل العصفور وزوجته إلى البيت حاملين الرضيع الذي لم يتعب من النظر إليهما.

وفي البيت، عندما كانت تستعد لإيداع الطفل في مهده، اقترح هو عليها أن تصنع له سريرا بكل ملابسها الداخلية وأن تضع فيه الرضيع.

- بهذه الطريقة سيشعر برائحة جسدك وينام مطمئنا. أضاف.

بدت لها غرابة جميلة، وبالتالي لم تجادل. سحبتْ، إذن، كل ملابسها الداخلية المصنوعة من فروع الشجر والجذور والبتلات والريش وأوراق البلوط، ووضعتْ ابنها فوقها جميعا. وفي الحال انتبهت إلى شعوره بأنه في داخل عش طائر. حينئذ تأملتْ زوجها، الرجل العصفور، وشعرتْ بقشعريرة.

- ما هذا؟ سألت مفزوعة.

- ماذا سيكون؟ -أجاب- إنه ابننا.

- لكن لماذا تحولتْ ملابسي الداخلية إلى مجموعة أوراق وبتلات وريش وجذوع صغيرة؟

- لا أعرف عن ماذا تتكلمين، إنها نفس ملابسك التي ارتديتِها بالأمس وأول أمس والشهر الماضي.

لم تعرف المرأة ماذا تقول، لكن حين تأملتْ ابنها انتبهتْ إلى أنه، رغم أنه طفل طبيعي في تركيبته، كان أيضا عصفورا. ورغم

أن الطبيب قال لها إن اللبن سيتأخر يومين حتى يصل لصدرها، إلا أنها لاحظت في تلك الظهيرة نشاطا كبيرا داخل نفس الصدر، وبدا لها أن الحلمتين تنشفان بطريقة غير عادية. فدخلت الحمّام وعرّت نصفها الأعلى ولاحظت، في حيرة، أن حلمتيها قد استحالتا منقارَي طائر.

كان زوجها قد ذهب إلى عمله ولم تكن تعرف ماذا تفعل. في النهاية توجهتْ إلى العش حيث يرتاح ابنها، أخذته بين ذراعيها وجرّبتْ أن ترضعه. والرضيع، بدلا من الإمساك بالحلمة - المنقار، فتح فمه مثل صغير الشحرور، وانتظر أن يسقط شيء في داخله. وهي فتحتْ فطريا منقارين كانا حلمتين، لكنها لاحظتْ بيأس أن لا شيء يخرج منهما.

مع ذلك، خطرت لها فكرة بعد قليل. فخرجت إلى الحديقة وراحت تحصد الحشرات واليرقات الصغيرة التي كانت تحتفظ بها في قارورة زجاجية. وحين اعتقدتْ أنها جمعتْ ما يلزمها، دخلتْ البيت وتعرّت ومضت تدخل، شيئا فشيئا، اليرقات والحشرات في داخل صدرها عبر المنقارين المفتوحين فيهما. وباستقرارها بداخلها، بدأ المنقاران في تحويل هذا الطعام إلى عصارة مهضومة كانت تصبها بعد ذلك في فم الرضيع المفتوح. وبدأ الرضيع يكبر في الحال. وذات يوم، حين كانت هي في الحديقة تبحث عن يرقات، رفعت عينيها ورأت ملابسها الداخلية البدائية معلقة على أفرع شجرة. لم تكن الملابس ملموسة، كأن لعاب الشجرة يحافظ على حياتها.

سأموت غدا
MAÑANA MORIRE

لا أدري في أي لحظة من اليوم انتبهت إلى أني في يوم الخميس، مع أن الباقين لا يزالون في يوم الأربعاء. حدث لي ذلك مرات عديدة ولم أبال، فثمة أسابيع يود المرء أن تنتهي سريعا، فيقص منها يوما. مشكلتي بدأت بالتحديد يوم سبت، فأنا وزوجتي اعتدنا على ارتياد السينما وتناول العشاء بالخارج، وأحيانا ندعو صديقا وزوجته ليصطحبانا. حينئذ اقترحتُ على زوجتي أن تهاتف عائلة جوتيريث ليخرجا معنا في هذا المساء، فأخبرتني بأننا لا نزال في يوم الجمعة. لم أنطق بكلمة، لكني بقيت حائرا.

أعمل بالبيت، فأنا مبرمج كمبيوتر، وعلاقاتي بالعالم الخارجي محدودة، وبالتالي لا أثق بأحاسيسي. لذلك، قبل أن تتوجه زوجتي لعملها (وهي رئيسة قسم العملة الصعبة بأحد البنوك) نزلتُ لشراء جريدة، وتحققت من أننا في يوم السبت.

- انظري إلى الجريدة. حدثتها ووضعت الجريدة على منضدة المطبخ حيث كانت تتناول فطورها.

- ماذا يجب أن أنظر؟

- في أي يوم نحن.

- الجمعة، 15 أكتوبر.

اقتربـتُ ونظـرتُ مـن وراء كتفهـا إلى التاريـخ المكتـوب أعـلى الصفحـة، ورأيـت أنهـا محقـة. لكنهـا عندمـا انصرفـتْ، عـاودتُ النظـر إلى الجريـدة ورأيـتُ أننـا في يـوم السـبت 16 أكتوبـر. فأدركـتُ أنهـا قـرأتْ جريـدة الجمعـة، بينـما قـرأتُ أنـا جريـدة السـبت. بمعنـى آخر، ولسـبب لا يمكـن تفسـيره، كنـتُ أعيـش يومـا سـابقا عـلى بقيـة البشر. فقمـتُ ببعـض الأفعـال لأتحقـق مـن ذلـك، فكانـت النتيجـة أني فعـلا أعيـش يومـا سـابقا. فرويـت لزوجتـي هـذا الأمـر في تلـك الليلـة أثنـاء العشـاء.

- أتعلمين أني أعيش يوما سابقا على بقية الناس.

نظـرتْ إليّ نظـرة تحمـل سـؤالا، فشرحـتُ لهـا بالتفصيـل، وبعـد أن أنهيـت كلامـي انفجـرتْ في الضحـك، ففهمـتُ أنهـا أخـذت الأمـر مأخـذ الهـزل. لم ألـح، فأنـا نفـسي أرى أن الأمـر لا يُصـدَّق، لحـد أننـي بـدأت أرتـاب في حـواسي.

في الأيـام التاليـة، ظللـتُ أركـز وأتحقـق، وانتبهـتُ إلى أن الأمـر حقيقـة لا محالـة. لقـد كنـتُ أعـرف الأخبـار قبـل أن يعرفهـا النـاس بيـوم، ورغـم أن ذلـك يبـدو ميـزة، إلا أنـه سـبّب لي الرعـب أيضا. لقـد رأيـتُ في جريـدة الثلاثـاء، ثلاثـائي أنـا، خـبر مـوت أمـي التـي مـا زالـت بالنسـبة للباقـين حيـة تـرزق. كـما رأيـتُ خـبر نشـوب حريـق وقيـام زلـزال لم يحدثـا بعـد. وزرتُ ابنـي في المستشـفى بعـد أن أصيـب في حادثـة سـيارة لم تقـع بعـد. لكنـي أيضـا رأيـتُ أخبـارا سـعيدة، غـير أني لم أسـتطع أن أسـعد بهـا في وقتهـا مـع الآخريـن. وهكـذا، عندمـا فـازت ابنتنـا التـي درسـت الطـب بالتعيـين في مستشـفى كبـير، كان يجـب أن أقـاوم رغبتـي في الاتصـال بالعائلـة بأكملهـا لنـشر الخـبر.

بدأت أشرب الخمر. وذات يوم، عندما كنت في بار، بمفردي أتجرع كأسي، جلستْ بجانبي سيدة عزباء وبدأنا حوارا، وبعد قليل اعترفت لها بمشكلتي. حينئذ أخبرتني أنها يحدث لها أمر شبيه بذلك، فهي تسبق الناس بيومين لا بيوم واحد. كان هذا اليوم يوم الأربعاء بالنسبة إليّ، ويوم الثلاثاء بالنسبة إلى بقية الناس، ويوم الخميس بالنسبة إليها.

- إذن، هل يحدث لقاؤنا هذا اليوم أم غدا؟

- اليوم بالنسبة إليك، والأمس بالنسبة إليّ.

- إذن، بما أنكِ في الغد، احكي لي ماذا سيحدث.

- اليوم سنتوجه إلى السرير -قالت- أنا أسكن هنا بجانب البار، لكنك ستصاب بسكتة قلبية عندما تبدأ في خلع ملابسك، وأنا سأحملك وأتركك في المصعد، وهناك سيجدونك ميتا صباح الغد. والحقيقة أنهم عثروا عليك بالفعل، وجاءت الشرطة وسألونا جميعا إن كنا نعرفك، فأنكرنا معرفتنا بك.

- إذن، علينا ألا نذهب إلى بيتك. قلت باستسلام وثبات ناتج عن الكحول.

- هيا، لقد حان الوقت. قالت.

ثم خرجنا من الحانة وتوجهنا إلى شقتها الواقعة في البناية المجاورة على الناصية. وعندما بدأتُ في خلع ملابسي، شعرتُ بألم شديد في كتفي ما لبث أن تسرب إلى صدري. ولمّا انتبهت السيدة إلى حالتي، ألبستني معطفي واصطحبتني إلى المصعد، ورمتني هناك. وقبل أن أموت بلحظة، استرددت إحساسي الطبيعي بالزمن، ورغم أني قد متُّ يوم الأربعاء إلا أني ما زلت أعيش في يوم الثلاثاء.

عدت إلى البيت وحبستُ نفسي في غرفتي، ثم شرعتُ في كتابة هذا النص. ولا ألقي بالذنب على أحد فيما حدث.

علاقات شخصية
RELACIONES PERSONALES

لم يعتقد قط في الصحبة التي تمنحها الكلاب، ولا في وفائها. لكنه منذ سنتين يعيش وحيدا وقد فشل في كل محاولاته في العثور على أحد يعيش معه، إنما وجد من يلتقيه كل سبت أو أحد حتى لا ينسى لغته ذاتها. عندما هجرته زوجته، بعد قليل من ترك الأولاد للبيت، غرق في حزن جم، لكنه فكّر أن الحياة تمنح فرصة أخرى. وبعد كل شيء، لم يكن عجوزا، هكذا تخيل إقامة علاقات جديدة، ربما يكون له رفيقة، ويرتاد السينما، ويمارس الحب (هو كان يسميها هكذا «ممارسة الحب») ومشاهدة التلفزيون بجانب شخص. غير أن الواقع قد برهن على أنه في نطاق العلاقات الاجتماعية لم يكن ناجحا. وهكذا سارت الأمور، في كل يوم تزداد وحدته، ويقل كلامه، ويتضاءل خروجه، وتنكمش ابتسامته. كان يواجه العجز وحيدا، وكان يمرض وحيدا، وكان يموت وحيدا على الأريكة، وربما بالتلفزيون مفتوحا، مثل امرأة من حيه تناولت الصحف حالتها من قبل.

حينئذ بدأ يفكر في فكرة الكلب. لعله يكتشف أن التواصل مع حيوان أسهل من التواصل مع إنسان. وكان منذ عدة أشهر

يراقب امرأة تمر من تحت نافذته عند حلول الليل وتتحدث مع كلب ماستيف كان يبدو أنه يفهمها، إذ من حين لآخر كان يرفع رأسه وينبح كعلامة موافقة. في البداية راقبها بأسى، كأنها امرأة مجنونة، لكن مع مرور الأسابيع بدت أكثر احتمالا إمكانية أن يكون بينها وبين الحياة نوع من التواصل. وذات يوم خرج إلى الشارع بينما كانت المرأة تمر من تحت نافذته وتلمّس رأس الكلب فيما قال شيئا لطيفا عنه. ثم علّق بأنه كان يفكر في شراء كلب من أجل الشعور بالصحبة. وأضاف أن لديه شقة متوسطة الوسع وكان يريد أن يعرف أي سلالة تناسبه. فأجابته المرأة بتحفظ بأن الكلاب لا يمكن اختيارها.

- هل لديك أولاد؟ أضافتْ.
- اثنان أصبحا بالغين. رد.
- وهل اخترتهما؟
- حسنا، لا.
- إذن فالكلاب مثلهما.

تلعثم الرجل باعتذارات وواصل السير. وفي الأيام التالية تجول ببعض محال الحيوانات حين كانت الكلاب تنبح عليه وتهز له ذيلها من داخل أقفاصها. كانت جراء وكانت ترسل هذه الطاقة المميزة التي عاجلا أم آجلا ستنتهي مع التجربة. كان يود أن يأخذها جميعا، ومن أجل ذلك كان عاجزا عن اتخاذ القرار بأحدها. بالإضافة إلى أنه عندما أوشك على التجرؤ، كان يفكر في التطعيمات وفي الأمراض، في الاضطرار لأخذه للتنزه كل صباح ومساء، وتجهيز الطعام له وتنظيفه (هو نفسه كان يقضي أياما كاملة دون تمشيط ذاته)... لكن شيئا بداخله كان يقول له إن

الهدف هو ذلك تحديدا، أن يعمل من أجل أحد في مقابل القليل من العاطفة.

مرت أشهر، وذات يوم، عند عودته من التسوق محمّلا بالأكياس، تقاطع مع كلب مجهول السلالة والسن، جرو بشعر قصير وأرجل طويلة. توقّف وتأمله، إذ كان يبدو وحيدا مثله، وفي لحظة محددة أدار الكلب رأسه ووجه نظرة محمّلة بالمعنى إلى الرجل الذي واصل السير لكن أسيرا لتوتر مثير. سار الحيوان وراءه. وكان الرجل يشعر بوجوده خلفه. «سيلف في الحال ويتجه في اتجاه آخر»، حدّث الرجل نفسه. لكن كلما نظر بجانب عينه كان يرى ظل الكلب ملتصقا بظله، كأن اتفاقا ما تم بين الظلين. نصف الرجل كان يصلي من أجل أن يختفي الكلب قبل الوصول إلى البناية، بينما نصفه الآخر كان يترجى ألا يهجره. وانتبه إلى أنه كان قد فكّر في الكلب باعتباره حيوانا مهجورا، بينما المهجور كان هو ذاته. منذ شهور وهو يتجول في الشوارع والحانات والسينمات على أمل أن يأخذه أحد. لماذا لا يأخذه هذا الكلب؟

وصل إلى البناية ودخل، ودخل وراءه الحيوان. فتح باب المصعد فدخل الكلب كأنه تعود على ذلك طيلة حياته. وفي البيت، ترك الرجل الأكياس على الأرض وتوجه إلى الكلب وقال له:

- هل يمكن أن أعرف ماذا تريد؟

هز الكلب ذيله ونبح. توجه الرجل إلى المطبخ، أخرج علبة طعام للكلاب كان قد اشتراها منذ شهور لمواجهة ظرف طارئ من هذا النوع. فرّغها في طبق، وبينما كان يراه وهو يأكل، أدرك أنه امتلك كلبا في التو.

الرجل غير المرئي
EL HOMBRE INVISIBLE

- حلمتُ بكِ الليلة يا كلارا.

- وبماذا حلمت؟

- بأننا نبيع قطع الأثاث.

- وماذا أيضا؟

- وكنا نتشاجر لأنك كنتِ مهووسة بالتعامل مع الزبائن وأنتِ داخل خزانة من ثلاثة أبواب. وكنت أقول لكِ إن الخزانات توابيت، ولا حتى توابيت للأحياء، وكنتِ تغتاظين. لكننا لم نستطع الانفصال لأننا كنا وقّعنا رهنا عقاريا معا.

- وكيف كان حال التجارة؟

- أعتقد أنها كانت في حال سيئة بسببك.

- يا للغرابة، بسببي. كل شيء دائما بسببي.

- لا تغضبي، لم يكن إلا حلما.

- الأحلام تقول الحقيقة.

- الأحلام تقول الهراء. هل ستعاملين الزبائن من داخل خزانة لو كان لدينا محل لبيع الأثاث؟

- لا أعرف.

- إذن فأنا أعرف: لن تفعلي ذلك.

- ربما أفعل.

- إذن لا تعتمدي عليّ عند إقامة تجارة.

- إذن لقد ألغيتك.

- شكرا.

- عفوا.

وأعطت كل واحدة منهما ظهرها للأخرى. كانتا تعملان على بار بفندق أقمتُ فيه أسبوعين. وفي كل الأيام، مع حلول الليل، كنتُ أهبط لأتناول كأسا لأني كنت أحب رؤية الفتاتين. كانتا شخصيتين مبهرتين، منتبهتين جدا ورصينتين جدا بالنسبة لشبابهما. وكان الفندق يقع في وسط مدينة ضخمة وفقيرة أغلب ما فيها كان ضواحي. حسبتُ مرتبيهما واستنتجتُ أنهما تعيشان بعيدا جدا عن الفندق. تخيلتهما تتعشيان في بيتيهما المتواضعين بعد قضاء يوم أحيطتا فيه بأبهة مكان لا يتناقض مع شكليهما، إذ كانتا دوما متزينتين جدا. في السابعة مساء، كانتا تبدوان كأنهما خرجتا في التو من الحمام ووضعتا مكياجا، رغم أنهما تحملان على ظهريهما ساعات العمل المنقضية بالإضافة لساعات السفر المنهكة من الضواحي، ربما السفر في مترو وربما في باصات مكدسة بأجساد متعرقة. لم تكونا تبدوان منهكتين. وكانتا مثل توءمين غير متشابهين، إذ رغم أن واحدة منهما شعرها طويل والأخرى قصير، واحدة خمرية والثانية شقراء، واحدة جادة والثانية مرحة، إلا أنهما كانتا مرتبطتين بروابط غير مرئية، روابط ناعمة وغامضة كانت تحولهما إلى توءمين، مع أنهما لا تعرفان ذلك. واعتادتا أن تدور حواراتهما حول مسائل غير واقعية. وأكثر من مرة، عند

عودتي إلى غرفتـي، كنـت أدوّن مقاطـع مـن هـذه الحوارات لأسـتخدمها بعد ذلـك في قصـصي. كانتـا متحاورتـين مذهلتـين. ذات يـوم اسـتمرتا في الجدال لعـشر دقائـق حـول إن كان الأفضـل أن تكـون ثريـا ومبتـلى أم فقـيرا وسـعيدا. وتوصلتـا إلى أن الأفضـل أن تكـون ثريـا ومبتـلى لأن الـثري المبتـلى أكـثر سـعادة عـشر مـرات مـن الفقـير السـعيد. كانتـا تعرفـان حسـابات وجوديـة.

- الفقـراء فقـراء حتـى في تطلعاتهـم -ختمـت الخمريـة- يرضـون بـأي شيء.

ولا واحـدة منهـما كانـت تنظـر إليّ. كنـتُ غـير مـرئي بالنسـبة إليهـما. وكانتـا تتكلـمان في حضـوري كأنـه لا أحـد أمامهـما، وكنـت أرجـع ذلـك لسـلوكي، إذ كنـت أتصنـع بقـراءة جريـدة أو كنـت أتصنـع بقـراءة نفـسي بـأداء حزيـن يميّـز معتـادي الـشرب المنعزلـين.

الحـال أنهـما منـذ النقـاش حول تجـارة الأثـاث توقفتا عـن الحديث. أجهـل كيـف تشـعران بذلـك، لكنـي كنـت أتـألم فـوق الوصـف حـين لاحظـت هـذا البُعـد العبثـي بـين شـخصين مكتـوب عليهـما الحـب المتبـادل. وذات يـوم خرجـتُ مـن اختفـائي وقلـت لهـما:

حلمتُ بكما هذه الليلة.

- بنا؟ سألتْ الخمرية.

- وماذا حلمت؟ سألت الشقراء.

- حلمـتُ أنكـما اشـتركتما في تجـارة وأنكـما تركتـما الفنـدق لأن التجـارة كانـت رابحـة.

- وماذا كانت التجارة؟

ترددتُ، لكني قررتُ أن أخاطر:

- أعتقـد أنهـا كانـت أثاثـا -قلـتُ- واحـدة منكـما كانـت مهووسـة

بالخزانـات ذات الأبـواب الثلاثـة.

تبادلـت الفتاتـان النظـر وأطلقتـا قهقهـة تظاهـرت بـأني لا أفهمها. وفي برهـة بدأتـا الـكلام مـن جديـد، وخططتـا لنهايـة الأسـبوع المقبـل وربمـا للأعـوام المقبلـة. وأنـا عـدتُ إلى اختفـائي.

ثمن النجاح
EL PRECIO DEL ÉXITO

قبـل أسـبوعين مـن نـشر روايتـه، بـدأ رامـون يشـعر بأوهـام النجاح. كان يركـب البـاص مثـلا ويتخيـل أن نـاشره يتصـل بـه عـلى الموبايـل ليقـول لـه إن لديـه، ومـن قبـل التوزيـع، طلبيـات بأكـثر مـن خمسـين ألـف نسـخة.

- لماذا؟ -كان يسأل- لا أحد يعرفني.
- بسبب الموضوع، المكتبات يشدها الموضوع.

وكان يسـير بالموبايـل مفتوحـا، متحققـا كل برهـة مـن أنـه يعمـل، فربمـا حـاول أي مخـرج سـينمائي عشـق كتابـه أن يتواصـل معـه. لكـن أوهامـه المعتـادة كانـت مرتبطـة بنـوع مـن التبـادل. كان يتجـول مـع الكلـب، مثـلا، ثـم يسـأل نفسـه إن كان يبـادل الكلـب في مقابـل أن تنجـح الروايـة.

- بثلاثين ألفا.
- يبدو لي قليلا، ارفع حتى أربعين.
- أربعين، اتفقنا.

كان يدخـل في هـذه الصفقـات بسرعـة فائقـة، كأنـه بالفعـل مكـون مـن شـخصين بمصالـح مختلفـة: الأول يهتـم فقـط بنجـاح العمـل،

والثـاني بالأربـاح العائليـة.

- ومِن نفسك؟ ما الذي تستعد للتضحية به من نفسك؟
- ماذا تريد أن تقول؟
- بكم نسخة تتنازل عن أصابع يدك اليسرى؟
- كل أصابع يدي اليسرى؟
- نعم، كلها.
- بمليون نسخة. مئتا ألف في الإصبع.

ثـم كان يتخيـل نفسـه يعيـش مـن دون أصابـع، لكنـه محـاط بـكل وسـائل الراحـة وبالشـهرة. كان طـلاب الأدب يتصلـون بـه لأنهـم يخصصـون أطروحاتهـم في الدكتـوراه عـن أعمالـه، لكـن رامـون لم يكـن يتكلـم معهـم، إذ تعاقـد مـع سـكرتيرة تقـوم بـكل مـا يخصـه. وكان رؤسـاء الدولـة والملـوك والأمـراء والأكاديميـون يرغبـون في تنـاول الغـداء معـه، إذ كان قـد تعلـم أن يديـر حياتـه بامتيـاز بأصابـع اليـد اليمنـى. وكانـوا يقدمـون لـه اللحـم الفيليـه مقطّعـا. بالإضافـة إلى أن ثمـة باحثـا ألمانيـا كان يصنّـع أطرافـا صناعيـة عـرض عليـه أصابـع تعمـل بشـكل معقـول. وذات يـوم، مـع امتـداد هـذه الأوهـام، عـرض عـلى نفسـه بيـع مليـون نسـخة في مقابـل أن يمـوت أبـوه.

- يجب أن آخذ وقتي في التفكير. أجاب على نفسه.

كان أبـوه عجـوزا وترمّـل منـذ خمـس سـنوات. كان وحيـدا وبائسـا. وكان يقـول لـه باسـتمرار إنـه يريـد أن يمـوت، إن هـذه ليسـت حياة، إذ كان يتـألم كثـيرا مـن المفاصـل وكان يمـشي بصعوبـة. ربمـا حتـى سيسـدي لـه معروفـا لـو قَبِـلَ البـدل. لكـن اتخـاذ القـرار كان مـن الصعوبـة بمـكان. مـا سـقف تطلعاتـه؟ كان يتسـاءل. لقـد تخـلى في خيالـه عـن الكلـب وعـن هامسـتر طفلـه. وإن لم يتوقـف، ربمـا يحصـد النجـاح في

المستقبل زوجته وابنه بعد أن تركه هو ذاته أكتع وأعور وأعرج. لكن أباه يريد أن يموت، أو هذا ما قاله على الأقل. وربما لا يقبل الصفقة ثم يحدث أن يموت الرجل بعد يومين. في النهاية، وافق وقال لنفسه إنه سيتوقف هنا، وإنه لن يدخل في صفقات مقابل أي من أفراد عائلته. أكذوبة: لقد تفاوض. كان مستحيلا ألا يفعل، إذ كان يقدم لنفسه عروضا مذهلة.

وفي اليوم السابق على صدور الكتاب، حلم بالشيطان وقد ظهر له وعرض عليه نجاحا غير مسبوق في تاريخ الأدب (سيكون ثيربانتس وشكسبير فاشلين مقارنة به) في مقابل روحه. فوافق. الحق أنه قاوم قليلا، لكنه وافق. وعندما نهض من السرير، وبينما كان يغسل أسنانه، مرت عليه ذكرى خاطفة للحلم، ثم اختفى من ذاكرته.

حققت الرواية نجاحا. باعت في الشهر الأول مليون نسخة، وفي الحال تلقى عروضا للترجمة. وخلال يومين مدوّخين، مات الكلب وكذلك هامستر الطفل، لكنها كانت أحداثا صغيرة مقارنة بالشهرة والدخل المالي. الآن كان يستطيع شراء مئات الكلاب من أي سلالة، وآلاف الهامسترات. ثم فَقَدَ، في حادثة منزلية، إصبعا، لكن ما الإصبع بجانب هذه العاصفة من السعادة. ومات أبوه، بالطبع، لكنه كان موتا متوقعا. قال لنفسه «لقد استراح في النهاية». وذات يوم، وأثناء تكريم له نظمته جمعية المكتبيين العالمية، انصرف لحظة إلى الحمّام وهناك، أمام المرحاض، تذكر بغتة الحلم الذي باع روحه فيه وأدرك أن كل تلك الصفقات المتخيلة كانت قد حدثتْ بالفعل. هاجمته نوبة رعب تلتها نوبة أخرى. ثم خرج من الباب الخلفي، تاركا كل الناس في انتظاره، ولم يعد أحد يعرف عنه شيئا.

مسألة إيحاء
UN CASO DE SUGESTION

وجدت نفسي في بيت صديق ريفي، مدعوا إلى الغداء. صديق له ابنة مراهقة كانت ترتدي البيكيني الأصفر. كل الموجودين كانوا يرتدون البيكيني إلا أنا، أرتدي جاكيتا من الصوف عالي الرقبة. وكانت زوجة صديقي تؤكد أن البرد والحر ليسا إلا مسألة إيحاء لا أكثر.

- أنت تشعر بالبرد لأنك مقتنع بأن الجو بارد، ونحن نشعر بالحر لأننا نعتقد أن الجو حار.

- لكن حمّام السباحة مثلج. رددت عليها.

- المياه لا تعرف الإيحاء لأنها بلا عقل. أنا أتكلم عنّا، عن البشر.

كان الحوار يسيل بلطف بينما نتناول المقبلات في مطبخ البيت الرحب، ومن هناك نتطلع إلى الحديقة وحمّام السباحة المكسو بطبقة ثلجية صنعوا فيها ثقبا ليستحموا فيه. وفي لحظة محددة، راح صديقي وزوجته ليسبحا، وبقيت أنا مع البنت المراهقة التي جلست إلى مائدة المطبخ لتأكل البطاطس المحمّرة من طبق زجاجي كبير. حينها، وبينما أبواها يسبحان بسعادة بالخارج،

ماتت الفتاة فجاة والبطاطس في حلقها. أدخلت إصبعي في فمها لأسحب واحدة البطاطس، فربما يساعدها ذلك على التنفس، لكنها كانت ميتة تماما. ويائسا، حملتها إلى الصالة ووضعتها على الأريكة وقبّلتها قبلة الحياة. كانت أخف من قطتي.

لم أنجح في فعل أي شيء. وحين كنت على وشك الخروج لأطلع أبويها على ما حدث، سمعتهما يصرخان. كانا يسخران مني. يؤكدان أني أتصنع الشعور بالبرد حتى لا أستحم لأني أخاف من الماء. أدركت حينها أني عاجز عن نقل الخبر إليهما. ولسبب لا يمكن شرحه، كنت أشعر بالذنب أمام هذا الموت. عدت حينها للصالة وأمسكت بيد الفتاة الميتة بين يديّ. ثم غمضت عينيّ وعزمت أن أمنحها جزءا من حياتي. أتذكر أن شعورا غريبا بالدفء قد ملأني، شعورا شديد الكثافة، قبل أن ألحظ أن الحياة عادت، بالفعل، إلى جسد الفتاة التي فتحت عينيها بمجرد أن أطلقت يديها.

- أعتقد أني مت لبرهة. قالت وهي تجلس.

وأنا عدت إلى المطبخ وواصلت تناول المقبلات. دخل أبواها ليتنشفا بمنشفتين ملونتين وبعد قليل جلسنا لنتناول الغداء معا.

في هذه اللحظة صحوت. نظرت إلى الساعة وكانت الثالثة فجرا. كان حلقي جافا والشعور بالاستغراب الذي يملؤنا من الأحلام النابضة جدا لم يفارقني بعد. كانت يداي لا تزالان تذكران ملمس يد الفتاة قبل أن تُبعث، وفي فمي لا يزال مذاق المقبلات، البطاطس المحمرة والزيتون. كنت وحيدا بالبيت، هكذا لم يكن ممكنا أن أتحدث مع أحد لأخفف عن نفسي إحساس أني عقدت صفقة مع الموت. ولأن الليل يضاعف كل شيء، تضاعف خوفي من

الظلام. أضأت كل الأنوار، رغم ذلك بدا لي البيت معتما جدا. فكرت أن النور مسألة إيحاء. إن اعتقدتَ أن الإضاءة خافتة، فسيتبدى لك الظلام، حتى لو كنت تحت شمس ساطعة. أظن أني ظللت أرقا مدة ساعة، متنقلا من هنا لهناك. وحين دخلت في السرير مرة أخرى، فتحت راديو ثم أطفأته في الحال، إذ كان يذيع برنامجا عن الأمور الخارقة زاد أرقي.

لا أعرف كم تأخرت حتى استغرقت في النوم، غير أني أعرف أني رأيت في الحلم مجددا صديقي وعائلته. كانت قد مرت أيام منذ كنت معهم في البيت الريفي. كانت حياتي عادية، لو استثنينا إرهاقي منها. لم أكن قادرا، كما كنت من قبل، على صعود سلم بيتي (في الدور الرابع). وكنت فقدت شهيتي ومذاق الأشياء التي كانت من قبل تثيرني. ليس مذاق كل الأشياء، إنما نصفها تقريبا. ومعتقدا بأنه خلل كيمياوي، بدأتُ في تناول فيتامينات من دون أثر يذكر. المسألة ليست أني كنت مريضا، لكني لم أكن كذلك على ما يرام. وفي العمل كنت أنتج نصف ما كنت أنتجه من قبل. الحياة، في النهاية، غدت نصف حياة.

أثناء ذلك، اتصل بي صديقي ليحكي لي، وهو مشغول جدا، أن ابنته تعاني من مشكلات. أي نوع من المشكلات؟ سألته. أجابني بأنها تبدو نصف ميتة، أو نصف حية. لا شيء يؤلمها، لكنها فقدت 50% من حيويتها. وفي المواد التي كانت تحصل فيها على عشر، باتت تحصل على خمس، وكل شيء هكذا. صحوت في لحظة إنهاء المكالمة مع صديقي، لكني أعتقد أني استيقظت نصف يقظَة، بمعنى أن نصفي فحسب ما استيقظ، وبقيت على هذه الحال حتى الآن.

حكاية حقيقية

UNA HISTORIA VERDADERA

اكتشفتُ حشرة سوداء فوق حائط الصالة، ربما كانت جعرانا. فنهضتُ بجريدة ملفوفة لأقضي عليها، لكن حين أوشكتُ أن أضربها تحولتْ إلى بقعة. الحيرة شلّتْ حركتي. كنتُ قد نمتُ والتلفزيون مفتوح بينما كانوا يعرضون فيلما وثائقيا عن الحشرات. كانت حنجرتي جافة، وبالتالي توجهتُ إلى المطبخ وصببت كوب ماء ببعض الليمون. عند عودتي إلى الصالة، كانت البقعة قد اختفتْ. فكرتُ أنها حشرة قادرة على التنكر في شكل بقعة، مثل حشرات أخرى تتنكر في شكل عصا، وهنا انتهى كل شيء. في ذاك المساء كان لديّ اجتماع في شركة الإنتاج. وأتذكر أننا كنا نستمع إلى المكلف بالديكورات عندما التفتُّ ورأيتُ في الحائط المواجه حشرة. أثناء ذلك ثمة شخص نبّهني لشرودي، وعندما نظرتُ مرة أخرى لم تكن الحشرة هناك.

في اليوم التالي كان لدينا عشاء في البيت. وقلتُ لزوجتي إني سأتكفل بشراء السمك. أعرف بائع سمك قريبا من شركة الإنتاج، فاتصلتُ به تليفونيا لأقول له ما أريد، واستمعت لما أوصاني به. وقال لي كل شيء سيكون جاهزا عند الظهيرة. وحين دخلتُ

المحـل، رأيـتُ الحـشرة مـرة أخـرى. كانـت في حائـط العمـق، فـوق القرميـد. اسـتغربتُ لأن محـال الأسـماك مـزودة بنظـام فعـال جـدا مضـاد للحـشرات. «مـا هـذا؟» سـألتُ البائـع. «هـذا؟» قـال وهـو يقـرّب إصبعـه، «إنهـا قطعـة مـن سـلك الكهربـاء خرجـتْ مـن مكانهـا لا أعـرف لمـاذا». المؤكـد أنهـا تحولـتْ إلى قطعـة سـلك في اللحظـة التـي اقـترب فيهـا بإصبعـه. أدركـتُ ذلـك بوضـوح بالـغ لكـن لم أقـل شـيئا.

في النهايـة، كنـا نتعـشى حـين رأيـتُ الحـشرة فـوق ياقـة أحـد المدعويـن إلى العشـاء وكان بعيـدا عنـي بعـض الـشيء. نهضـتُ بذريعـة مـا واقتربـتُ منـه. وعندمـا وضعـتُ يـدي عـلى كتفـه تحولـت الحـشرة إلى شـارة. «هـل تعجبـك؟» سـألني الضيـف، «تفضـل، هـي لـك». أخذتهـا بحيطـة وشـكرته. كان، بالفعـل، جعرانـا. وعلقتـه، تأدبـا، في ياقـه بدلتـي، وكان يسـتعيد حياتـه كلـما توقفـتُ عـن النظـر إليـه. حاولـتُ أن أمسـك بـه عـدة مـرات قبـل أن يتحـول إلى مـادة جامـدة، لكنـي دائمـا كنـت أقبـض عـلى شيء صلـب لأنـه كان، بشـكل شـيطاني، سريعـا.

في اليـوم التـالي، أهديتـه إلى كاتـب سـيناريو يـأتي كثـيرا إلى شركـة الإنتـاج.

- هذه الحشرات تمنح الحظ الحسن. قال.

- من أجل ذلك أهديك إياها. أجبتُ.

صدمتـه سـيارة عنـد خروجـه وقتلتـه. وسـكرتيرتي، بإيمـاءة طيبـة، سـحبت الجعـران مـن عروتـه وأعادتـه إليّ. وأنـا وضعتـه في درج المكتـب وأغلقتـه. ثـم بعـد قليـل سـمعتُ دويـا كأنـه صـوت دبـور. كان الجعـران، ويحـاول أن يخـرج. فتحـتُ الـدرج وقفلتـه عـدة مـرات، بسرعـات مختلفـة، لكنـي دائمـا كنـت أضبطـه متحـولا لشـارة. وأخذتـه

وخرجتُ لآكل، ثم تركته منسيا فوق بار أحد الكافتيريات. وبمجرد ما بلغتُ الشارع، طارت الحشرة مرة أخرى حتى عروتي ثم تحولتْ إلى شيء جامد في نفس لحظة هبوطها فوقي. «لا تفقد أعصابك»، قلتُ لنفسي، «الجنون يبدأ مع التفاصيل، لكنك لست مجنونا. لو احتفظتَ بهدوئك فستعيش».

حدستُ أن الهدوء يكمن في عدم صراع الهلاوس، في تركها تحيا. وبعد كل شيء، لم يكن التعايش مع الحشرة مريحا. وبعد أيام قليلة، وأثناء زيارة أحد معارض النحت، لفت انتباهي عنكبوت بحجم الكف وكان جزءا من مجموعة واسعة. كان مصنوعا بمهارة حتى إني لم أستطع مقاومة إغواء تقريب يدي منه. وبالتحديد في لحظة لمسه، تحول إلى حشرة بالفعل. نظرتُ حولي لأرى أثرا لما فعلته، لكني وجدتُ نفسي وحيدا. العنكبوت، من ناحية أخرى، بعيدا عن هربه، ظل يرمقني كأنه ينتظر شيئا مني. أمسكتُ به بحيطة وحفظته في جيبي. في تلك الليلة، وضعتُ العنكبوت والجعران في علبة أحذية، معا. وفي اليوم التالي، كان الجعران قد اختفى والعنكبوت تحول إلى شيء صلب، من البرونز. وفضولا، هبطتُ به إلى المرآب وأمسكتُ بالشاكوش وضربتُ ضربة واحدة في منتصف العنكبوت. بداخله، كان الجعران موجودا بالفعل. المشكلة أنه لم يكن قد هضمه، وبالتالي كان كاملا. ما لا أعرفه، لأني بلا فكرة عن كيف يعمل السحر، إن كانت ستتاح لي فرصة للقضاء عليه كما قضيتُ على العنكبوت أم لا. واليوم قالت لي زوجتي ألا ألبس هذا الجعران كثيرا لأنه يثير فيها بعض الاشمئزاز. كيف سأقول لها إني لستُ من يلبس الجعران، بل الجعران من يلبسني؟

الجزء الخلفي
LA PARTE DE ATRÁS

حلمت بأني كنت في الشارع وكل شيء كان بظهره. كنت أرى فقط الجزء الخلفي للأشياء وعنق الأشخاص ومؤخرات الكلاب وذيول الطيور. وكنت أسير في شارع خلفي فأرى، بدلا من واجهات المحال، جزءها الخلفي. كان العالم يعطيني ظهره. التفتُّ إلى الوراء، معتقدا بذلك أني قد أرى أنوفا، عيونا، أفواها، أجفانا، لكن أينما نظرتُ كنت لا أرى إلا قفا، مؤخِّرة، ظهرا. وبمجرد أن استسلمت للمشهد، انتبهتُ إلى تجاهلنا لهذا الجزء من الجسد ومن الواقع.

كنت أعمل، في الحلم، كمساعد لمصور فوتوغرافي لا يصور إلا الجزء الخلفي للأشخاص والأشياء. وبالطبع، لم أكن أرى إلا ظهر المصور. كانت جدران الاستوديو ملأى بصور لأشخاص لا يظهر منهم إلا القفا. وفي وسط كل تلك الصور، رأيتِ ظهر شجرة شديد الغرابة، إذ لم يكن للأشجار وجه ولا ظهر. هل يجعلها ذلك أكثر كمالا؟

كنت أعيش مع زوجتي وأربعة أبناء، كلهم يعطونني ظهورهم. لم أكن أعرف لون عيونهم، ولا إن كانوا وسيمين أم قبحاء. وكانت لوحتا ظهر زوجتي ناعمتين، ورمَين خفيفين يروق لي أن أتحسسهما.

لكـن مهـما حاولـت أن أضـع نفـسي في وضـع يسـمح لي برؤيـة وجهها، كانـت تـؤدي بطريقـة مـا لا يمكـن معهـا إلا رؤيـة نفـس الجانـب. وكان لدينـا عصفـور لا يعطينـي إلا مؤخرتـه، رغـم أنـه لم يكـن يتوقـف عـن الغنـاء. والقفـص، مثـل الشـجرة، لم يكـن لـه أكـثر مـن جانـب، إذ كان مسـتديرا ومتماثـلا كليـة. وبالليـل، بعـد العشـاء، كنـا نجلـس في مواجهـة التلفزيـون، لكنـي كنـت أشـاهد ظهـره فحسـب، كـما أشـاهد قفـا عائلتـي. والثلاجـة، لأنهـا بظهرهـا، كان بابهـا ملتصقـا بالحائـط، وبالتـالي كانـت، بالنسـبة إليّ عـلى الأقـل، غـير عمليـة عـلى الإطـلاق.

كانـت الحيـاة اليوميـة مترعـة بصعوبـات صغـيرة، إذ بـدلا مـن غسـيل أسـناني كنـت أضطـر لكشـطها بالجـزء الخلفـي للفرشـاة. ولـكي أخـرج المعجـون كنـت أضطـر للضغـط عـلى قعـر الأنبوبـة. وبالطبـع، كنـت أرتـدي القميـص بالمقلـوب، مـا كان يمثـل عقابـا عنـد سـاعة إغـلاق الأزرار. وأسـوأ شيء، رغـم ذلـك، كانـت الكتـب، إذ لم يكـن ممكنـا إلا فتحهـا مـن الخلـف. في البدايـة، كنـت أقرؤهـا مـن الخلـف للأمـام، لكـن مـع مـرور الوقـت بـدأت في قراءتهـا بالمقلـوب مبـاشرة. أقصـد أن الواقـع فجـأة، رغـم أنـه فعـل ذلـك بالطبيعيـة التـي تعيـش بهـا الأشـياء في الأحـلام، قـام بتغيـير طفيـف، بحيـث بـدءا مـن لحظـة معينـة لم تكـن الأشـياء فقـط بظهرهـا، بـل أيضـا بالمقلـوب. عائلتـي، مثـلا، كانـت تحمـل أحشـاءها للخـارج، مثلهـا مثـل العصفـور. وبـدلا مـن قـول «صبـاح الخـير» كانـت تقـول «ريخـلا حابـص».

- رونـلا حابـص. كنـت أرد متكيفـا مـع الوضـع، لكنـي كنـت مـدركا أن كل شيء بالمقلـوب.

خرجـت إلى الشـارع ورأيـت أنـه صـار مقلوبـا مثـل الجـورب. كانـت دواخـل البنايـات الكبـيرة في الهـواء الطلـق، وكنـت أرى الأشـخاص، إن

كان ممكنا تسمية تلك المصائب هكذا، يمرون في ممرات بيوتهم. لم تكن هناك واجهات. الواجهات الآن في الجزء الداخلي. كل شيء كان محض فوضى في خطوط الأنابيب، في الأحشاء، في البنية التحتية التي صارت في الهواء.

استيقظتُ مستاء، ومدهوشا. وقبل أن أرتدي الجورب، تأكدت من أنه معدول. نفس الشيء فعلته مع القميص والتيشيرت. ثم ودعتُ زوجتي وركبتُ السيارة، ففي ذاك اليوم كان يجب أن أسافر. وبما أن لدي متسعا من الوقت، أخذت بدلا من السير في الطريق السريع الطريق الاحتياطي. انتبهت حينها إلى أن المنظر الطبيعي بهذا الطريق كان إلى حد ما الجزء الخلفي لمنظر الطريق السريع. ومن دون أن أنتبه، كنت قد عدتُ، وأنا مستيقظ بالفعل، إلى الجزء الخلفي. ابتسمتُ وأنا أتخيل أن الخطوة التالية ستكمن في السفر عكس الواقع. وبعد الابتسامة أصابتني نوبة من الذعر. وحدثتْ مصادفة أني مررت بجانب محطة بنزين كانت تطل بظهرها على الطريق الاحتياطي (ولابد أنها تطل بمدخلها على الطريق السريع). رأيت كذلك الواجهة الخلفية لعدة مطاعم. وأدركتُ أني يجب أن أعود في الحال إلى الطريق السريع، غير أني لم أكن أرى الطريقة، فلم يكن ثمة إشارة تدلني. وإن استسلمت للوصول لقبلتي مسافرا عبر الجزء الخلفي؟ تساءلت. وفعلت ذلك، استسلمت، لكن بخوف كبير.

أدركت، عند نهاية السفر، إلى أي مدى اعتدنا أن نعيش فقط في جانب واحد من الحياة. محض خطأ، كأننا نعيش في جانب واحد في بيتنا، أو جانب واحد من جسدنا.

جسد وروح
CUERPO Y ALMA

حكى لي سائق التاكسي أن السيارة شركة بينه وبين أخيه. كانا قد اشترياها بالرخصة مناصفة بينهما. وكان هو يستغلها نهارا فيما يستغلها أخوه ليلا.

- هكذا فهذه السيارة مثل جسد بروحين -أضاف- أسلّمها إلى أخي نظيفة، ويعيدها إليّ قذرة، بمطفأة السجائر ممتلئة بالأعقاب. كذلك، يقودها بطريقة شديدة العنف. لقد اضطررنا إلى تغيير عصا ناقل الحركة ذات مرة، وبدأت علبة السرعات تعاني من مشكلات. والآن أحاول أن أشتري منه نصيبه، لكنه لا يخضع.

كان الرجل يعمل بدوام اثنتي عشرة ساعة. كان يقضي داخل السيارة نصف حياته. كنتَ تراه مسجونا في كرسيه، وفي متناول يده كل ما قد يحتاج إليه، كان بالفعل مثل روح السيارة. لاحظتُ أنه يحتفظ في درج التابلوه بجلد شمواه، ومن آن لآخر كان يمررها على التابلوه ليلمّعه. كان يعلّق أيضا معطرا ليمحو رائحة دخان سجائر أخيه. ولم يكن صعبا أن أتخيل الألم الذي يشعر به كل صباح عندما يجد السيارة التي سلّمها كطبق من ذهب بالليل وقد صارت محض كارثة.

- تخيل أنك في كل يوم، عندما تستيقظ، تجد جسدك قد بات كارثة لأنك تقتسمه مع آخر، وهذا الآخر محض خنزير -واصل الكلام- تخيل أنه يعيد لك جسدا قذرا، بكدمات والتهاب في المعدة بعد أن سلّمته له بأظفار مهذبة مرة كل أسبوع وتغذيه بالخضار المسلوقة وبالسمك المشوي.

- أجده هكذا في صباحات كثيرة -قلت له- كأن أحدا أساء استخدامه بالليل.

- معنى ذلك أنك مصاب بشيزوفرينيا -أكد السائق بكل هدوء- لا تعتبرها إهانة، فسيارتي أيضا مصابة بشيزوفرينيا لأن لديها شخصيتين، روحين، وهذا ما لا يمكن أن يكون.

- إذا لم يرغب أخوك في بيع نصيبه، فاعرض أنت عليه نصيبك.

- الحال أني معتاد على هذه السيارة. هل يمكن أن تبيع نصف جسدك لمالك نصفه الآخر؟

- لا أعرف من مالك نصفه الآخر، لكن لو جلست معه فربما أتوصل إلى اتفاق.

- وهل يمكن أن تتجول في الفضاء بلا جسد؟ وهل ستدخل المترو والباص والبارات من دون جسد، من دون فم، من دون يد ولا عينين ولا أنف ولا أذنين؟

بدأ الرجل يوترني، لكنه وضع وجها باسما وعلّق على حالة الطقس ليخفف توتري.

- أسوأ ما في الأمر -أضاف- أن أخي وأنا توءمان ولا يمكن أن ننفصل لأن أمي أوصتنا في سرير الموت بأن يظل مصيرنا واحدا.

- لو قالت أمك ذلك...

وبكلامنا عن المصائر، وصلتُ لحسن الحظ إلى قِبلتي، وهربتُ

من داخل التاكسي ودخلت صالة تحرير الجريدة. جلستُ إلى الكمبيوتر ورأيت أن لوحة المفاتيح والشاشة كانتا متسختين، كأن بهما شحما. نستخدم الكمبيوترات أربعا وعشرين ساعة في اليوم، في ثلاث ورديات. لكل محرر كلمة سر ليدخل في حسابه، لكننا نتقاسم نفس الجهاز، الجزء الصعب، الجسد. وثمة ناس يسيئون استخدام الجسد. كان جليا أن المستخدم السابق أكل شطيره سمك على لوحة المفاتيح وأنه قد لمس الشاشة بيد متسخة. سحبتُ فوطة مبلولة أحتفظ بها لهذه المواقف ونظفتها. ثم كتبتُ كلمة السر وبدأت العمل.

غير أني لم أقتلع من رأسي فكرة أن الكمبيوتر جسد بثلاث أرواح. وكان موقفي أسوأ من موقف سائق التاكسي. في الظهيرة استدعاني رئيس التحرير ليكلّفني عملا. قلتُ له إني مللتُ من أن يترك محرر النوبة المسائية الكمبيوتر مكسوا بالقذارة.

- يجب أن يكون لكل واحد كمبيوتر، كما لكل واحد جسد واحد. هل تتخيل أن تضطر لمقاسمة جسدك مع خنزير لا يتوقف عن التدخين ولا شرب الكحول ولا أكل الشحوم؟

وهنا وضعتُ أصابعي العشر في شق، إذ كان رئيس التحرير سمينا وقذرا وكان قميصه مبقعا ببقع شحوم كبيرة كما كانت ربطة عنقه مليئة بحروق من السجائر. وكانت رائحته كونياك. القصد أنه كان الجزء السيئ في جسده، هكذا لم يفهمني، أو أنه فهمني بامتياز، إذ بدأ يهملني وبعد قليل انتهى بي المطاف محررا للإعلانات.

هل حالتي مستعصية يا دكتور؟
LES GRAVE، DOCTOR?

في شبابي، شاركتُ فتاة في شقة، وأول ما قالته لي إن غسيل الأواني ينهكها، وبالتالي باتت هذه مهمتي. بدا لي ذلك في البداية ثقيلا، أعتقد لأني كنت أصر على الانتهاء سريعا، لكن بعد ذلك بات يروق لي، فكنت أغسل في الساعة نفس عدد الأطباق التي يغسلها فرد عادي في نصف ساعة. أكثر ما كان يروق لي في هذا النشاط أنه كان يحفزني ذهنيا في تلك الأثناء. وخلال عشر دقائق من تنظيف طاسة من الألمنيوم، كانت الخلايا العصبية تتصالح فيما بينها، وكنت أحل مشكلات كانت تستغرق على منضدة العمل أياما. كان الدعك يساعدني على الدخول في حالة تركيز نادرة كنت أستفيد منها فوائد لا تصدق. مع ذلك، كان يسيء رفيقتي أن تراني مستمتعا بهذه الطريقة، ثم بدأتْ تفكر أن تقتسم الشقة مع شخص منحرف.

- لكن لماذا لا تعترض حين يأتي دورك في غسل الأطباق؟
- لأنه يروق لي.
- لا تمزح. كيف سيروق لك؟
- بالفعل. جريان الماء ورؤية كيف يحمل وساخة الطاسات

ويمر من المصرف يجعلني أتعمق في نوع من النشوة يساعدني على التأمل في الوجود.

فكرتْ في البداية أني أسخر منها، ثم فكرتْ أني منحرف. وحين كنا ندعو ضيوفا وتراني أنهض بعد الأكل لأنظف المطبخ، كنت أسمعها تغتابني. وذات مرة دعت أمها، وبعد أن رمقتني من أعلى إلى أسفل سألتني إن كنت أنا من يروق له غسل الأواني.

- أنا واحد منهم. أجبتها بشعور من ينتمي إلى طائفة سرية من غاسلي الأطباق الموزعين في العالم.

في اليوم التالي، هجرت الفتاة الشقة من دون وداعي، واضطررتُ لوضع إعلان في لوحة إعلانات الكلية، إذ لم يكن في وسعي تحمّل الإيجار وحدي. دائما ما فضّلتُ الحياة مع نساء أكثر من رجال، وبالتالي طلبتُ رفيقة. وجاءتني طالبة بالطب كانت أكثر ما تكرهه نشر الغسيل مهما كان. وأنا لم أفعل ذلك قط، لكن بعد أسابيع قليلة بدأ يروق لي وكنت أرغب بلهفة في العثور على شيء مبلول لأنشره على الحبال. لكن الحقيقة أيضا أن لدينا ممرا داخليا ملهما جدا، وكان يثير شغفي تخيل الحيوات التي تجري على الجانب الآخر من النوافذ التي أراها من خلال نافذتنا. وبعد قليل، كنت أقضي حياتي وأنا أنشر، وبدأت رفيقتي ترتاب في أنها وقعتْ مع متلصص أو سايكوباتي، وهكذا رحلتْ واضطررتُ لوضع إعلان آخر وبفضله تعلّمتُ الطبخ، وهكذا بشكل متتابع.

بشكل جلي، لديّ قدرة غريبة على حب ما أضطر لفعله جبرا. وهذا ما أكسبني شهرة حشرة غريبة بين معارفي. وهذا أيضا يروق لي، وأزرعه بنفسي، بنفس طريقة نشر الغسيل أو غسل الأطباق. هل حالتي مستعصية يا دكتور؟

كل شيء غريب جدا
TODO ES MUY RARO

ذات مـرة أبلغـوني بوفـاة صديـق لم أقابلـه منـذ زمـن طويـل. واكتشـفتُ بعـد ذلـك أنـه كان خطـأ (لقـد التبـس عليهـم الأمـر، ظنـوا أنـه مـات في حادثـة قطـار لتشـابه نفـس الاسـم واللقـب)، مـع ذلـك ظل في رأسي ميتـا مـدة يومـين ثـم كان مـن المسـتحيل أن أبعثـه، مهـما قالـوا لي إنـه عـلى مـا يـرام. وكنـتُ قـادرا فحسـب عـلى التفكـير فيـه كجثـة حـاضرة، وبالتـالي حـين هاتفنـي لنتغـدى معـا بـدت لي مكالمـة من وراء القـبر. عـلى أي حـال، قبِلـتُ دعوتـه، بالطبـع. لم يكـن عنـدي أي ذريعـة معقولـة كيـلا أراه، مـع ذلـك قضيـتُ أيامـا حافلـة بـالأرق الموتّـر. كنـا نعـرف بعضنـا منـذ الطفولـة. نشـأنا في نفـس الحـي وفي فـترات مـا كنـا نلتقـي يومـا وراء يـوم، حتـى بعـد أن تزوجنـا، إذ كانـت زوجتـي وزوجتـه صديقتـين قريبتـين حتـى انتهـت صداقتهـما لأسـباب ليـس هنـا محـل ذكرهـا، مـا سـاهم بالتـالي في ابتعادنـا نحـن كذلـك.

وفي الليلـة السـابقة عـلى العشـاء تمكنـتُ بالـكاد مـن أن أنـام. كنـت أتخيـل نفسـي في المطعـم، مـع صديقـي جالسـا أمامـي، بجثـة غـير مدفونـة، فتجتاحنـي قشـعريرة.

- ماذا بك؟ سألت زوجتي.

- اتفقت مع أنطونيو على لقائه غدا ولا أستطيع تخيله حيا في الحقيقة.

- أي هراء تقول!

وصلتُ إلى المطعم قبل الموعد بعشر دقائق أو ربع ساعة، حتى أكون جالسا حين أراه داخلا، إذ في المواقف ذات الاضطراب العالي أكون عرضة للتبخر. أذهلني، مع ذلك، لونه الرائق. كان في إجازة في الكاريبي وجاء خمريا، ما تعارض مع بشرتي البيضاء عموما، وفي الشتاء أكثر بياضا. كان يرتدي ملابس رياضية، وعليَّ أن أقول إني لم أجده غير ميت فحسب، بل وجدته بشباب متجدد. وبالفعل، رغم أني أصغر منه بعامين، إلا أني كنت أكبر منه في ذاك اليوم.

تحدثنا عن الحي، ولِمَ لا، عن اللبس الذي تسبب في موته لمدة ثمان وأربعين ساعة. وكانت حركاتي همجية، مندفعة على ما أظن، بالحقد الذي أثاره فيّ جمال هيئته، واعترفتُ له ما حدث لي، مضيفا من دون تفكير كثير:

- الآن وأنت أمامي أعرف أنك حي، لكني متأكد أني بعودتي إلى البيت سأتخيلك مرة أخرى جثة حاضرة.

حينئذ تأملني بعمق غريب، كأن نظرته تأتيني من الطفولة ذاتها، من الحي الذي نشأنا فيه معا. أريد أن أقول إنه تأملني عبر الزمن، ثم دفع الفاتورة من دون أن ينبس بكلمة. ومنذ ذاك اليوم لم نلتق مرة أخرى. وبالنسبة لي غدا بالفعل كأنه ميت.

حياة وحلم
UNA VIDA Y UN SUEÑO

حلمتُ بالأمس باللغة الروسية. ومع أني لم أسافر إلى روسيا قط، إلا أني كنت أتحرك في موسكو بخفة أحسد عليها وكنت أتحدث بالروسية. ليس هذا فحسب؛ كنت أقرأ الجرائد وأستمع للراديو دون أدنى مشكلة. وكان لديّ ابن كذلك، صغير جدا، وكان يتوه في متاهة شوارع الحي القديم بالمدينة. وفي لحظة انفصاله عن يدي، كان الليل قد حلّ وكانت تتساقط مكعبات ثلجية تضيء الجو بشكل طفيف. وكنت أتجول في الحارات وأسأل المارة بالروسية إن كانوا قد رأوا طفلا بصفات ابني. ثم بعد قليل استيقظتُ ممتلئا بالقلق. وفي الحال انتبهتُ إلى أني لستُ روسيا، بالطبع، ولا أنا أبو الطفل الذي ضاع في التو. وكان يبدو جليا أني حلمتُ حلما دخيلا عليّ.

في اليوم التالي، وبينما كنت أتناول فطوري، كنت أسترد جنسيتي الإسبانية رويدا رويدا، لكن كلما شعرتُ أكثر بإسبانيتي، كنت أتحسر أكثر على هذا الأب وهذا الابن اللذين قضيتُ معهما الليلة. وفكرتُ أني لو تأخرتُ قليلا في الاستيقاظ فلربما كنت عثرتُ على الطفل وما شعرتُ بهذا الثقل في ضميري. على أي حال، كنت

أتمنى إعادة الحلم إلى صاحبه ليفعل به ما يروق له. فأنا لا أحب أن أستحوذ في أدراجي ولا في رأسي على أشياء ليست أشيائي. فذات مرة عثرتُ على محفظة في الشارع، ولأن الوقت كان متأخرا أخذتها معي إلى البيت وأنا أفكر في تسليمها إلى الشرطة في اليوم التالي. ثم في السرير لم أستطع أن أغط في النوم بسبب هذه المحفظة السعيدة، هكذا ارتديتُ ملابسي ورحتُ لأسلمها لقسم الشرطة الأقرب.

- كان يمكن أن تنتظر حتى الصباح. قال المفتش.

مشكلة الحلم الذي ليس حلمك أنك لا تعرف أين تسلّمه. فلا يمكن أن تتوجه إلى مكتب الأشياء المفقودة وتقول إنك عثرت على حلم ضائع؛ سيعتبرونك مجنونا. هكذا فأنت مضطر للاحتفاظ به، أعجبك ذلك أم لا. وأنا احتفظتُ به، لكني نشرتُ إعلانا في جريدة لم يرد عليه أحد، وقلتُ إن لديّ حلما ليس حلمي. لقد حاولت أن أتجرد منه بألف طريقة، لكني لم أجد طريقة لأنتزعه من رأسي. ومنذ فترة قريبة، في حفلة أقيمتْ في المكتب بمناسبة زيادة المبيعات، حكيتُ ذلك لزميل وضحك عليّ.

- لو أنك من حلم به فهو حلمك. قال.

لم أعرف كيف أشرح له أن لا، أنه ليس حلمي، ثم تراجعتُ عن فعل ذلك. ثم وبينما رئيسي يتفوه بخطبة التهنئة، أدركتُ فجأة أنه حتى الحياة التي كنت أعيشها لم تكن حياتي. كان ذلك مثل وحي. «أنا أعيش حياة شخص آخر»، قلتُ لنفسي. لكني لم أعرف أيضا إلى من أعيدها. الحال أني الآن لديّ شيئان لا ينتميان لي: حياة وحلم. مع كلٍّ، فأغرب شيء أن لكل منهما جنسية مختلفة عن الأخرى.

الكتلة السائلة

LA MASA LÍQUIDA

قالت فتاة مراهقة لصديقتها في الباص:

- أشعر بأني مجرد دخان. وأستطيع أن أتخذ الشكل الذي يحلو لي. أضم نفسي وأتبدد مثل بخار. بالأمس مررتُ من تحت باب غرفة نوم أحد جيراني ورأيته عاريا. وهو لم ينتبه حتى إلى أني كنت أتحرك حوله، لأنه كان يدخن فذُبتُ بين دخانه.

- أنا أيضا أتحول إلى دخان -قالت الأخرى- أستطيع أن أتمدد حتى أغدو غير مرئية وأعيد بناء نفسي كما يحلو لي. انظري إلى أصابعي؛ إنها تتمدد مثل دخان سيجارة وتعبر من فتحات أنف من أريد. وبالأمس، في حصة الرياضيات، دخلت من فتحتي أنف المدرس وتجولتُ بجهازه التنفسي. لديه حويصلات هوائية مبهرة، مبهرة. إنه من الداخل أجمل من الخارج.

لا أعرف أي قذارة تناولتها هاتان الفتاتان لتشعرا بتلك المشاعر. الحقيقة أني، ومن دون أن أتناول إلا كأس جِن على رُن، بدأ إيحاء كلماتهما يحركني، وشعرتُ بعد قليل بأن كل جسدي كان دخانا. نزلتُ من الباص في شارع فرانثيسكو سيلبيلا بصعوبات كبيرة في وضع قدميّ على الأرض، إذ إن أي تيار هواء، مهما كان صغيرا،

كان يجبرني على الطفو. وفي أحيان أخرى، وبالإضافة للطفو، كنت أتشوه. كانت رقبتي تتمدد وكانت تتمدد حتى تتحول إلى خيط، وكلما أملتُ برأسي كنت أرى قدميّ هناك بالأسفل، على بعد أمتار. لكن مهما تمددتُ أو مهما تشوهتُ لم أفقد قط وعيي بأني جسد بكل ما فيه من أعضاء.

ميزة أن تكون دخانا بالإضافة لتمددك هي قدرتك على التركيز. كانت ثمة امرأة متوسطة العمر تسير أمامي، كانت جذابة جدا وترتدي معطفا بمربعات له جيوب كبيرة. دخلتُ في أحد جيوبها وكوّرتُ نفسي، كرة من الدخان كانت هي تفتتها بين أصابعها من دون أن تنتبه. ثم صعدتُ إلى ظهرها كورقة ضباب، وتوغلتُ بين شعرها وخرجتُ من رأسها، كأن الأفكار قد احترقتْ. وكانت هذه مشاعر مبهرة.

«أتمنى ألا أفيق، أتمنى ألا أفيق»، كنتُ أصلي للرب لأنه سهّل لي هذا الشعور بالواقع من غير أن أحتاج إلى تناول برشام أو تدخين سيجارة حشيش، لأني حسّاس لكل شيء تقريبا. وهجرتُ جسد السيدة متوسطة العمر في ميدان مانويل بِثِرًا ودخلتُ أول مدخل بيت قابلته في خطوتي. كان مدخل بيت قديم، بسقف مرتفع جدا، ومظلم قليلا. طفوتُ حتى الطابق الأول ومررتُ من عين كالون الباب الذي كان يحمل لافتة تقول: «طبيب أنف وأذن وحنجرة». كان الطبيب في تلك اللحظة يكشف على حنجرة مريضة تشبه جدا السيدة التي هجرتها في التو في مانويل بِثِرًا. ربما كانت أختها التوءم. وأغرمتُ بها في الحال.

- حنجرتك مذهلة -قال الطبيب- وردية ورطبة، كما ينبغي أن تكون.

- يبدو أنك تتحدث عن شيء آخر. ردّتْ بنبرة مثيرة.

- نعم أتحدث عن شيء آخر -أضاف- لكن كما تعرفين فأفضل طريقة للكلام عن شيء هو الكلام عن شيء آخر.

- معك حق -قالت المرأة- أنا وأنت لم نتكلم قط عما تكلمنا عنه في الواقع.

فكرتُ أن كل هذه الألعاب بالألفاظ مجرد عتبة لعلاقة حسية. لكن لا. فبعد برهة من الحديث المعقد وبالطريقة التي أشرت إليها، نهضت السيدة وارتدت بالطو الطبيب الذي كان هو يرتديه، وبدلا مكانيهما.

- أنت أيضا لك حنجرة وردية ورطبة. قالت المرأة وهي تتطلع إلى فمه.

لم يكن ثمة مرضى آخرون. فكرتُ أنه بداخل البيوت تحدث أشياء مذهلة. أشعلت المرأة سيجارة وكلما طردتِ الهواء كنت أتضافر معه وأنا ألعب بالتسلل إليه والتسرب منه، إن كان يمكن قول ذلك، وأعتقد أنه لا، لكني لا أجد كلمة أخرى لأعبّر عما كنت أشعر به. في النهاية خرجتُ عبر فتحة في النافذة وطفوتُ فوق شارع مترع بالسيارات. وكان للازدحام المروري، عند رؤيته من أعلى، طابع أخلاقي لا يمكن حدسه من مكاننا بالأرض.

في تلك الليلة، وعندما كنت في السرير بعد الاستماع إلى الأخبار بالراديو، استحلتُ خيطا من دخان طويل جدا وتجولتُ في كل البيوت المجاورة كثعبان غير مادي. في حالتي هذه، وعند دخولي البيت رقم 3C، اصطدمتُ بواحدة من فتاتَي الباص، وكانت على ما يبدو تعيش هناك. ولأن كلا منا من الدخان، تعرف كل منا على الآخر سريعا.

- ماذا تفعل في بيتي؟ سألتْ.

- لا أعرف -قلتُ- لقد انسللتُ وجئتُ إلى هنا.

- إذن أنت تتمدد، لا تتجسد فجأة حتى لا يراك أبواي. لا أريد مشكلات.

وخرجتُ من البيت باكيا من معاملة المراهقة لي، وتجسدتُ بالفعل على بسطة السلم. وفي اليوم التالي، صادفتها مرة أخرى وكانت مع صديقتها في الباص. لا أعرف أي قذارة قد شربتها، الحال أنها قالت:

- لديّ شعور أني سأصير اليوم كتلة سائلة.

خطأ مطبعي
UN ERROR DE TINTE

كان بروفيسور اللغة اللاتينية قد ركن السيارة صفا ثانيا بينما كان يشتري زجاجة شامبانيا ليحتفل مع زوجته بنشر كتاب في القواعد كرّس له نصف حياته. وكان حدث ظهور الكتاب في الأيام الأولى من القرن العشرين يبدو له مصادفة سعيدة، كأنه بذلك يضمن له ألفية مثيرة في مقابل الألفية المملة التي مضت. كان يرى نفسه أمام حياة ثانية قد تعوضه بنجاحات اجتماعية عن فشل الحياة الأولى. ولم يكن يتمنى أكثر من ذلك. ولا أقل من ذلك، قال لنفسه بوخزة حقد معتبرا نفسه الشخص الذي لم يهادهِ أحد قط أي شيء.

وعندما خرج من المحل رأى أربعة شباب يحدقون به بانطباع عدواني وينتظرونه ليحرك سيارته ليتمكنوا هم من تحريك سيارتهم.

- هيا أيها العجوز، تحرك مرة واحدة لأننا متعجلون. قال من كان يبدو بصوت مطرب.

حاول بروفيسور اللاتيني الإسراع، لكن كل شيء بدأ يحدث فجأة بالتصوير البطيء، بحيث إنه استطاع مشاهدة نفسه، كأنه

في تجربة خارج جسده، وهو يغيّر زجاجة الشامبانيا من يد إلى يد بحثا عن مفاتيح السيارة في جيب المعطف الأيمن. وبينما كانت اليدان بأصابعهما تتسللان بين طيات النسيج حتى لا يزيد من غضب الشباب، كان يعبر برأس البروفيسور، بالتصوير البطيء أيضا، كل مشاهد الإذلال التي تعرض لها أشخاص عقلاء مثله طوال القرون الأخيرة. وبالمفاتيح في يده أخيرا، وبينما يخطو خطوتين مهزوزتين في اتجاه السيارة، قرر أن القصة لم تكن عادلة مع مَن هم مِن سلالته، وبالتالي عندما كان على وشك فتح الباب، أعاد المفتاح إلى جيبه، وبدّل الزجاجة من يد ليد واقترب من الشاب وسأله بسذاجة، كأنه أثار فيه اهتماما لغويا فحسب، إن كان حاول توجيه إهانة إليه. حينئذ، ودوما بالتصوير البطيء، لاحظ إيماءة الشاب الحائرة، وابتسامته المضطربة، وخوفه من أن يكون مهانا أمام أصدقائه، ثم قرر البروفيسور أنه شاب جبان، وبذلك تخلى عن نبرته الأكاديمية ووجه إليه سؤالا بطريقة أخرى:

- كنتُ أسألك إن كنتَ وجهتَ لي إهانة يا حيوان.

رمق الفتى زجاجة الشمبانيا، التي كانت تهتز مهددة في يد العجوز، وتقهقهر مدمدما من تحت ضرسه بعبارة غير مفهومة. لكنه كلما ابتعد كان غضب البروفيسور الداخلي يتصاعد، وكان مستعدا لفعل أي شيء ليعيد إليه الفتى الاستفزاز. وفي النهاية، انتظر الشباب بصبر أن يسحب الرجل سيارته ليحركوا هم سيارتهم. وحينئذ انتهى تأثير التصوير البطيء وتراجع الاندفاع الغريب عن الواقع، رغم أن الكراهية كانت في تصاعد وكان البروفيسور يقود السيارة بفظاظة في شارع ممتلئ بزينات أعياد الميلاد والموسيقى وبأناس يتفادون السيارات بأيادٍ ممتلئة أكياسا.

كان يشعر بالندم لأنه لم يكسر زجاجة الشمبانيا على رأس الشاب، لكن ذلك أيضا كان يسبب له شعورا كبيرا بالحيرة في نفس الوقت، كأنه لم يتعرف بعد على هذا الشخص العصبي الذي يعيد إليه نظرة خجلى من مرآة السيارة. لقد كان رجلا مسالما، بروفيسورا للغة اللاتينية (بالمرحلة الثانوية، فكّر ليحرّك شفتيه، ولأن كل شيء يجب أن يُقال) ولم يرتبط بالعالم قط بطريقة حربية (bllum، belli [52] كلمة محايدة، أضاف). ربما تمنى ذات مرة موت أحد، هذا نعم، لكنه كان يبحث دائما عن الخير بصورته العليا. لماذا يشعر بهذا الاحتياج لضرب أحد الآن وهو يقترب من الستين، وعلى أبواب ألفية جديدة، وبالتحديد في اللحظة التي أوشك فيها بلوغ طموح حياته، وهو كتاب عن القواعد اللاتينية؟

وجد نفسه محشورا في إشارة مرور، غارقا في تأملاته، مذعورا بعض الشيء أمام تصور أن نشر الكتاب لم يجعله سعيدا كما فكّر، عندها كان سائق السيارة خلفه قد أطلق تنبيهين حتى يتحرك، إذ كانت الإشارة قد فتحت منذ عدة ثوانٍ. نظر البروفيسور في المرآة ورأى رجلا أصغر منه سنا ويومئ له بإيماءات استياء. حينئذ وضع السيارة باتجاه الخلف وأسرع بكل ما في قوته ليضرب السيارة التي كانت تجأر، ثم فتح على الأول وطار بكل طبيعية. بعد قليل، لحق به السائق المعتدى عليه وأشار له بيده أن يقف، لكن بروفيسور اللاتيني رد عليه بتشمير كميه.

في الإشارة الحمراء التالية، اعتدى عليه السائق المعتدى عليه، إذ خرج من السيارة بغضب جم ليصفي معه حساباته. حينها

(52) كلمات لاتينية تعني حرب، محارب [المترجم].

أنـزل البروفيسـور النافـذة بانطبـاع صـبر، وقبـل أن يعطـي للآخـر فرصـة ليتحـدث قـال لـه:

- انظـر أيهـا المعتـوه، معـي في درج التابلـوه مسـدس بـه سـت طلقـات، وبالتـالي إن لم تحـرك مؤخرتـك فـورا وتتجـه إلى سـيارتك فسـأطير رأسـك. وأضـاف لنفسـه: caput، capitis [53].

تـردد الرجـل لثـوانٍ، لكـن عندمـا بـدأت يـد البروفيسـور تتحـرك ناحيـة درج التابلـوه، انسـحب مطرقـا بذيلـه بـين سـاقيه. كان العـالم، إذن، حافـلا بالجبنـاء. كيـف لم يكـن ممكنـا أن ينتبـه لذلـك حتـى ذاك اليـوم؟ وفجـأة، بـدا لـه نـشر كتـاب القواعـد الـذي مثّـل الحـدث الأهم في القـرن الواحـد والعشريـن مجـرد تفاهـة وجوديـة مقارنـة باكتشـاف العنـف كوسـيلة للحيـاة.

قبـل أن يصـل إلى بيتـه، ركـن سـيارته صفـا ثانيـا أمـام مركـز تجـاري كبـير، ومـن هنـاك اشـترى سـكينا أوتوماتيكيـة بـدت لـه دقتهـا مذهلـة. خبأهـا في جيـب المعطـف الأيمـن، وبينـما كان يتوجـه إلى الشـارع كان يلعـب بهـا فاتحـا وقافـلا إياهـا، واكتسـبت الحيـاة مـن جديـد نمـوذج التصويـر البطـيء مـن دون أن يسـاهم بـشيء منـه في ذلـك. وبهـذه الحـركات التأمليـة المميـزة لهـذا الشـعور، توجـه إلى البـاب وهـو يتمنى أن يقابـل شـخصا يشـتمه لأنـه ركـن سـيارته صفـا ثانيـا. لكنـه لم يعـثر عـلى أحـد، وحتـى يخفّـف مـن كرهـه، قطّـع الكـراسي بالسـكين بمجـرد مـا دخـل السـيارة، وهكـذا تراجعـت رؤيـة التصويـر البطـيء واسـتعاد العـالم سرعتـه المعتـادة.

وعندمـا وصـل إلى البيـت، لاحظـت زوجتـه ورمـا غريبـا في جيـب المعطـف، فـشرح لهـا أنهـا سـكين.

(53) كلمات لاتينية بمعنى: رأس، رأسك [المترجم].

- الحكاية أني استعدتُ تألقي. أضاف.

نظرتْ إليه المرأة متعجبة، إذ لم تسمعه قط يتحدث بهذه الطريقة. لكن حين شرع في إضافة شيء لاحظتْ في نظرة زوجها بريقا مؤرقا وفضّلتْ أن تغير الموضوع.

- لقد أحضروا بروفة كتاب القواعد. قالت، معتقدة أنها تمنحه بهجة .

- رائع، دعيها هنا. رد ثم شرع في البكاء.

- ماذا بك؟ سألتْ.

- ركنتُ السيارة صفا ثانيا بالأبواب المفتوحة حتى أشتري الشامبانيا وجاء شخص وقطّع كل الكراسي.

رمقت السيدة ورم السكين في المعطف بنظرة متحفزة. ثم لاحظت في زوجها مزيجا من الشفقة والرعب، ثم ركضتْ إلى المطبخ بذريعة أن شيئا يحترق على النار.

وفي العشاء، ولأن البروفيسور، بالإضافة لحزنه، لم يفتح مظروف دار النشر ولا بروفة الكتاب بعد، عادت زوجته لتسأله، وهذه المرة بنوع من الغضب، إن كان حدث له شيء.

- أنا محتاج إلى أن أقتل أحدا -أجاب البروفيسور- إن لم أقتل أحدا، فسأموت. هذا ما يحدث.

في تلك الليلة، ظلت السيدة متوترة بجانب الرجل الذي نام في غمضة عين. وفي اليوم التالي، وأثناء الإفطار، تصرف البروفيسور كأن شيئا لم يكن. ثم، عندما ارتدى المعطف ولاحظ ورم السكين، سأل:

- ماذا تفعل هذه هنا؟

- لابد أنه خطأ مطبعي -قالتْ- سأتكفل أنا بإعادتها.

وكانت هذه كل الحكاية.

دليل مدريد
LA QUÍA DE MADRID

عندما قرر خوانخو[54] السفر إلى مدريد للمرة الأولى في حياته، اشترى دليلا لـ بوينوس آيرس لأن أدلة مدريد في محطة مدينته كانت قد نفدت. فكر أن «كل المدن في النهاية مجرد شوارع». وبالفعل، كانت كلها مجرد شوارع. ما الفارق بين أسمائها. المهم أن السير في شارع ما سيؤدي إلى شوارع أخرى تصب بدورها في أوردة شبيهة بالسابقة. فكر أن الشارع أحد اختراعات الإنسان الألفت نظرا؛ تظهر لتفتت لا نهائية الكون، لكنها في النهاية تغدو أكثر تعقيدا منه. لذلك يسافر الناس إلى الجبال في نهاية الأسبوع.

وصل خوانخو، إذن، إلى محطة أتوتشا ومعه دليل بوينوس آيرس، وأول ما فعله كان فحص خريطة المدينة ليضع نفسه خياليا في مكان ما. «أنا في هذه الناصية»، قال لنفسه وهو يضع سبابته عشوائيا على إحدى نواصي بوينوس آيرس. «لو واصلتُ في هذا الشارع الرئيسي فسأصل إلى هنا»، قال وفعل. وبدأ يسير بحقيبة السفر في يده في «منتزه البرادو» ووصل إلى «هنا». «هنا» كان بالمصادفة «ثيبِلِس»[55]، لكن كان يمكن أن يكون أي مكان آخر.

---

(45) هو اسم التدليل لخوان خوسيه [المترجم].

(55) ميدان مشهور.

نظر في خريطة بوينوس آيرس ورأى فيها ميدانا. قرر أن يسير طبقا للخريطة إلى اليمين وبهذه الطريقة بلغ «لا بويرتا دي ألكالا»، ومن هناك، وبالخريطة في يده دائما، وصل إلى شارع بيلاثكيث. وهناك وجد بنسيونا يطمح إلى أن يكون فندقا. وفكر أنه كان من الأفضل بنسيونا بطموحات فندق من فندق بطبيعة بنسيون، فطلب إقامة بإسبانية مذهلة.

لو أنه بدلا من العثور على دليل لـ بوينوس كان اشترى دليلا للندن، لكان سيضطر للتحدث بالإنجليزية، حدّث نفسه وحمد الله. رغم أنه في نفس لحظة قول ذلك خرج من عمق البنسيون زوجان وتوجها بالإنجليزية إلى فتاة الاستقبال التي لم تبدِ أي استغراب. أقصد أنه لا يمكن فحسب السفر إلى مدريد بدليل لبوينوس آيرس، إنما كذلك باللغة التي تروق لك. ولأنه كان يعرف قليلا من الفرنسية جرّب حظه ليرى كيف تسير الأمور، وقال لموظفة الاستقبال:

- Bonjour، madame. Il fait froid

- Oui، monsieur .

بعد هذه التجربة، عاد خوانخو إلى الإسبانية حيث الراحة الكبرى. لكن بدا له أن العالم حافل بإفراط بأدلة سفر وبلغات ومعلومات... وفي النهاية، كلنا نحصر أنفسنا في قول الجو بارد، الجو حار، إلخ. وبمجرد أن دخل غرفته، فكّر أن هناك كذلك إفراطا في المتاحف والمطاعم. في دليله لبوينوس آيرس، كان ثمة ثلاث صفحات للمتاحف وأربع أو خمس للمطاعم. وفي قسم «أين تذهب هذا المساء»، رأى عددا غير متناه من صالات الحفلات والحانات الأميركية. أميركا كانت في كل الأماكن، يا للغرابة. وما

من إنسان يستطيع زيارة كل هذه المتاحف ولا تناول الطعام في نصف هذه المطاعم المذكورة في الدليل، حتى لو عاش مئة عام. يا للتبذير.

على أي حال، وبما أنه كان من أنصار الرحلات الثقافية، أكثر من رحلات المتعة الخالصة، قرر في اليوم التالي زيارة متحفين اختارهما بالمصادفة من دليل بوينوس آيرس. الأول كان متحف العادات، إذ بدا له أنه من المهم بمكان أن يتعرف على عادات المكان. وقف، إذن، في أي ناصية من شارع بيلاثكيث، وانحرف يمينا ويسارا، دائما بحسب إشارات خريطة بوينوس آيرس، حتى وصل بالمصادفة لمتحف لثارو جالديانو بمدريد. لم يكن بالضبط متحفا للعادات، رغم أن كل المتاحف متاحف عادات بطريقة ما. فتحت الزيارة شهيته، وبعد الجولة دخل أول مطعم قابله. مطعم لم يظهر في دليل بوينوس آيرس، لكن ما من دليل شامل.

على أي حال، أكل بشهية وأخبر الشيف، شاكرا، بأن الحلو لا يظهر في الدليل. ألقى الشيف نظرة على الكتاب وتعلل بأنه دليل لبوينوس آيرس.

- وما الفارق إذن؟ رد خوانخو وهو يطلب كونياك.

وقضى أسبوعا في مدريد، لم يتوقف خلاله عن زيارة الآثار المشار إليها كآثار مهمة في دليل بوينوس آيرس. وحين عاد إلى مدينته، سألته أمه كيف كانت الرحلة في مدريد، وقال لها في النهاية إنه كان في بوينوس آيرس.

- آه! أجابته الأم.

- أرأيتِ. أضاف.

أخذوا إنريكي إلى السجن
ENRIQUE FUE A LA CÁRCEL

حين كان إنريكي في العاشرة، كان يسمع كلما اضطجع ضجيجا داخل خزانة الملابس. قال ذلك لأبويه اللذين سخرا منه، بحيث قرر أن يحل المسألة بنفسه. كان قد قرأ في قصة ما أن أفضل طريقة لمواجهة الأشباح هي مواجهتها وعقد صفقة معها. في تلك الليلة، إذن، عندما بدأ الضجيج، نهض من سريره وفتح النور ثم فتح الخزانة بقلب في الحنجرة. كان يتوقع العثور على الوحش، لكنه رأى سيدا يرتدي معطفا وربطة عنق وحقيبة سامسونايت سوداء.

- من أنت؟ سأل.

- أنا مدير شؤون العاملين. أجابه الرجل ذو الحقيبة.

كان إنريكي يعرف من هو الجني، والعفريت، والساحر، والشبح، والعرّاف، لكنه لم يسمع قط عن مدير شؤون العاملين، وبالتالي نزل عليه الصمت. لم يكن مستعدا لمواجهة هذا النوع من الوحوش.

خرج مدير شؤون العاملين من الخزانة وقعد على منضدة إنريكي. ثم فتح الحقيبة السامسونايت وأخرج منها أوراقا وبدأ

يوقّعها. وبجانبه قعد إنريكي.

- ما هذه الأوراق؟ سأل.

- أوامر بالطرد. مديرو شؤون العاملين لديهم سلطة طرد الناس من عملهم.

كان إنريكي ينظر لأوامر الطرد عندما رأى اسم أبيه في واحدة منها.

- هذا أبي. قال.

- نعم، إنه أبوك. أحاول طرد أشخاص لديهم أبناء حتى يكون الوضع العائلي أكثر دراماتيكية.

شرع إنريكي في البكاء وترجى مدير شؤون العاملين ألا يطرد أباه. كان له عم عاطل منذ شهور واضطر ابن عمه إلى ترك المدرسة لأنهم لم يستطيعوا دفع المصاريف له. ثم أصبح وجه عمه مثل المجنون، ليس لأنه مجنون بل لأنه يائس. وكان وضعهم، رغم المساعدات العائلية، مقلقا. وكان إنريكي مذعورا من احتمالية رؤية أبيه في ظروف مشابهة.

لقد بكى كثيرا وتوسل حتى خضع مدير شؤون العاملين في النهاية وتفاوض معه في حل.

- انظر -قال له- أكثر ما نقدّره كمديرين لشؤون العاملين هو الأصابع. لا يمكن أن نوقّع شيئا إن لم يكن لنا أصابع ونحن نعيش من ذلك، من التوقيع. ونحتفظ في مملكتنا بمستودع للأصابع البديلة، إذ عادة ما تسقط منا. إن أعطيتني خنصرك الأيسر، فسأمزق أمر طرد أبيك ولن أعود أبدا لأطلب منك شيئا.

خضع إنريكي وبتر له مدير شؤون العاملين الإصبع، ومزق الأمر. ثم قفل الحقيبة ودخل الخزانة واختفى. تعلم إنريكي كيف

يداري طرف هذا الإصبع بحيث لم ينتبه لا أبواه ولا مدرّسوه إلى أن الخنصر بات مبتورا. وخلال سنوات، عاش بخوف أن يظهر له من جديد مدير شؤون العاملين ويطلب منه إصبعا جديدا، لكن لم يظهر؛ وكان حقيقة أنك لو عقدت معاهدة مع الأشباح فسيختفون من حياتك.

قضى أبو إنريكي حياة عملية عادية، ومع مرور السنين تقاعد من نفس المؤسسة التي كان يعمل بها منذ الأزل. وإنريكي، من جانبه، قد كبر وأصبح طبيبا. لم يكن ثمة أطباء في العائلة، لكنه أرجع هذا الميل إلى فقدانه لإصبع. كان يفكر بشكل فانتازي أن الطبيب سيعثر في النهاية على علاج لهذا البتر الذي كلفه جهدا كبيرا لمداراته عن العالم. واعتاد الخروج بيده اليسرى في جيبه وعندما كان يخرجها كان يحتفظ بقبضة مقبوضة، بالخنصر للداخل، كأنه يحفظ إصبعا.

وذات يوم هاتفوه من مستشفى كان قد أرسل لها سيرته الذاتية، وعرضوا عليه عملا كجراح. وفي الساعة المحددة راح إلى المستشفى مرتديا بدلة وربطة عنق مخصصتين لمقابلات العمل، واصطحبوه حتى مكتب مدير شؤون العاملين، الذي قدم له عقدا ليوقّعه. لكن إنريكي لم ير العقد، إنما رأى إصبع خنصر مدير شؤون العاملين، إصبعا تعرّف عليها في التو كإصبع بُتِر منه في سنوات طفولته. حينئذ اندفع فوق الرجل وعندما تمكنوا من سحبه من فوقه كان قد بتر تقريبا إصبع خنصر اليد اليسرى. وحين شرح الحكاية للقاضي، طلب منه هذا أن يفتح يده اليسرى التي كان يقبضها منذ سنوات، وبشكل لا يمكن شرحه ظهر هناك بداخلها إصبع خنصر ضامر ومتغضّن، لكنه بكل عُقله. فأخذوا إنريكي إلى السجن.

نجاح محلي
UN ÉXITO LOCAL

أصبح خوليو كاتبا بين ليلة وضحاها. كان قد قرأ بشغف رواية بيير كلوسو «الأشياء تنادينا»، وعندما انتهى منها قرر أن يكون روائيا. لم يكن غريبا أن يأسره كتاب الكاتب الفرنسي الذي يحكي قصة رجل مهووس بالسرقة في باريس ما بين الحربين. كان بطل كتاب كلوسو (لا أعرف الآن إن كان يُكتب بحرف سين واحد أم باثنين) يعيش مفتونا بالأشياء منذ طفولته. كان ابن محامٍ مكتبه مترع بالكتب وبالأصنام، وكان الشاب بيير (لاحظ أن الاسم الأول هو أيضا اسم المؤلف) يقضي ثلاث ساعات ميتة وهو يلمس ويتأمل رؤوس الغليونات التي راكمها أبوه في طبق من الخوص فوق منضدة. ثمة رؤوس ناعمة وأخرى محفورة، ضيقة أو واسعة، وكل واحدة مصنوعة من مادة مختلفة: عظم، قصب، خشب، مرجان... وبعضها يتخذ رأس حيوان أو رجل. هناك بغزارة كذلك وجوه نساء تصل شعورهن تقريبا حتى منتصف المنضدة.

بعد ذلك، كان المراهق بيير يتحسس المحابر التي يزين بها مكتبه، رغم أن أكثر ما كان يعجبه هو مجموعة أقلام أبيه الحبرية. وكان يقضي الساعات الميتة وهو يفتح ويغلق هذه الأقلام، مبهورا

بلمعـان بعـض أقـلام الذهـب أو الإيريديـوم أو الفضـة أو البلاتـين. في هـذه الفـترة بـدأ سرقاتـه الأولى، كان يفـك السـن الحـبر ويتركها فارغـة داخـل الفترينـات المعروضـة بهـا، مثـل جسـد بـلا أمعـاء. وكان أبـو بيـير، الـذي كان يقتـصر عـلى النظـر للمجموعـة مـن دون فتـح هـذه الأقـلام، لا ينتبـه إلى هـذه السرقـات إلا بعـد مـرور سـنوات طويلـة.

لم يكـن صعبـا أن يتماهـى خوليـو مـع شـخصية كلوسـو، إذ ومـن دون الوصـول لهـذا التطـرف في السرقـة المَرَضيـة، كانـت شـقته حافلـة بأشـياء مسروقـة مـن بيـوت أصدقائـه وكذلـك مـن مطاعـم وفنـادق. وخـلال فـترة مـا، عندمـا كان مراهقـا ولم تكـن أنظمـة الأمـان بالمـولات التجاريـة بنفـس دقـة الأنظمـة الحاليـة، كان لصـا معتـادا للقداحـات ودبابيـس ربطـات العنـق.

لقـد قـرأ روايـة كلوسـو كأنـه يقـرأ سـيرته ذاتهـا، وكنـا نقـول إنـه عندمـا انتهـى منهـا قـرر أن يـسرق فكـرة أن يصـير روائيـا. وبشـكل عام، فالهـوس بالسرقـة لا يـأتي عـادة بمفـرده، بـل يـأتي مرتبطـا بمتلازمـات أخـرى. وليـس غريبـا أن يكـون المهـووس بالسرقـة، مثـلا، مهووسـا بالفانتازيـا أيضـا. وكان خوليـو كذلـك. كان يكـذب مثلـما يكـذب هـذا النـوع مـن المـرضى؛ مـن دون أي هـدف. ومـن الخطـأ أن نفكـر أن الكـذاب يسـعى دائمـا للحصـول عـلى مكسـب مـن أكاذيبـه. لا، فالأغلبيـة تكـذب كنـوع مـن الاسـتجابة للفطـرة، مثـل النبـات ينمـو في اتجـاه النـور. هكـذا، عندمـا كان خوليـو يذهـب إلى السـينما، كان يؤكـد أنـه ذهـب إلى المـسرح، والعكـس. وكان يشـيد بالكلـمات واقعـا بديـلا للواقـع. وبشـكل مـا، كان يعيـش حياتـين، إذ كان في نفـس الأمسـية يشـاهد فيلـما لنفسـه ومسرحيـة للآخريـن.

الملفـت هـو الطريقـة التـي صـار بهـا كاتبـا بعـد أن قـرأ «الأشـياء

تنادينا». أصبح كاتبا من دون أن يصبح كاتبا، بمعنى أنه لم يكتب ولا حتى سطرا. لكن المذهل أنه كان يفتح الجرائد كل يوم على صفحة الثقافة ليرى إن كان قد نشر شيئا.

- دعني أرى إن كنت نشرتُ شيئا. قال لي ذات يوم بجدية شديدة وهو يخطف الجريدة من يدي.

أنا كنت أعرف أنه لا يكتب، رغم أنه كاتب، لكنني لم أكن أتجرأ لأقول له إنه من المستحيل أن ينشروا في الصحافة شيئا لم يُكتب بعد. عليّ أن أعترف من ناحية أخرى أن هذه الفانتازيا كانت تدهشني. ربما توصلتُ في تفكيري إلى احتمالية واقعية بأن النقاد قد يكتبون عن رواية لم تُكتب. ومع الوقت أنا نفسي من كنت أسأله أحيانا إن كانوا قد ذكروا شيئا في التلفزيون عن روايته الأخيرة، وعادة ما كان يجيبني بإجابات ملتفة مثل أنه لا يشاهد التلفزيون. وذات يوم هاتفته وهنأته بكل جدية لنجاح كتابه الأخير.

- آه، نعم -قال لي- أعتقد أنه يبيع بشكل جيد. من نشره؟

قلت له اسم أي دار نشر فهدأ. وآخر مرة زرته كان بيته مترعا بصحف أجنبية. لقد كان النجاح في إسبانيا يبدو له نجاحا محليا فيما كان يعيش منتظرا نجاحه في بلدان أخرى.

موت بأثر رجعي
LA MUERTA RETROACTIVA

عندما بلغ العاشرة، ظهر الشيطان لـ رودريجو فويرتس وقال له إن لم يعرج مرة واحدة في الشهر فستموت أخته الصغيرة. كان رودريجو يكره أخته، لكنه لم يكن مستعدا لتحمل شعور بالذنب سينال منه بسبب هذه التراجيديا طوال حياته. وبالتالي، وحتى يفعل الأشياء بمنهج، كان يذهب إلى المدرسة ويعود منها وهو يعرج في الجمعة الأولى من كل شهر. لقد تسبب له ذلك بمشكلة مع أبويه ومع مدرسيه ومع زملائه أنفسهم، لكنه كان يصلّح الحال بالعثور على ذريعة ما؛ إما أن الحذاء يؤذي قدمه، وإن لم يكن فلأن كاحله التوى أو أنه قص أظفرا أكثر من اللازم ويؤلمه. وبفضله، كبرت أخته قوية واستطاع أن يكرهها دون أي تأنيب ضمير.

وحين كبر، واصل السير عرجا مرة في الشهر، إذ رغم أنه لا يؤمن بشيء، كان يؤمن بالحظ السيئ، وكان يحصّن نفسه منه بهذه الطقوس الصغيرة. لم يظهر له الشيطان متجسدا إلا في تلك المرة وهو في العاشرة، لكنه كان يتسلل إلى رأسه في شكل نبوءات تبث فيه الألم. وهكذا، عندما كان يسير على الرصيف الأيمن، كانت تهاجمه فكرة أنه لو عبر الشارع فسيقع فوق رأسه أفريز.

أو عندما تكون طائرته على وشك الإقلاع، كان يفوّتها ويركب التي تليها حتى يخدع الحظ. كان يقضي حياته مستبدلا رصيفا برصيف، قطارا بقطار، عملا بعمل... وذات يوم، سخرتْ أخته من هذه العادات المجنونة فقال لها:

- اسكتي، أنتِ لا تزالين حية بفضلي.

وحكى لها حكاية الشيطان. فاعترفت له أخته حينئذ بأن إبليس أيضا ظهر لها في طفولتها وأكد لها أنها إن لم تغمز بعينها اليسرى عشر مرات واليمنى خمس عشرة مرة في الأسبوع فسيموت أخوها.

- لكن لم أعره اهتماما وأنت لم تمت. أضافت.

- لكن يمكن أن أموت في أي لحظة بأثر رجعي يا معتوهة. أجابها رودريجو بوجه شاحب من القلق.

هي لم تكن تعرف فيما يكمن الأثر الرجعي وتحتم على رودريجو أن يشرح لها، ثم أضافت له أخته:

- من المستحيل أن تموت بأثر رجعي.

كان رودريجو يعرف أنه فيما يخص الرعب كل شيء ممكن، لكن أخته كانت امرأة سطحية جدا وأدرك أنه غير مجدٍ أن يفهّمها ما كان يشعر به.

- إذن فبداية من الشهر المقبل سأتوقف عن العرج. قال لها بنبرة مهددة.

- يبدو لي كأنك ستجري عملية جراحية. أجابتْ.

في الواقع، لم يكن قادرا على التوقف عن العرج الشهري، رغم أنه أقسم لأخته أنه قد تركه.

- وها أنا ما زلت موجودة، حية أرزق. كانت تقول في اللقاءات العائلية وهي ميتة من الضحك كلما لاح الموضوع.

وكان كره رودريجو لأخته يتزايد مع مرور السنين. في الجمعة الأولى من كل شهر كان يعرج بشكل سيئ ليرى إن كانت ستموت مرة واحدة أم لا، لكن الشيطان كان يكفيه أن يعرج حتى يحفظ له حياتها، وسيّان عنده أن يفعل ذلك بجودة أو بسوء. في هذه الأيام تسللتْ إلى رأسه فكرة أنه ربما لو غمز بكل عين عدد المرات التي أمر بها الشيطان أخته، فربما يكون الوقت متاحا لإنقاذ حياته ذاتها. هكذا حَسَبَ الغمزات المتأخرة، إذ لم تقم أخته بهذا الطقس ولو مرة واحدة، وكان الناتج ملايين الغمزات. لم يكن يهمه ذلك؛ كل يوم كان يغمز لعدة ساعات بأثر رجعي حتى بلغ اليوم الذي فيه.

وبعد أن بلغ كل منهما الشيخوخة، ماتت أخته لأسباب طبيعية، رغم أن رودريجو لم يكن قد كف عن العرج ولا يوم جمعة واحد في أي شهر. ذلك ما جعله يرتاب في أن كل ذلك لم يكن إلا محض جنون. حينئذ توقف عن الغمز أيضا (ولم يعد يهمه الموت) وتأكد أنه لن يموت. وبدت له فكرة الموت بأثر رجعي فكرة حمقاء، ورويدا رويدا تخلى عن كل الطقوس الخرافاتية، باستثناء العرج الذي تبقّى له كحركة غير إرادية بات من الصعب عليه التوقف عنها أكثر من الاستمرار فيها.

وخلال تلك السنوات، السنوات الأخيرة من حياته الصعبة، وبعد أن تحرر من كل الهوس الذي ظل طويلا أسيرا له، عاش في النهاية حياة سعيدة وراحة بال مثل تلك الحياة التي عاشتها أخته. حينئذ أدرك أنها لم تمت، إنما هي الآن تعيش في داخله بفضل عرجه ذاته. فبات يكرهها من جديد، رغم أن كرهه لها يفترض كرهه لذاته. وحين بلغ سنواته التسعين، كف عن العرج ثم مات بعد قليل. وعندما كان يحتضر، أدرك أن من كان يحتضر هي أخته. إنه كان قد مات مرات كثيرة من قبل، وربما بأثر رجعي.



أحمد عبداللطيف

● ولد في القاهرة عام 1978.

● روائي ومترجم وباحث مصري، تخرج في قسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر، وحصل على الماجستير في الأدب المقارن من جامعة أوتونوما دي مدريد، وحاليا هو باحث دكتوراه في نفس الجامعة.

● صدرت له خمس روايات، وما يربو على عشرين كتابا مترجما لكُتّاب مثل جوزيه ساراماجو، ماركيز، جيوكوندا بيلي، خوان خوسيه ميّاس، ميجيل دي أونامونو، بالإضافة لمئات القصص والمقالات المنشورة بالصحف المصرية والعربية، كتابة وترجمة.

● في الإبداع، فازت روايته الأولى «صانع المفاتيح» بجائزة الدولة التشجيعية 2011، وروايته الثالثة «كتاب النحات» بالمركز الأول بجائزة ساويرس الثقافية عام 2015، ووصلت روايته الخامسة «حصن التراب - حكاية عائلة موريسكية» إلى القائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية عام 2018.

وفي الترجمة، فاز بجائزة المركز القومي للترجمة عام 2013 عن ترجمته لرواية «الكون في راحة اليد» للكاتبة النيكاراجوية جيوكوندا بيلي.

د. محمد عبدالمجيد سويد النصار

- كويتي من مواليد العام 1979.
- حاصل على الدكتوراه في الآداب تخصص لغويات باللغة الإسـبانية من جامعة مورثيا - إسبانيا العام 2017.
- شـارك في عدة ورش للترجمة (من العربية إلى الإسبانية) في مجال المقالات والنقد الأدبي والجرائد والمجلات في العام 2003 - 2004.
- حضر العديد من الدورات في الترجمة والتحليل الخطابي.
- يعمـل حاليا في وظيفة مترجم بإدارة التراث العربي في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.

إبداعات عالمية

الأشياء تنادينا - قصص

يعتبر خوان خوسيه ميّاس (1946) أحد أهم كُتّاب إسبانيا في الأربعين عاما الأخيرة، إذ استطاع الكاتب الذي يطلقون عليه «كافكا الإسباني» أن يغير مسار السردية الإسبانية بمنحها كثيرا من الخيال والغرائبية، وبتطعيمها بجماليات فنية لم تعرفها من قبل. وعبر الاستبطان والتحليل النفسي، وعبر الهواجس الذاتية والوساوس، والأفكار الخيالية البرّاقة والطازجة، استطاع الكاتب أن يشيد عالما موازيا يهدم فيه الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال، الواقع والحلم، الواقع والفانتازيا، ليقدم بسرديته عالما نعرفه لكننا أبدا لم نلتفت له. فاستحق بذلك أن يلفت نظر النقاد والقراء والباحثين الأكاديميين، وأن ينال أهم الجوائز الإسبانية مثل جائزة «نادال» و«بلانيتا» وجائزة النقد.

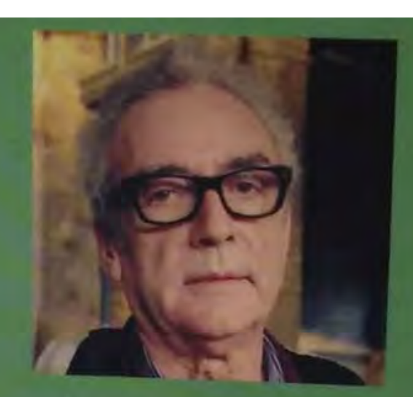
وفي مجموعته القصصية «الأشياء تنادينا» ينطلق ميّاس من حادث واقعي بسيط ليصل به إلى أشد الأفكار غرابة. إنه التكنيك الفني الذي يستخدمه ليكتشف غرابة الواقع، ويتعمق من خلاله في الذات الإنسانية عبر بوابة «الغريب»، لنتعرف عبر القصص على أنفسنا، ونعيد من خلالها تعريفاتنا للعالم. هنا تتجلى، كذلك، أساليبه الفنية وجمالياته المميزة التي صنعت منه «مايسترو» القصة الإسبانية. فالمألوف ليس مألوفا كما نظن، والأشياء ليست دائما كما تبدو، فخلف التفاصيل الصغيرة تكمن الأسئلة الكبرى، والقصة «الميّاسية» تفتح للقارئ أفقا جديدا لمشاهدة كل ذلك، واختباره.

بشكل ما، يعتبر خوان خوسيه ميّاس نتاجا لتلاقح كل ميثولوجيات العالم، وابنا بارا للفانتازيا العربية واللاتينية والأوروبية، لكنها الفانتازيا الحديثة، المرتبطة باليومي والمعاصر.



ISBN: 1-589-0-99906-978

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications



خوان خوسيه مياس

- روائي وقاص وكاتب مقال إسباني، ولد العام ١٩٤٥.
- صدر له ما يربو على الثلاثين كتاباً ما بين القصة والرواية.
- فاز بالعديد من الجوائز المهمة، منها: جائزة «بلانيتا» المرموقة، وجائزة «النقد»، وجائزة «سيسامو» وجائزة «رومولوس جاييجو».
- كتب عن الفرد، ومزج الخيال بالواقع، ولجأ للميتافيزيقا.